عبد الأمير الرفيعي

العراق

بين سقوط الدولة العباسية
وسقوط الدولة العثمانية

الجزء الثاني

الإهداء

إلى رفيقة دربي وشريكة حياتي التي لولا جهودها وصبرها وإصرارها على مواصلة العمل لما خرج هذا الكتاب، إلى زوجتي الحبيبة رمزية الجواهري أهدي هذا العمل.

عبد الأمير الرفيعي

شكر وتقدير

بعد أن أتيت إلى نهاية الجزء الثاني من هذا الكتاب لابد لي أن أقدم شكري الجزيل إلى جميع الأصدقاء الذين آزروني وشجعوني على المضي في تنفيذ مشروع كتابة تاريخ العراق الذي كنت قد بدأت التحضير له في ثمانينيات القرن الماضي. وأود أن أخص بالذكر صديق العمر منذ أيام الدراسة في متوسطة النجف، الأخ هادي السيد منصور العذاري الذي زارني بعد فراق طويل في بلاد الغربة سنة ١٩٩٠م، وتحمس لمشروع الكتابة الذي كنت قد باشرت بتنفيذه رغم المصاعب والعقبات، ومنذ تلك الأيام والأخ هادي يتابع ويستفسر.

وحينما صدر الجزء الأول من هذا الكتاب شعرت أن حماسه وما بذله من جهود للترويج للكتاب كان تعبيراً صادقاً عن الوشائج الإنسانية التي تجمعنا في حب هذا الشعب الذي زرع الخير على ضفاف الفرات ودجلة وعن تمسكنا بتراثه وبالتاريخ الذي صنعه. فنحن من ذلك التراث والتاريخ، وهذه سنة الحياة.

وأود كذلك أن أقدم شكري وامتناني للصديق الدكتور صلاح نيازي الذي تفضل بمراجعة المسودة المطبوعة من هذا الجزء وعالج أخطاءها المطبعية واللغوية وأبدى ملاحظات عامة قيمة. إليه وإلى جميع الأصدقاء الذين ساعدوا في إخراج وطبع هذا الجزء من الكتاب تحيتي وتقديري.

عبد الأمير الرفيعي

العنوان:

العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية

المؤلف:

عبد الأميرعبد الوهاب الرفيعي

الطبعة الأولى:

الناشر:

التوزيع:

المحتويات

الباب الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

المقدمة

يسرني أن أضع بين يدي القارئ الكريم الجزء الثاني من كتاب "العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية" الذي صدر الجزء الأول منه في نيسان ٢٠٠٢م. وقد ذكرت في مقدمة الجزء الأول، إن المواضيع التي يتناولها هذا الكتاب تأتي ضمن إطار أوسع يشمل تكوين وادي الرافدين وشبه الجزيرة العربية والعوامل التي أدت إلى تصحرها، وساهمت في ظهور العرب في بواديها القاحلة وهجراتهم إلى وادي الرافدين الخصيب الفريد في تكوينه وموقعه الجغرافي.

لابد أن الذين اطلعوا على الجزء الأول من هذا الكتاب، لاحظوا اهتمامي في إظهار خصوصيات بيئة وادي الرافدين النهرية، وأثرها في رسم حياة الإنسان العربي، والتاريخ الذي صنعه منذ أن حلّ بذلك الوادي الخصيب.

وبالنظر لأهمية تلك الظاهرة النهرية التي كانت العامل الرئيسي في رسم مسيرة مجتمعات وادي الرافدين وتطورها، والتي لم تنل حسب اعتقادي، ما تستحقه من اهتمام من قبل الباحثين في تاريخ العراق، كان لابد لي أن أواصل دراسة أبعاد تلك الظاهرة النهرية الفريدة خاصة الاقتصادية منها والاجتماعية وبالنظر لطول تلك الفترة التاريخية التي يتناولها الكتاب وتداخل أحداثها التي لازال الغموض يشوبها ويحجب عنا الكثير من حقائقها رأيت أن أتناولها في مراحل مترابطة، ففي

التاريخ من عوامل الاتصال والاستمرار، ما يجعل التجزئة غير ممكنة وما يجعل كل فترة منه متممة لما قبلها، ونتيجة طبيعية لظروفها.

وضمن إطار هذا المفهوم، استعرض الجزء الأول من هذا الكتاب أوضاع العراق في الثلث الأخير من العهد العباسي، الذي شاهد قيام دولة بني أسد في الفرات الأوسط، وشاهد ضعف وانحسار الحكم السلجوقي في العراق. وقد أدى ضعف السلاجقة وانحسار هيمنتهم، إلى تسلط عسكر المماليك الترك على دار الخلافة العباسية، وهذا بدوره مكنهم من تجهيز حملة عسكرية باسم الخليفة العباسي للقضاء على دولة بني أسد العربية بالحلة. بعد أن أحكم المماليك الترك سيطرتهم على البلاد سلطوا السيف على الرقاب ونهبوا أموال الناس واغتصبوا أراضيهم، وتمكنوا خلال جيل واحد من إقامة إقطاعيات عسكرية كبيرة، شملت أحياناً مجموعة من الأنهار والقرى والبلدان، كان يمسك بها أحد أمراء الترك. وهذا أدى بدوره إلى عزل العراق، وإضعافه اقتصادياً وعسكرياً.

تلك كانت الأسباب الحقيقية لانهيار جيش الخليفة المكون من مماليك الترك في أول اشتباك مع فرقة صغيره من جيش هولاكو. بعد انهيار جيش المماليك، ولغياب الشعب عن المعركة، سقطت بغداد بيد المغول بدون حرب، وسقطت معها الدولة العباسية.

بعد سقوط الدولة العباسية في سنة ١٢٥٨م، حكم المغول في العراق زهاء قرن ونصف ثم تلاهم في سنة ١٤١١م حكم دولة قبائل التركمان القره قوينلّو، الذين اندلعت في أيامهم ثورة عرب أهوار الجنوب بقيادة السيد محمد بن فلاح الموسوي مؤسس دولة عرب العراق المشعشعين. تلك الثورة التي اندلعت في خضم المعانات والأهوال التي واجهها عرب العراق، خاصة في العقود الثلاث التي أعقبت اجتياح جيوش تيمورلنك للبلاد إذ تعرض السكان إلى سلسلة من الحروب والصراعات الدموية بين عسكر المغول وقبائل التركمان القره قوينلّو تارة، وبين

قبائل التركمان أنفسهم تارة أخرى، تلك النزاعات المدمرة التي لم يحصد عرب العراق منها سوى المزيد من الكوارث والمحن.

في سنة ١٤٧٠م انهار حكم قبائل التركمان القرة قوينلو وحل محله حكم قبائل التركمان الآق قوينلو الذي استمر زهاء أربعة عقود، وانتهى في العراق في سنة ١٥٠٨م إثر هروب آخر حكام التركمان الآق قوينلّو من بغداد، وتسلم نقيب الأشراف السيد محمد كمونة مقاليد الأمور فيها. بعد أيام دخلت جيوش الشاه إسماعيل الصفوي بغداد بدون حرب وهكذا كانت البداية للعهد الصفوي الأول في العراق الذي دام قرابة ربع قرن، وانتهى باستيلاء الجيوش العثمانية بقيادة السلطان سليمان الأول على بغداد في سنة ١٥٣٤م.

وبهذا الصدد أود أن أشير إلى أنني أثناء إعداد هذا الجزء من الكتاب تسنى لي أن أبحث ما تناوله الجزء الأول من مواضيع، مع عدد من الأصدقاء والمعارف وغيرهم من المثقفين الذين التقيتهم في العراق أو في الخارج. وقد سرني أن أجد أن أغلب من اطلعوا على الجزء الأول يرون ما كنت أؤمن به دوماً بأن تاريخنا قد تعرض إلى التزوير والتشويه وتغييب الحقيقة، وإنهم يتفقون معي على أن الفترة التي يتناولها الكتاب تعد من أشد الفترات عتمة. ومن اللافت أن العديد منهم يسمون تلك الفترة بـ"الفترة المظلمة".

إن ذلك التجاوب والاهتمام شجعني على مواصلة العمل وبذل الجهود لإنجاز هذا الجزء الذي تتناول فصوله تاريخ العراق في القرنين السادس عشر والسابع عشر ميلادي، وهي فترة أخرى غُيبت عن الأنظار أهم أحداثها أو على الأقل تم تشويه وقائعها وتشمل:

- العهد الصفوي الأول الذي بدأ في سنة ١٥٠٨م وانتهى في سنة ١٥٣٤م.
- العهد العثماني الأول الذي ابتدأ في سنة ١٥٣٤م وامتد زهاء تسعة عقود من الزمن وانتهى بتمرد قائد العسكر الإنكشاري في بغداد بكر صوباشي على حكومة اسطنبول، والذي طلب الحماية من الشاه عباس الصفوي ودعاه للقدوم إلى

بغداد ثم تراجع عن ذلك، ولكن الشاه عباس أقتحم بغداد وقتل بكر صوباشي في سنة ١٦٢٣م.

ـ العهد الصفوي الثاني في العراق الذي بدأ باستيلاء الشاه عباس الصفوي على بغداد والذي امتد قرابة خمسة عشر عاماً وانتهى باستيلاء الجيوش العثمانية بقيادة السلطان مراد الرابع على بغداد في سنة ١٦٣٨م.

ـ العهد العثماني الثاني في العراق الذي امتد أكثر من ستة عقود من الزمن كانت حافلة بالأحداث على صعيد الدولة العثمانية التي أنهكتها حروبها الأوربية وأضعفها الفساد الداخلي الذي تفشى في جسم الدولة وشمل حتى قصور سلاطين آل عثمان، ودواوين الوزراء والأمراء. تلك الأوضاع التي اضطرت الحكومة العثمانية في نهاية القرن السابع عشر الميلادي، إلى الركوع لمشيئة الدول الأوربية وتوقيع معاهدة كارلوفيتش التي أدخلت الإمبراطورية العثمانية في مرحلة "الرجل المريض".

وفي خضم تلك الأحداث خاض عرب العراق صراعات دموية مريرة ضد العثمانيين من أجل التمسك بالأرض التي هي مصدر حياتهم. وكانت أقوى العوامل التي سببت تلك الحروب الدموية ورسمت مسيرتها هي السياسة العثمانية التي كانت تصر على فرض نظام الإقطاع العسكري العثماني على العشائر العراقية، التي نظمت عبر القرون حياتها وأنظمتها الزراعية وملكيتها للأرض بما يتلاءم مع طبيعة الزراعة النهرية في وادي الرافدين.

وفي تلك الحقب التاريخية التي شهدت تردي أوضاع الدولة العثمانية ازدادت الضغوط العسكرية على عرب العراق وساءت أوضاعهم الاقتصادية، بتأثير تلك العوامل السلبية التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية في اسطنبول وفي باقي الولايات.

ومن أجل الحفاظ على حياتهم والبقاء على الأرض في إطار تلك البيئة الزراعية في وادي الرافدين، ازداد التفاف عرب العراق حول كياناتهم العشائرية

التي اضطلعت بمسؤولية تنظيم وتنسيق جهود تلك العشائر وقيادتها في السلم والحرب، وقد تعاظم في تلك الفترة التاريخية دور اتحاد المنتفك في جنوب العراق وسلطة الخزاعل في الفرات الأوسط. تلك الكيانات العشائرية التي ساهمت في صنع تاريخنا، الذي لازالت أهم أحداثه مشوشة، أما بسبب سياسة التعتيم وتشويه الحقائق أو لعدم إدراك البعض أهمية ذلك الدور في حياة عرب العراق الذين صنعوا تاريخ تلك الفترة.

وكما أسلفنا فإن أحداث تلك الفترة المشوشة لازالت بحاجة إلى دراسة موضوعية شاملة، لكي تساعدنا في إعادة تقييمها، ولتسهم في إظهار مفاهيم وقناعات جديدة لم يكن يلتفت إليها من قبل، وضمن إطار هذه الرؤية أضع هذا الجزء من الكتاب بين يدي القارئ الكريم مساهمة متواضعة مني في هذا المضمار.

تمهيد

الترك في الدولة الصفوية والدولة العثمانية

تفتقر أقاليم إيران المترامية الأطراف إلى أنهار كبيرة، مثل النيل ودجلة والفرات، تمدها بالمياه الكافية لسقي مزروعاتها، وتغمر أراضيها الزراعية بمياه فيضاناتها الموسمية التي تعيد لها خصوبتها كما لا تتمتع أغلب أقاليم إيران بمواسم أمطار منتظمة تفي بأغراض الزراعة، لذا فإن مسألة الحصول على المياه الكافية كانت منذ أقدم العصور المشكلة الأساسية التي تحدد استقرار الإنسان على الأرض لهذا فإن مراكز الاستقرار البشري ظلت متناثرة ومتباعدة وتفتقر إلى الكثافة السكانية التي تميزت بها الوديان الخصيبة، كوادي النيل ووادي الرافدين.

إن تباعد تلك التجمعات السكانية منح مجتمعات إيران طبيعة خاصة أعطت كل إقليم وأحياناً كل واد صفاته الاجتماعية الخاصة. وحينما تعرضت أقاليم إيران إلى موجات الهجرات التركية والتركومغولية، انتشرت تلك القبائل القادمة من الشرق في أقاليم إيران الشمالية لملاءمتها للطبيعة الرعوية للقادمين الجدد. ولنفس الأسباب، فإن أعداداً أخرى من القبائل التركية القادمة من الشرق، اتجهت غرباً نحو آسيا الصغرى وانتشرت في أقاليم الأناضول، بينما سارت قبائل تركية أخرى إلى الأقسام الشمالية من بلاد ما بين النهرين والجزيرة والشام.

وبسبب اضطراب الأحوال في أواسط آسيا، أو ما كان يعرف ببلاد ما وراء النهر، تركت جموع غفيرة من القبائل التركية التي كانت تجوب تلك السهوب

مناطقها الرعوية، ودخلت المناطق التي كانت تحت سيطرة المسلمين، حيث تحولت بصورة جماعية إلى الإسلام[1].

الترك والإمبراطورية السلجوقية

سبق أن أشرنا إلى القبائل التركية التي انتشرت في الأقسام الشمالية من شبه القارة الإيرانية، فيما كان يعرف بولاية خراسان، والى الدول والكيانات السياسية التي أقاموها في مختلف العصور الإسلامية، ومنها الإمبراطورية السلجوقية التي قامت في إيران في القرن الخامس الهجري والتي امتد نفوذها غرباً، بعد استيلاء السلاجقة على بغداد، فشمل باقي أملاك الدولة العباسية. ومن المعروف أن سلاطين السلاجقة كانوا من أهل السنة على مذهب الإمام أبو حنيفة النعمان.

وفي أيام الدولة السلجوقية، في عهد السلطان ألب أرسلان السلجوقي، تعرض العالم الإسلامي سنة ٤٦٣هـ (١٠٧١م) إلى حملة بيزنطية كبيرة، إذ خرج الإمبراطور البيزنطي رومانوس على رأس جيش كبير اشتركت فيه فرق من الروم والروس والأرمن والإفرنج والكرج، بلغ تعداده نحو مائتي ألف مقاتل.[2] وبعد أن اخترق رومانوس حدود بلاد الإسلام زحف بتلك الجيوش شرقاً حتى بلغ مدينة ملازكرد، وهي من أعمال خلاط على الفرات الأعلى شمال بحيرة "فان". وحينما علم السلطان أرسلان بأخبار تلك الحملة، وكان في أنحاء أذربيجان خرج على عجل للتصدي لها، ولم يكن معه حينئذ سوى خمسة عشر ألف فارس. وفي أول اشتباك مع العدو تمكنت مقدمة الجيش السلجوقي من إنزال هزيمة ساحقة بجيش روسي قوامه عشرة آلاف مقاتل وأسر قائده.

---

(١) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص١٩٥

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج٨ص١٠٩

بعد تلك المعركة ولكثرة أعداد عساكر الروم، طلب السلطان ألب أرسلان عقد هدنة مع الروم، ولكن الإمبراطور رومانوس رفض ذلك وقال: لا هدنة إلا في الري التي كانت عاصمة الدولة السلجوقية آنذاك (تقع قرب العاصمة طهران حالياً). وبذلك كشف ذلك الإمبراطور عن نوايا تلك الحملة العسكرية البيزنطية، التي كانت تستهدف القضاء على الدولة السلجوقية، والاستيلاء على بلاد المسلمين. عندئذ قرر السلطان ألب أرسلان مواصلة الحرب حتى النهاية، ويقال إن الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي أشار على السلطان، أن يبدأ في قتال الروم يوم الجمعة في الساعة التي يكون فيها الخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين بالنصر.

كتب ابن الأثير في أحداث تلك السنة فقال:

فلما كانت الساعة، صلى السلطان ودعا، وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عساكره مثله، ولبس البياض وقال إن قتلت فهذا كفني، وزحف نحو الروم.[(١)]

اشتبكت الجيوش السلجوقية مع جيوش العدو في معركة طاحنة رهيبة، انتهت بهزيمة عساكر الروم وأسر الإمبراطور رومانوس نفسه.

تعد معركة ملازكرد من المعارك الحاسمة في التأريخ. إذ تمكن السلاجقة بعد انتصارهم الكبير على جيوش الروم، من التوغل غرباً في آسيا الصغرى "تركيا" حالياً والاستيلاء على أقاليم واسعة فيها كانت إلى ذلك التاريخ من أملاك الإمبراطورية البيزنطية.

وبعد ذلك الانتصار الحاسم بعث السلطان ألب أرسلان ابن عمه سليمان قتلمش على رأس جيش سلجوقي استقر في تلك الأقاليم المفتوحة، وهكذا امتدت الإمبراطورية السلجوقية غرباً في أقاليم آسيا الصغرى التي كانت تعرف ببلاد

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج٨ص١٠٩

الروم. وبعد انقسام الإمبراطورية السلجوقية، قامت في آسيا الصغرى دولة سلجوقية جديدة عرفت في التاريخ بدولة سلاجقة الروم.

تزايد تدفق القبائل التركية على أقاليم آسيا الصغرى مع اتساع رقعة الإمبراطورية السلجوقية، على حساب أملاك الإمبراطورية البيزنطي. وبمرور الزمن ساد أولئك الترك سكانياً في تلك المناطق، وغيروا هويتها الإثنية البيزنطية المسيحية، إلى الهوية التركية الإسلامية.

في ظل حكم سلاجقة الروم امتدت في أقاليم آسيا الصغرى جذور ذلك المجتمع التركي السلجوقي المتشبع بالثقافة الفارسية. وبعد وفاة السلطان ألب أرسلان تولى ولده جلال الدين ملكشاه (٤٦٥هـ-٤٨٥هـ / ١٠٧٢م-١٠٩٢م) الذي استولى على دمشق في سنة ٤٦٨هـ.وبذلك بلغت الإمبراطورية السلجوقية أوج قوتها واتساعها. وبفضل ذلك التوسع السلجوقي انتشر مذهب الإمام أبو حنيفة في تلك الأقاليم المفتوحة.

من المعروف أن إدارة وتنظيم الإمبراطورية السلجوقية، التي امتدت من أفغانستان وخراسان شرقاً إلى أقاليم آسيا الصغرى وبلاد الشام غرباً، كانت بيد وزراء وإداريين من أصول فارسية، كان من أشهرهم الوزير الكندري وزير السلطان طغرلبيك.

ولقد برز في بلاط السلطان ملكشاه ثلاثة من كبار علماء الفرس، جمعتهم رابطة الزمالة منذ أيام دراستهم في مدينة طوس (مشهد) وهم الشاعر عمر الخيام صاحب الرباعيات الشهيرة، والثائر الشيعي الإسماعيلي الحسن الصباح، الذي تحول إلى معارضة السلاجقة وتحصن في قلعة الموت في بلاد الجبل قرب بحر قزوين، وأسس هناك دولة الشيعة الإسماعيلية التي قضى عليها هولاكو قبيل استيلائه على بغداد، والوزير أبو الحسن نظام الملك الطوسي، الذي أسس في العهد السلجوقي نظام المدارس الدينية لأهل السنة والتي شيدها في نيسابور وبلخ وهرات ومرو والموصل وبغداد والتي عرفت بالمدارس النظامية. ومن المعروف إن نظام

الملك أقام تلك المدارس الدينية لنشر مذاهب أهل السنّة ولمقاومة الثقافة الشيعية[(١)]، إذ من المعروف أن الوزير أبو الحسن نظام الملك الطوسي كان على مذهب الإمام الشافعي. وهو الذي وضع أسس نظام الإقطاع العسكري السلجوقي. وقد كتب نظام الملك كتاباً بالفارسية بعنوان "سياسة نامة" وهو كتاب على شكل إرشادات ونصائح للحكام السلجوقيين أهداه إلى السلطان ملكشاه.

إن دور الوزير الطوسي نظام الملك، في تطوير كيان الدولة السلجوقية والهيمنة على أدارتها، يلقي الضوء على أبعاد الظاهرة التاريخية التي تمثلت في تفاعل الترك مع الحضارة والثقافة الفارسية، منذ دخولهم شبه القارة الإيرانية. وإن العلاقة الحميمة التي قامت بين الوزير الطوسي والسلطان السلجوقي، تبين استمرار وتطور تلك الظاهرة واعتماد الترك على الفرس في إدارة كياناتهم. وهذا ما أكده السلطان السلجوقي ملكشاه، حينما منح وزيره نظام الملك سلطات مطلقة في إدارة الدولة وخاطبه بقوله:

لقد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد. وحاف له، وأقطعه إقطاعاً زائداً على ما كان من جملته طوس مدينة نظام الملك (حالياً مشهد خراسان) وخلع عليه ولقبه ألقابا من جملتها أتابك ومعناها الأمير الوالد.[(٢)]

أشار الدكتور العبادي إلى دور السلاجقة في نشر الثقافة الفارسية في مجتمعات الترك في آسيا الصغرى فقال:

وعندما زحفوا إلى آسيا الصغرى وكونوا هناك دولتهم المعروفة بدولة سلاجقة الروم، كانت الحضارة الفارسية هي معينهم أيضاً. فكانت الفارسية هي لغة الآداب والتأليف. وكانت قصور السلاطين تزدان بالفنون الإيرانية، وأبيات الشاهنامة الفارسية، رغم ما هو معروف من عداء الشاهنامة الصريح للترك.[(٣)]

---

(١) أحمد مختار العبادي – في التاريخ العباسي والفاطمي، ص١٩٢

(٢) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج٨ص١١٤

(٣) أحمد مختار العبادي – في التاريخ العباسي والفاطمي، ص١٨٨

وبهذا الصدد يقول الدكتور سهيل زكّار:

والجدير بالملاحظة في العهد السلجوقي وهو ما يجب تقدير أهميته العظيمة، ليس التقدم الكبير للتقاليد الفارسية الجديدة والأدب الفارسي وإنما دخول هذه التقاليد إلى الجزيرة والشام وآسيا الصغرى البيزنطية. وهكذا تمكنت التقاليد الإيرانية من اجتياز الفرات نحو الغرب، وهو أمر لطالما أخفقت في تحقيقه في الماضي. صحيح إن هذه التقاليد لاقت الإخفاق في الشام والجزيرة ولذلك قصة منفردة، إلا أنها نجحت في آسيا الصغرى وأخذت هذه البلاد تتغير كلياً وتتحول من الإغريقية البيزنطية إلى الإيرانية التركية الإسلامية.(1)

الترك في إمبراطورية هولاكو

بعد سقوط الدولة العباسية أسس هولاكو حفيد جنكيز خان دولة مغولية لم تختلف حدودها كثيراً عن حدود الإمبراطورية السلجوقية، إذ شملت أقاليم شبه القارة الإيرانية والعراق وأقاليم دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى.

وقد اتخذ المغول كما كان السلاجقة قبلهم من شمال إيران قاعدة لحكمهم واختاروا مدينة تبريز عاصمة لهم. وفي أيام حكومات المغول، استمر تدفق القبائل التركية والمغولية القادمة من الشرق على أقاليم شمال إيران. وهكذا نمت وتطورت في ظل الحكم المغولي مجتمعات الترك في شمال إيران، واستمر ذلك لأكثر من قرن ونصف (١٢٥٨م-١٤١١م). وعبر تلك السنين، قام في شمال إيران مجتمع تركماني جديد يحمل خصوصيات تلك المرحلة التاريخية التي تميزت بدخول المغول الإسلام في تلك المناطق، وانصهارهم في بوتقة المجتمعات التركية السائدة في تلك الأقاليم. وقد عرف ذلك المجتمع التركي بالمجتمع الأذَري. والأرض التي استقر عليها بـ"أذربيجان". وكان طبيعياً أن يتأثر ذلك المجتمع "التركومغولي" بالثقافة والآداب الفارسية.

(١) أنظر مقدمة كتاب: العالم الإسلامي في العصر المغولي – برتولد شبولر، الطبعة العربية ص١٣

والمعروف أن هولاكو لم يقض على حكومة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، بل أبقى على إدارتها، واكتفى بتعين معين الدولة بروانة والياً على تلك البلاد.

وما يجب تقدير أهميته التاريخية، إن تطور مجتمع الترك في آسيا الصغرى (تركيا حالياً) سلك طريقاً مستقلاً نسبياً عن باقي أنحاء إمبراطورية هولاكو، لأن سلطة المغول المباشرة على آسيا الصغرى لم تدم طويلاً، وكانت ضعيفة في أغلب الأحيان. ولهذا استمر حكم دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، واقتصر حكم المغول على الأقاليم التي كانت ضمن دولة سلاجقة إيران.

في سنة ١٢٨٦م تفككت دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وتجزأت أقاليمها إلى عشر إمارات تركمانية صغيرة هي:

١ ـ قرة سي
٢ ـ صاروخان
٣ ـ آيدين
٤ ـ تكة
٥ ـ الحميد
٦ ـ القرمان
٧ ـ كرميان
٨ ـ قصطموني
٩ ـ منتشا
١٠ ـ قونية.

في تلك الأيام، دخلت عشيرة تركية صغيرة قادمة من الشرق، إلى أقاليم آسيا الصغرى، وظل أفرادها يتنقلون في مناطق تلك الإمارات السلجوقية ويتوغلون غرباً، هرباً من هجمات قبائل التتار، حتى انتهى بهم المطاف في إمارة قونية

السلجوقية الواقعة في أقصى شمال غرب آسيا الصغرى. كان ذلك في عهد السلطان علاء الدين أخر حكام قونية.

في قونية دخل زعيم تلك العشيرة التركية القادمة من الشرق المدعو أرطغرل، في خدمة الأمير السلجوقي علاء الدين، الذي كان يواجه مشاكل سياسية وعسكرية خطيرة، وكان بأشد الحاجة إلى مساعدة رجال يقاتلون في صفوف عساكره لدرء الأخطار التي كانت تحيق بإمارته. في تلك الساعات الحالكة، انضم رجال أرطغرل إلى عسكر علاء الدين وساعدوه في الانتصار على أعدائه والاستيلاء على عدد من المقاطعات والحصون. وتقديراً لخدماته عين الأمير السلجوقي علاء الدين، رئيس تلك العشيرة حاكماً على تلك المقاطعات والحصون المفتوحة. وهكذا عاش أرطغرل حاكماً تابعاً لسلطان قونية.

في سنة ١٢٨٨م توفي أرطغرل فخلفه ولده عثمان. وفي حدود سنة ١٣٠٠م تعرضت أقاليم أمارة قونية السلجوقية، إلى غارات شنتها قبائل التتار، كان من نتائجها إشعال نيران حرب ضروس ذهب ضحيتها الأمير السلجوقي السلطان علاء الدين، وولي عهده غياث الدين. فاستغل عثمان الفرصة، واستأثر بالأراضي التي أقطعها له الأمير السلجوقي الراحل، وأعلن نفسه (باديشاه) واتخذ من مدينة يني شهر (يكي شهر) عاصمة لإمارته الحديثة. وهكذا ظهرت في أقصى شمال غربي آسيا الصغرى (تركيا حالياً)، إمارة جديدة تحكمها عشيرة تركية صغيرة، لم تكن تنتمي إلى مجتمعات القبائل السلجوقية من أهل البلاد القدماء. ولا تعد من الإمارات التركية السلجوقية العشر التي ظهرت بعد تفكك دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى. ومن تلك الإمارة التركية الصغيرة، الغريبة على مجتمعات الترك من سلاجقة الروم، انطلقت الدولة العثمانية، نسبة إلى مؤسسها عثمان رئيس تلك العشيرة.

أدرك عثمان بثاقب بصره، حجم وأبعاد التحديات التي كانت تواجهها إمارته الفتية، وهو رئيس عشيرة صغيرة نسبياً ذات قدرات عسكرية محدودة. ولهذا تبنّي

سياسة واقعية مرنة، تعتمد على سلسلة من التحالفات المحلية، من أجل التصدي لقبائل التتار، العدو المشترك لسكان تلك المناطق. وعبر تلك التحالفات التي كان بعضها، مع أمراء إقطاع مسيحيين من بقايا الحكم البيزنطي، تمكن عثمان من شن سلسلة من الحروب انتهت بدحر قبائل التتار، واسترجاع الأراضي التي كانت بيدهم.

بالرغم من تلك الانتصارات، وجد العثمانيون أنهم ضعفاء عسكرياً في وسط ذلك المجتمع السلجوقي الكبير، إذ لم يكن بإمكان قبيلتهم الصغيرة المحافظة على المكتسبات التي حققوها. ويبدو أن تجاربهم العملية في الحروب أثبتت لهم مخاطر تجنيد المزيد من رجال التركمان التابعين للقبائل السلجوقية المحيطة بهم، لأن رجال تلك القبائل كانوا يتمسكون بولائهم لقبائلهم الكبيرة، وبصورة عامة كانوا يعدون العثمانيين دخلاء على ذلك المجتمع السلجوقي القديم.

لمواجهة تلك المشاكل والتحديات، قرر السلطان أورخان تأسيس الجيش الانكشاري، كما مر بنا في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وبعد تأسيس ذلك الجيش الانكشاري الذي كان رجاله ينتمون إلى أصول أوربية مسيحية غريبة على مجتمعات الترك، امتلك سلاطين تلك الإمارة الصغيرة قوة عسكرية فريدة، غيرت موازين القوى العسكرية في آسيا الصغرى، أي في أقاليم ما كان يعرف بدولة سلاجقة الروم.

وبفضل ذلك الجيش الانكشاري، واتباع سياسة عملية تجمع بين مرونة الانفتاح على القوى المحلية، بما في ذلك التعاون مع أمراء الإقطاع البيزنطي، وبين استعمال القوة العسكرية للسيطرة على أملاك الآخرين، تمكن سلاطين آل عثمان من التوسع والسيطرة، على أقاليم بقية الإمارات السلجوقية، تلك التي ظهرت بعد تفكك دولة سلاجقة الروم.

ومع توسع ذلك الجيش الانكشاري، تمكنوا من التوسع باتجاه الغرب، ونجحوا في طرد البيزنطيين من البر الآسيوي. ثم عبرت جيوشهم المضيق الذي

يفصل آسيا الصغرى عن البر الأوربي، وتمكنوا من الاستيلاء على أقاليم بيزنطية عديدة في أوربا.

بعد أن ثبت العثمانيون أقدامهم في البر الأوربي، جاءت نقطة التحول الحاسمة في تاريخ الدولة العثمانية في سنة ١٤٥٣م، حينما استولى السلطان محمد الثاني على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، حيث اتخذها عاصمة جديدة للدولة العثمانية.

الترك في إيران

في سنة ١٤١١م استولت قبائل تركمانية شيعية بقيادة قرة يوسف على تبريز وأسقطت حكومة المغول، وأقامت على أنقاضها حكومة تركمانية عرفت بالحكومة البارانية أو "القره قوينلو".

وبعد جيلين تقريباً سقطت حكومة القره قوينلو وحلت محلها حكومة تركمانية أخرى أقامها زعيم تركماني يدعى الشيخ حسن الطويل (أوزون حسن) والتي عرفت بالحكومة البايندرية "الآق قوينلو"[(١)].

وعبر قرن من الزمن تقريباً، عاشت تلك الحكومات التركمانية في إيران جنباً إلى جنب مع الدولة العثمانية، تفصل بينهما، الحدود التي كانت تفصل أقاليم الترك في دولة سلاجقة إيران، عن أقاليم الترك في دولة سلاجقة الروم.

وبالرغم من تعاظم قوة الدولة العثمانية التي أصبحت تملك أقوى مؤسسة عسكرية في العالم، فإن العثمانيين اكتفوا بالسيطرة على أقاليم الإمارات التركية من بقايا دولة سلاجقة الروم، ولم يحاولوا التوسع باتجاه الشرق والتجاوز على أملاك

---

(١) أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص١٩٩ وص٢٢٧

حكومات التركمان القره قوينلو والآق قوينلو، أي أقاليم دولة سلاجقة إيران. بل حصروا طموحاتهم العسكرية في تلك العهود، في التوسع في أقاليم أوربا.

إن الحرب الوحيدة التي قامت بين الدولة العثمانية وتركمان سلاجقة إيران، حدثت في سنة ١٤٧١م إذ حاول فيها السلطان حسن الطويل نجدة أمير القرمان ضد الجيوش العثمانية[(١)]. وبالرغم من انتصار العثمانيين الساحق على جيش السلطان حسن الطويل، فإنهم لم يتجاوزوا حدودهم التقليدية بل اكتفوا باستعادة سيطرتهم على إمارة القرمان.

ومما يجب تقدير أهميته التاريخية إن تلك الحدود التي كانت تفصل أقاليم الترك في إيران، عن أقاليم الترك في بلاد الأناضول، أي عن الدولة العثمانية، لم تقف عبر العصور حاجزاً في وجه التواصل الإنساني والحضاري بين تلك المجتمعات التركية. فالمعلومات التاريخية تؤكد استمرار علاقات إنسانية واسعة وعميقة بين تلك المجتمعات التركية التي كانت تجمعها رابطة اللغة والدين والتاريخ المشترك. وقد رأينا كيف أن الأفكار الدينية والقيم الروحية كانت تنتشر عبر تلك الحدود وتؤثر في مجتمعات الترك على الجانبين. فنحن نعلم بأن الشيخ بكتاش ولي، هاجر من أقاليم التركمان في شمال إيران واستقر في الأناضول، وقام هناك بنشر دعوته الصوفية التي عرفت باسمه. وحينما أقام الشيخ صفي الدين الموسوي تكيته في أردبيل واتخذها مركزاً لدعوته الصوفية، سرعان ما انتشرت تعاليم وأفكار تلك الطريقة الصوفية في أقاليم الترك، سواءٌ في أذربيجان أو في الأناضول. وقد سبق وأن أشرنا إلى أن الفاتح الكبير تيمورلنك (الذي أسقط الدولة العثمانية، بعد انتصاره التاريخي على جيوش السلطان العثماني بايزيد الأول في معركة سهل أنقرة) قابل شيخ الطريقة الصفوية آنذاك صدر الدين وتأثر بآرائه. وحينما سأله أن يطلب منه ما يشاء، طلب منه ذلك الشيخ الصوفي، أن يطلق سراح

---

(١) أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص٢٢٨

الأسرى العثمانيين. فاستجاب تيمورلنك، ووهب لذاك الشيخ الصوفي أولئك الأسرى، وأمر بإطلاق سراحهم فوراً. ومن المعروف أن إطلاق سراح أولئك الأسرى وعودتهم إلى ديارهم، كان له صدى واسع وأثر عميق في مجتمعات الترك في أقاليم الأناضول، مما عزز مكانة العائلة الصفوية في تلك الديار. ويقال إن قبائل أولئك الأسرى، حافظت على روابطها الروحية مع العائلة الصفوية عبر السنين. وحينما شكل الشيخ حيدر فرق القزلباش التركمان وبدأ الكفاح المسلح في أذربيجان، كان رجال تلك القبائل التركية أول من انظم إليه، وكونوا فرقاً مسلحة في الأناضول لنصرته في كفاحه المسلح ضد سلاطين الآق قوينلو.

بالرغم من أن الحركات العسكرية التي كان يقودها الشيخ حيدر الصفوي كانت موجهة ضد حكام الآق قوينلو، فإن تجاوب قبائل التركمان في الأناضول مع تلك الحركات كان كبيراً إلى حد تشكيل فرق مسلحة، أثارت قلقاً شديداً في أوساط حكومة اسطنبول التي كانت تواجه في تلك الأيام مشاكل متزايدة مع سكان الأناضول، الذين زادت معاناتهم جراء سياسة الحكومة المركزية التي تمادت في دعمها للإقطاع العسكري الذي استحوذ على مناطق زراعية ورعوية واسعة، مما كان يعده السكان الترك اعتداء على حقوقهم الطبيعية في الأرض، وإدارة شؤونهم في تلك المناطق.

إن تعاظم حركات المعارضة ضد حكومة اسطنبول في أقاليم الأناضول، وظهور تلك الفرق المسلحة، أظهر عمق الهوة التي كانت تفصل السكان الترك في الأناضول عن حكومة اسطنبول. وجاء دليلا آخر أكد حقيقة تاريخية قديمة مفادها، إن عشيرة آل عثمان القادمة من الشرق، بالرغم من هويتها التركية، لم تتمكن منذ البداية من الاندماج في نسيج المجتمعات التركية في أقاليم ما كان يعرف بسلاجقة الروم. وإن وجودها ظل غريباً وقلقاً، وعلاقاتها متشنجة مع ذلك المجتمع التركي القديم. ومن أجل البقاء في وسط ذلك المجتمع التركي والتسلط عليه، أسس سلاطين آل عثمان الجيش الانكشاري، الذي كان ظاهرة غريبة في مجتمعات الترك.

فسلاطين الترك وحكامهم كانوا دائما يعتمدون على رجال قبائلهم في الحروب. وتاريخ الترك في الإسلام يشهد على ذلك. ولو أخذنا السلاجقة مثلا نرى أنهم بالرغم من اعتمادهم على الفرس في إدارة الدولة، وبالرغم من اندماجهم في الحضارة الفارسية، كانوا يعتمدون عسكرياً على قوة قبائلهم السلجوقية ومن التف حولهم من قبائل الترك. وهكذا كان الحال في دولة سلاجقة الروم، والإمارات التركية التي ظهرت في آسيا الصغرى بعد ذلك. إذ كان كل أمير منهم يعتمد عسكرياً على رجال قبيلته، وكان نفوذ وحجم إمارته يتناسب في الغالب، مع قوة قبيلته والقبائل التركية الموالية له.

نستشفّ من هذا، أن لجوء سلاطين آل عثمان إلى تأسيس جيش مماليك لحمايتهم، قوامه الأطفال المخطوفون من القرى المسيحية، عكس حالة الضعف التي عاشها سلاطين آل عثمان، في وسط تلك القبائل التركية القوية الشكيمة.

ومما يعزز هذا الرأي أن سلاطين آل عثمان ظلوا ينقلون عاصمتهم من إقليم إلى أخر حتى انتهى بهم المطاف إلى نقل العاصمة من البر الآسيوي إلى البر الأوربي، ذلك الحدث التاريخي الذي يعد نقطة تحول في تاريخ العلاقات بين السكان الترك في الأناضول، والحكومة العثمانية التي سيطرت عليها مؤسسة عسكرية كان أمراؤها من أولئك المماليك.

وقد رأينا طبيعة وأبعاد تلك العلاقة حينما سحق تيمورلنك الجيش الانكشاري في سنة ١٤٠٢م. فبعد انهيار ذلك الجيش العتيد انهارت الحكومة العثمانية وزالت من الوجود، وظهرت على الفور الإمارات التركية القديمة في مختلف أقاليم الأناضول، وعاد السكان الترك يمارسون الحكم في أقاليمهم كما كان الحال قبل ظهور العثمانيين في آسيا الصغرى.

وقد رأينا كيف أن إعادة تشييد الدولة العثمانية، كان على يد رجال العسكر الانكشاري الذي شتته تيمورلنك. وكيف كانت تلك عملية دامية استغرقت سنوات عديدة، قتل الانكشاريون أثناءها الآلاف من الترك، بما فيهم أولاد السلطان بايزيد

وباقي أفراد البيت المالك من آل عثمان. وقتلوا معهم كذلك كل من عارض الانكشارية من وزراء ورجال دين، ناهيك عن عشرات الآلاف من المقاتلين من قبائل التركمان، الذين أصروا على الاحتفاظ بالاستقلال الذي نالوه في مناطقهم، بعد انهيار العسكر الانكشاري.

وبينما كانت قبائل الترك في آسيا الصغرى تخوض معارك عنيفة ضد عساكر الانكشارية من أجل المحافظة على استقلاليتها في أقاليمها المحلية، نجحت قبائل تركمانية بقيادة قره يوسف زعيم قبائل القره قوينلو في سنة ١٤١١م في القضاء على حكم المغول وإقامة حكومة تركمانية اتخذت من تبريز عاصمة لها وسيطرت على إيران وبلاد الرافدين وباقي ما كان يعرف بدولة سلاجقة إيران.

المعروف أن قبائل التركمان في أقاليم ما كان يعرف بدولة سلاجقة إيران كانت تتعاطف دائما مع الترك في أقاليم الأناضول وتشاركهم المشاعر ضد العثمانيين وعساكرهم الانكشارية. وإن مشاعر العداء تلك كانت من أهم الدوافع لتعاون تلك القبائل بقيادة قره عثمان، مع تيمورلنك إذ عملوا كإدلاء له في مسالك الأناضول أثناء حملته الشهيرة ضد الدولة العثمانية، مما ساعده على تحقيق نصره المبين في معركة سهل أنقرة سنة (١٤٠٢م).

تكررت تلك الحقيقة مرة ثانية في عهد حفيد قره عثمان، السلطان حسن الطويل مؤسس دولة الآق قوينلو، الذي بعث بجيش كبير بقيادة ولده زينل لنجدة أمير القرمان، الذي اجتاحت عساكر السلطان العثماني أراضيه.

إن ما يتوفر من معلومات تاريخية عن تلك الحقب يؤكد أن العلاقات السياسية بين العثمانيين وسلاطين التركمان القره قوينلو والآق قوينلو، لم تكن على ما يرام، وإنها كانت دوماً متشنجة، وذلك لتعاطف التركمان في إيران مع طموحات أبناء جلدتهم الترك في الأناضول، في كفاحهم ضد هيمنة العسكر الانكشاري. وقد استمرت تلك الأحوال إلى أواخر أيام حكم سلاطين الآق قوينلو الذين أنهكتهم

نزاعاتهم وصراعاتهم الدموية فيما بينهم، وكذلك الحركات المسلحة التي كان يقودها مشايخ الطريقة الصفوية.

في تلك الأجواء المفعمة بالمخاطر التي باتت تهدد حكام الآق قوينلو من جهة والعثمانيين من جهة أخرى، قامت أرضية مشتركة جمعت مصالح الطرفين، ومهدت الطريق لتعاون غير مسبق بين حكام الإمبراطوريتين. وأمام تصاعد تلك الحركات الثورية التي كانت توجه ضربات مميتة إلى حكم الآق قوينلو المتداعي، اضطر سلاطين الآق قوينلو تناسي عداوتهم التاريخية مع العثمانيين والتقدم بالتماساتهم بطلب العون من حكومة اسطنبول. وبالمقابل وأمام تصاعد ذلك المد الثوري الصوفي الذي أخذ ينتشر في مجتمعات الترك كالنار في الهشيم اضطر العثمانيين إلى تناسي الماضي وأقدموا على مد يد العون إلى حكام الآق قوينلو ضد من أصبح العدو المشترك.

في تلك الأثناء وكبادرة لذلك التعاون، أصدرت حكومة السلطان بايزيد الثاني أمراً، يمنع سكان أقاليم الأناضول الترك من أنصار الطريقة الصفوية، من زيارة مدينة أردبيل مركز وقاعدة الحركة الصفوية. للحيلولة دون انضمامهم إلى صفوف جيش القزلباش، الذي كان يقاتل حكام الآق قوينلو. وللحد من انتشار أفكارهم الثورية في مجتمعات الترك في الأناضول.

مثل تلك الإجراءات العثمانية، تلقي الضوء على حقيقة تاريخية تؤكد أن عداء العثمانيين للصفويين، لم يكن وليد الساعة، بل يعود إلى أيام إمبراطورية الآق قوينلو أي قبل قيام الدولة الصفوية. وإن ذلك العداء القديم خلق الجو الفكري والسياسي المناسب لتعاون العثمانيين مع حكام الآق قوينلو.

وقد كشف عدد من الباحثين عن وثائق عثمانية تلقي المزيد من الضوء على هذه المسألة. ومنها ثلاث رسائل، نشرها المؤرخ براون (E. G. Browne)[1] والذي استقاها من الأرشيف العثماني في اسطنبول.

الرسالة الأولى من السلطان يعقوب بن حسن الطويل "أوزون حسن" إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني، يخبره فيها بمقتل الشيخ حيدر الصفوي أثناء المعارك التي نشبت بين جيش السلطان يعقوب وفرق القزلباش في شيروان سنة ١٤٨٨م.[2]

وفي الرسالة الجوابية يهنئ السلطان العثماني بايزيد، السلطان يعقوب بمقتل من دعاه "رأس الضلالة الحيدرية".

والرسالة الثانية من الوند الذي آل إليه حكم الأقاليم الشمالية لإمبراطورية الآق قوينلو، إلى السلطان العثماني بايزيد. يطلب فيها العون، ويحث السلطان على الوقوف إلى جانبه في مواجهة العدو المشترك.

وفي الرسالة الجوابية يعده السلطان العثماني بتقديم العون اللازم ضد "الطائفة الباغية القزلباشية". والوند هذا هو الذي هرب بعد اندلاع الثورة الصفوية إلى صحراء نخجوان، ولكن رجال القزلباش بقيادة الشاه إسماعيل بن الشيخ حيدر لحقوا به وأنزلوا بجيشه هزيمة منكرة.

أما الرسالة الثالثة فهي من السلطان العثماني بايزيد إلى الحاج رستم الكردي، وهي مؤرخة في أيلول (سبتمبر) سنة ١٥٠٢م. يسأله فيها عن نتائج الصراعات العسكرية بين رجال القزلباش وما تبقى من جيوش الآق قوينلو.

---

(١)جعفر المهاجر – الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي ص٣٧

(٢) شيروان: تقع في أقصى شمال غربي إيران وهي من أقاليم التركمان التي كانت ضمن إمبراطورية الآق قوينلو. استولى عليها الروس في القرن التاسع عشر. وتقع في الوقت الحاضر ضمن حدود جمهورية أذربيجان التركمانية المستقلة.

إن تلك الرسائل وغيرها من الوثائق، تفند مزاعم أمراء الانقلاب العسكري الذي قضى على السلطان بايزيد، وتؤكد أن رجال المؤسسة العسكرية العثمانية، كانوا منذ مدة طويلة يناصبون الحركة الصفوية العداء، وتبين كذلك أن الحروب التي بادروا بشنها ضد تلك الدولة الفتية، لم تكن وليدة الساعة أو لأسباب آنية، بل جاءت استمراراً لسياسة قديمة ترتبط في التحولات التاريخية التي حدثت في مجتمعات الترك، في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي. وإن الحروب التي شنها العثمانيون، بعد أن نصب أمراء الانقلاب العسكري، السلطان سليم الأول على العرش العثماني، جاءت دليلاً تاريخياً يكشف النوايا الحقيقية لأمراء الحرب في المؤسسة العسكرية العثمانية، الذين نفذوا خططهم على مراحل كانت مرحلتها الأولى إزاحة السلطان العثماني بايزيد المعروف بتصوفه وتمسكه بالحياة السلمية، وفرض ولده الثالث سليم ليحل مكان والده المخلوع. فكان السلطان سليم الأول الذي ساهم بصورة شخصية في الحملات العسكرية التي جردها أمراء العسكر الانكشاري للقضاء على بقية أولاد السلطان بايزيد وأمراء البيت العثماني المالك، وعلى من أيدهم من رجال الدولة. وبعد تلك المرحلة الدامية بدأت الاستعدادات لشن حرب شاملة ضد السكان الترك في الأناضول للقضاء على المتصوفة من أنصار الطريقة الصفوية.

أصحاب الدين الفارسي

بالرغم من سياسة التعتيم التي اتبعها العثمانيون لإخفاء أعداد الشيعة الترك في أقاليم الأناضول وتعدد فرقهم ، فإن ما يتوفر من معلومات عن المذابح التي نفذها العسكر الانكشاري، يشير إلى أن منفذي تلك المذابح ركزوا على السكان الترك من أتباع الطريقة الصفوية، ولم يتعرضوا بصورة عامة إلى الجماعات الشيعية الأخرى التي لم تسلك طريق الكفاح المسلح، كالشيعة البكتاشية والشيعة القلندرية وغيرهم.

لقد أشار الصدر الأعظم العثماني يونس باشا[1] إلى السكان الترك الذين تعرضوا لتلك المذابح، فأطلق عليهم أسم "أصحاب الدين الفارسي". وهكذا تشاء أقدار التاريخ أن ينفّذ يونس باشا وأمثاله من أمراء الحرب الانكشارية، وهم من أصول أوربية، تلك المذابح لعشرات الألوف من السكان الترك في الأناضول، بذريعة أنهم من أصحاب "الدين الفارسي".

ومنذ تلك الأيام توسع العثمانيون في استعمال نظرية "الدين الفارسي"، وطوروها ضمن حملة واسعة للتشهير بالدولة الصفوية والشاه إسماعيل، الذي تحول حسب مفاهيم تلك الحملة العثمانية الانكشارية إلى شاه فارسي، بالرغم من أنه ابن الشيخ حيدر وسليل الشيخ صدر الدين الصفوي، الذي توسط لدى تيمورلنك وأعاد أسرى الترك العثمانيين إلى أوطانهم. وهو من جهة أمه حليمة بيكم، حفيد الفاتح التركماني السلطان حسن الطويل "أوزون حسن" مؤسس دولة الآق قوينلو، وابن أخت السلطان يعقوب. هذا الثائر الصوفي الذي أسس في أقاليم التركمان من سلاجقة إيران دولة اتخذت اسمها من طريقة أجداده الصوفية، وبسطت نفوذها على أقاليم التركمان التي شملت إمبراطوريتي القره قوينلو والآق قوينلو. فإن المؤسسة العسكرية العثمانية تعمدت، وبأسلوب عنصري جاهلي تغريبه عن جذوره وهويته التركية. وذلك لإيجاد الذرائع والمبررات لشن الحرب ضد دولته الفتية.

وفي هذا الجو المليء بالحقد، حاولت المصادر العسكرية العثمانية إلغاء وجود الشعب التركي في إيران، وإلغاء تاريخ الترك ودورهم في تطور إيران. وفي مساهمتهم في نشر الحضارة الإسلامية والثقافة الفارسية في آسيا الصغرى،

---

(١) الصدر الأعظم يونس باشا، هو الذي قطع السلطان سليم الأول رأسه بعد الانتهاء من حملة مصر، لأنه قال للسلطان، إن تلك الحملة العسكرية كلفتنا خسائر باهظة حيث ذهب فيها أكثر من نصف جيشنا، وها نحن نغادر مصر ونسلمها إلى ضابط خائن كان يطمع بالسلطة لنفسه.

التي فتحها السلطان السلجوقي ألب أرسلان، الذي كانت إيران قاعدة لإمبراطوريته السلجوقية.

وحينما زحفت الجيوش العثمانية واخترقت حدود تلك الدولة الفتية، وبعد معركة جالديران، نفذ أمراء الحرب الانكشاريين مذابح واسعة بحق أسراهم. فقتلوا الآلاف من رجال القبائل التركمانية، الذين قاتلوا تحت قيادة الشاه إسماعيل، باعتبارهم أسرى الجيش "الفارسي"، وأنهم من أصحاب "العقائد الفارسية" الفاسدة. وذبح الانكشارية معهم، آلاف الأسرى من عرب العراق، الذين شاركوا في معركة جالديران تحت قيادة نقيب الأشراف السيد محمد كمونة، الذي نالته هو الآخر تلك المذابح الوحشية.

وعلى هذا المنوال كرست المؤسسة العسكرية العثمانية حملاتها السياسية المبنية على تشويه الحقائق، ليس ضد الدولة الصفوية فحسب، بل ضد جميع الشعوب التي رفضت هيمنتهم. وهكذا واصلوا شن مثل تلك الحملات، جيلا بعد جيل، حتى أصبحت تلك الأساليب من ثوابت السياسة العثمانية.

والغريب في الأمر أن رجال المؤسسة الحاكمة في الدولة العثمانية، أمثال يونس باشا وغيره من أمراء العسكر الانكشاري، جعلوا من أنفسهم المدافعين عن الهوية العثمانية ذات الطابع التركي وتحت ذلك الستار، وباعتبارهم عبيد السلطان العثماني، منحوا أنفسهم الهوية التركية.

من الجدير بالملاحظة، إن الحكام العثمانيين اتبعوا نفس الأساليب في قلب الحقائق وتزوير التاريخ في العراق، خاصة في حروبهم ضد القبائل العربية في وادي الرافدين.

في خضم تلك الصراعات الدموية، كان الحكام العثمانيون، سواء الانكشارية منهم، أو المماليك الكرج، الذين حكموا العراق فيما بعد، يسبغون على أنفسهم صفة "الترك" المدافعين عن الدولة العثمانية، وباسم السلطان العثماني شنّوا حملاتهم العسكرية ضد رجال القبائل العربية في العراق، الذين كانوا يدافعون عن ديارهم

ووجودهم على أرض وادي الرافدين، باعتبار أنهم من أصحاب "الدين الفارسي" ومن أصحاب العقائد الفاسدة المعادية للخلافة العثمانية.

بعد معركة جالديران والانتهاء من حملات التطهير في صفوف العسكر العثماني، الذي تمرد على القيادة ورفض رجاله مواصلة الحرب ضد الشاه إسماعيل الصفوي وأعوانه، وبعد قطع رؤوس رجال الدين الذين حرضوا على ذلك التمرد، وعلى رأسهم قاضي العسكر جعفر جلبي، بدأت الاستعدادات لحرب جديدة. ولكن في هذه المرة تحولت الأنظار من بلاد "الفرس" ذوي العقائد الفاسدة، إلى بلاد العرب. وأخذت الأخبار تتوارد عن تحرك الجحافل العثمانية، نحو بلاد الشام.

وهكذا كشف أمراء الحرب في المؤسسة العسكرية العثمانية، النقاب عن جانب مهم من أسرار الانقلاب العسكري، الذي أطاح بالسلطان بايزيد الثاني في سنة ١٥١٢م وعن حقيقة نواياهم ومخططاتهم التوسعية. وأدرك العالم أن اجتياح أراضى الدولة الصفوية، كان في حقيقة الأمر البداية لتنفيذ تلك المخططات التوسعية، عبر سلسلة من الحروب العثمانية، بهدف الاستيلاء على بلدان العالمين الإسلامي والعربي. واتضح أن السلطان المسالم بايزيد، كان هو الأخر ضحية تلك التحولات التاريخية، لأنه ربما لم يفهم أو لم يساوم ويستسلم لإرادة أمراء العسكر الانكشاري، كما فعل ولده السلطان سليم، الذي ساهم في تنفيذ تلك المخططات الإمبراطورية.

الباب الأول

العراق والدولة الصفوية

١٥٠٨م-١٥٣٤م

الفصل الأول

الشاه إسماعيل والدولة الصفوية

ولد الشاه إسماعيل في سنة ٨٩٠هـ (١٤٨٥م) وهو أصغر أولاد الشيخ حيدر بن الشيخ جنيد الصفوي، وأمه حليمة بيكم بنت السلطان حسن الطويل (أوزون حسن) مؤسس دولة الآق قوينلو التركمانية. عاش إسماعيل بن الشيخ حيدر طفولته وصباه، في عصر مضطرب مفعم بالصراعات الدموية التي أدت إلى سقوط إمبراطورية الآق قوينلو.

وقد قتل والده الشيخ حيدر الصفوي في سنة ١٤٨٨م في معركة شيروان. وبعد تلك المعركة، قبض السلطان يعقوب على أخته حليمة بيكم زوجة الشيخ حيدر، وعلى أولادها علي شاه، وإبراهيم، وإسماعيل الذي لم يكن قد بلغ الثالثة من العمر، ونفاهم إلى شيراز، حيث سجنهم في قلعة إسطخر. وفي سجن خاله السلطان يعقوب، ترعرع إسماعيل وقضى سنين طفولته وصباه.

وبعد سنين وفي خضم أحداث ومتغيرات تلك الفترة خرج أولاد الشيخ حيدر من سجنهم وعادوا إلى أردبيل. وهناك أخذت جموع التركمان من أنصار وأتباع الطريقة الصفوية تتوارد عليهم وتعلن ولاءها لهم. ولقمع ذلك التحرك جهز السلطان جيشا وبعث به إلى أردبيل، حيث اشتبك مع من تجمع من أنصار الطريقة الصفوية هناك. وقد أسفرت المعارك العنيفة عن مقتل علي شاه وإبراهيم، ولم يسلم من أولاد الشيخ حيدر إلا الصبي إسماعيل، الذي آلت إليه مشيخة الطريقة الصفوية وزعامتها، ولم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من العمر، فحمله أنصاره وساروا به

إلى كيلان (جيلان) حيث استقبلهم حاكمها وأكرم وفادتهم، ورفض أن يسلمهم إلى السلطان.

مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وفي حدود سنة ١٤٩٩م عاد إسماعيل ابن الشيخ حيدر إلى أردبيل ولم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره. وهناك كون جيشاً قوامه رجال سبع قبائل تركمانية هي:

أستاجلو، وشاملو، وروملو، وتكلو، وذي القدر، وأفشار، وقاجار. وسار بهم نحو مدينة باكو[١] واستولى عليها. وفي أول معركة خاضها، رفع الشاه إسماعيل بن الشيخ حيدر شعار "الله، الله، علي ولي الله". وهذا الشعار لم ترفعه أية حركة شيعية من قبل. ولعله أراد بهذا الشعار، أن يكشف عن هوية دولته الجديدة، وعن طابع الغلو والتطرف في فكر الطريقة الصفوية!.

ومن باكو زحف على رأس أنصاره من رجال القبائل التركمانية الذين أخذت أعدادهم تزداد بتوالي الأيام، واستولى على أردبيل، مقر آبائه وأجداده شيوخ الطريقة الصفوية. ومن أردبيل زحف نحو شيروان وقضى على حاكمها (شيروان شاه) وبذلك انتقم لأبيه واخوته. وبعد تلك المعارك الفاصلة وفي حدود سنة ١٥٠٠م زحف إسماعيل الصفوي بجيشه نحو العاصمة تبريز واستولى عليها. وفي تبريز أعلن قيام الدولة الصفوية.

---

(١) تقع مدينة باكو على سواحل بحر قزوين الغربية على مسافة ٤٠٠كلم إلى الشمال الشرقي من مدينة تبريز. وهي اليوم عاصمة جمهورية أذربيجان التركمانية المستقلة والتي كانت إحدى جمهوريات الإتحاد السوفيتي المنحل.

الشاه إسماعيل والتشيع الصفوي

كان الشاه إسماعيل يرى نفسه، بالرغم من حداثة سنه وضيق أفق ثقافته العامة، أنه رجل جهاد وصاحب رسالة هدفها بناء دولة إسلامية موحدة، تقوم على أسس شيعية حسب مفاهيم الطريقة الصفوية. ومما كان يعزز إيمانه وثقته بنفسه، ذلك التجاوب الواسع لنداء الثورة التي أطلقها في أقاليم التركمان.

غير أن مسيرة الأحداث وسلوك ذلك الشاب الثائر، الذي وجد نفسه ماسكاً بزمام الأمور ليس في بلاد التركمان فحسب، بل في شبه القارة الإيرانية، أظهرت أن الظروف التي أحاطت بنشأته وتربيته لم تسمح له ولم تكن مناسبة لبناء إنسان يمكنه أن يفهم ويقدر أثر التغييرات العقلية ودورها في إصلاح وتطوير المجتمع في دولته المنشودة.

فالشاه إسماعيل أثبت على مدى الأيام، بأنه يحمل صورة ساذجة عن الفكر الشيعي، بحكم نشأته في بيئة قبلية منعزلة، يغلب عليها الطابع الصوفي المتزمت. فمن المعروف أن التكايا الصوفية الشيعية في أقاليم الترك لم تحقق عبر تاريخها اتصالاً ذا بال بالحوزات العلمية الشيعية، ولم تعرف الفكر الشيعي فقها وكلاما. وكنتيجة لذلك الانعزال والانكماش في تلك الأقاليم القبلية، ترسبت في تلك المجتمعات الصوفية أفكار وممارسات غلاة الشيعة وتياراتهم المتطرفة. تلك التي اندرست وزالت مع تطور التجربة وتراكم المعرفة الإنسانية، في مجتمعات الشيعة الحضرية.

وهكذا كان الشاه إسماعيل نموذجا لتلك البيئة التركمانية الشيعية، التي عاشت في صراعات دموية محلية من أجل البقاء. وقد دفعت به تجربة العمر المحدودة، إلى سلوك طريق العنف والإكراه والاستبداد بالحكم، لتحقيق أحلامه في إقامة كيان موحد يقوم على أسس الإسلام الشيعي، كما تفسره المفاهيم الصوفية لذلك المجتمع التركماني المنغلق على نفسه.

ولتحقيق ذلك أعلن الشاه إسماعيل في يوم تتويجه في تبريز، التشيع الإمامي الإثنى عشري مذهباً رسمياً للدولة الجديدة، وإنه المذهب الوحيد المسموح به في الدولة، وأمر أن تضاف إلى الأذان عبارة "أشهد أن علياً ولي الله" بالرغم من أن أئمة وفقهاء الشيعة لم يجيزوا ذلك. وبهذا الصدد يقول الدكتور علي الوردي:

وأمر الشاه إسماعيل كذلك بإدخال "الشهادة الثالثة في الأذان "أي عبارة "أشهد أن عليا ولي الله" وكانت هذه الشهادة قد أدخلها بعض الغلاة في الأذان منذ القرن الثالث الهجري. غير أن الشيعة المعتدلين استنكروا ذلك في حينه ولم يقبلوا به، أما إسماعيل فقد فرض الشهادة الثالثة فرضا ولم يكترث بأحد.[(١)]

وأمر كذلك بسب الخلفاء الثلاثة، أبو بكر الصديق وعمر ابن الخطاب وعثمان ابن عفان، من على المنابر. ومما يذكر في هذا الصدد، إن بعض مشاوريه نصحوه أن لا يفعل ذلك، لأن غالبية سكان تبريز في تلك الأيام كانوا من أهل السنة، ولكن الشاه إسماعيل أجابهم قائلا:

أنا مكلف بذلك وإن الله والأئمة المعصومين معي، وإني لا أخاف أحدا فإذا وجدت من الناس كلمة اعتراض شهرت سيفي بعون الله فيهم فلا أبقي منهم أحدا ... .

ويعلق الدكتور الوردي على تلك النزعة القمعية والاستبداد في الرأي عند الشاه إسماعيل فيقول:

يخيل لي أن الشاه إسماعيل، كان من أولئك الرجال الذين يملكون مواهب نادرة – سلبية وإيجابية معا – وهم مؤمنون أن القدر هيأهم للقيام بمهمة ما. والظاهر إنه حين قام بفرض التشيع على الإيرانيين، كان واثقا بأنه مكلف بذلك من قبل قوة روحية عليا ... ولا ننسى أنه كان رجلا صوفيا، ومن شأن المتصوفة بوجه عام، أنهم يؤمنون بـ "الكشف" – أي الإلهام الغيبي – والمعروف عنه أنه كان يعلن لمريديه أنه لا يتحرك إلا بمقتضى أوامر الأئمة الإثنى عشر ... ولعلني

---

(١) علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ص٥٩

لا أعدو الصواب إذا قلت إن جميع الأمور المستحدثة التي أدخلها إسماعيل في التشيع الإيراني قد انبعثت من هذه النزعة الصوفية فيه.[1]

الشاه إسماعيل وأهل السنة

كون الشاه إسماعيل جماعات مسلحة أخذت تجوب المدن والأرياف، في مناطق إيران التي يتواجد فيها أهل السنة، لتجبر الناس بقوة السلاح، على سب الخلفاء الثلاثة وإعلان الولاء للمذهب الشيعي، وكانت تفتك بالذين يمتنعون عن ذلك. وهكذا سادت موجة من الإرهاب والاضطهاد الفكري والتعصب المذهبي في أقاليم واسعة من إيران. واضطرت جماعات من الإيرانيين من أهل السنة إلى تنفيذ ما يطلبه منهم زبانية الشاه إسماعيل الصفوي، بينما اضطر غيرهم الهروب إلى أقطار يسيطر عليها حكام من أهل السنة.

بالرغم من سقوط آخر معاقل حكام الآق قوينلو واختفائهم من الوجود، واستتباب الأمر للشاه إسماعيل في شبه القارة الإيرانية، فإنه لم يخفف من غلوائه، بل استمر في التمسك بسياسته الدموية، والتشدد في فرض التشيع الصفوي كإطار ديني لدولة موحدة، تشمل جميع أقاليم إيران.

الشاه إسماعيل والشيعة الزيدية

من الجدير بالملاحظة، أن حملات الشاه إسماعيل التي كانت تفتك بمن يخالفه في مفاهيمه الصفوية، لم تقتصر على المسلمين من أهل السنة، بل شملت

---

(١) ن.م. ج١ص٥٧

فرقاً شيعية مثل الشيعة الزيدية في لاهجان، وهي ناحية في بلاد جيلان أو طبرستان. التي قال عنها ياقوت في معجمه:

وهي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم ... والغالب على هذه النواحي الجبال وهذه البلاد مجاورة لجيلان وديلمان وهي بين الري (طهران حاليا) وقومس والبحر (بحر قزوين) وبلاد الديلم والجبل

في العهد العباسي أيام تسلط أمراء عسكر المماليك على خلفاء بني العباس، وفي أيام الخليفة المنتصر، الذي تسلط عليه أمراء عسكر المماليك، أمثال بغا وأوتامش ووصيف وموسى ابن بغا، اندلعت في تلك البلاد في سنة ٢٤٩هـ، ثورة عارمة بقيادة شيعة الإمام زيد بن علي، وبعد انتصار الثورة، قامت في تلك البلاد دولة علوية حكمت مدة قرنين من الزمن تقريباً. قال ياقوت في معجمه:

وتقلد عبد الله بن طاهر طبرستان ثم وليها بعد عبد الله ابنه طاهر وخلفه عليها أخوه سليمان بن عبد الله فخرج عليه الحسن بن زيد العلوي الحسني، فأخرجه عنها وغلب عليها إلى أن مات. وقام مقامه أخوه محمد ابن زيد وقد ذكرت قصة هؤلاء الزيدية في كتاب المبدأ والمآل.

وقال جعفر المهاجر عن أهل تلك المناطق:

دخل أهلها الإسلام على مذهب الزيدية على يد ناصر الحق الحسن بن علي الأطروش الذي قام بثورة هائلة على العباسيين في أوائل القرن الرابع وأجلاهم عنها. وظل قسم كبير منها تحت حكم العلويين حتى السنة ٤٢١هـ. وبعد انتهاء سلطة العلويين ظل أهل "لاهجان" أحد قسمي "جيلان" زيدية، وذلك حتى قيام الدولة الصفوية ... .[1]

وهذا يشير إلى أن وجود الشيعة الزيدية استمر في إيران، قرابة خمسة قرون، بعد القضاء على دولة العلويين في طبرستان سنة ٤٢١هـ. إي أنهم عايشوا حكومات السلاجقة والمغول والتركمان. ولكن بعد انتصار الثورة الصفوية، تعرض أولئك الشيعة الزيدية، إلى حملات الشاه إسماعيل الذي فرض عليهم التخلي عن مذهبهم الزيدي واعتناق مذهب الشيعة الإمامية.

---

(١)جعفر المهاجر – الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي ص٢٥

والشيعة الزيدية يقرون بإمامة علي بن أبي طالب والحسن والحسين وعلي بن الحسين زين العابدين وولده محمد الباقر، ومن بعد الباقر، يسوقون الإمامة إلى أخيه زيد بن علي المولود بالمدينة في سنة ٨٠هـ.

بعد وفاة الإمام محمد الباقر في سنة ١١٤هـ، أصبح أخوه زيد بن علي من بعده عميد آل بيت الرسول. وفي أواخر سني حكم بني أمية، في عهد هشام بن عبد الملك، كان زيد بن علي يتجول في العراق بين البصرة والكوفة، ويجادل في الحدود التي يستوجب عندها على المسلمين الثورة على الحاكم الظالم الذي يرتكب المعاصي، ويعمل بما يخالف كتاب الله وسنة رسوله. وكما تشير الأخبار، فإن دعوة زيد بن علي إلى مقاومة الجور والظلم والثورة على الطغاة، لاقت استجابة واسعة في أوساط عرب العراق. وأثارت آراؤه الفقهية في هذا الخصوص، اهتمام الفقهاء ورجال العلم والفقه الذين أخذوا يتابعون مجالسه ودروسه التي كان يلقيها في تلك المجالس. وفي البصرة عقد زيد بن علي مجالس دارت فيها حوارات فقهية وفكرية مع أفاضل علماء أهل العراق كالحسن البصري وواصل بن عطاء، والتي شارك فيها الإمام أبو حنيفة النعمان. وعبر تلك الحوارات الفكرية، قامت بين زيد بن علي وفقهاء العراق ومفكريه، ومنهم الإمام أبو حنيفة النعمان، مودة واحترام متبادل. وقد عبر الإمام أبو حنيفة عن ذلك بقوله: "ما وجدت في البصرة أفضل من زيد بن علي"[١] ومن المعروف أن الإمام أبا حنيفة النعمان ظل صديقا حميما لزيد ابن علي وكان من أبرز الداعين إلى نصرته.

في تلك الحقبة التاريخية، التي شهدت بداية النهاية، لحكم بني أمية، طرح زيد بن علي مفاهيم جديدة تناولت مسألة الإمامة، هزت في وقتها ساحات الفكر والفقه الإسلامي، إذ جوز بموجبها وحسب شروط معينة إمامة المفضول مع وجود الأفضل، وهذا يشير إلى خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، مع وجود

---

(١) عبد الرحمن الشرقاوي - شخصيات إسلامية : أئمة الفقه التسعة ص٢٠

علي بن أبي طالب. وكان يقول إن علي بن أبي طالب كان أفضل الناس بعد رسول الله، ولكن أموراً اقتضت دعت علي بن أبي طالب أن يبايع الشيخين وهو أفضل منهما، وذلك حفظاً لكيان الإسلام وصيانة وحدته. وإن علي بن أبي طالب، عمل مع الشيخين لأنهما تمسكا بالشورى وبالعدل، وعملا بموجب كتاب الله وسنة رسوله. وعلى هذا الأساس حدد الإمام زيد بن علي، ثلاثة شروط أساسية تقوم عليها الخلافة الإسلامية هي:

١ ـ المبايعة التي تقوم على الإرادة الحرة.

٢ ـ الشورى التي تضمن المشاركة وتبادل الرأي.

٣ ـ العدل بالتزام ولي الأمر بكتاب الله وسنة رسوله.

وكان الإمام زيد يدعو المسلمين للوحدة والوقوف صفاً واحداً ضد حكم بني أمية، ويدعوهم للاتعاظ بمواقف الإمام علي بن أبي طالب في حفظ بيضة الإسلام، وفي التمسك بكتاب الله وسنة رسوله. وكان يترحم على الشيخين أبي بكر الصديق وعمر ابن الخطاب ويقول:

ما سمعت أحدا من أهل بيتي يقول فيهما إلا خيرا...، وقد ولوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة.[(١)]

وهو الذي طرح شعار "الرضى من آل محمد" الذي يعبر عن مفهوم الاختيار الحر في البيعة.

ويقال إن جماعة من أهل الكوفة، اجتمعوا بجعفر الصادق في موسم الحج، وعرضوا عليه ما حدث في الكوفة بينهم وبين عمه زيد بن علي، وسألوه في أمر بيعته. فقال لهم جعفر الصادق بصريح العبارة:

بايعوه فهو والله أفضلنا وسيدنا ... .[(٢)]

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج٤ص٢٤٦

(٢) ن.م.

في سنة ١٢٢هـ في عهد هشام بن عبد الملك، أعلن زيد بن علي الثورة في الكوفة، حيث دارت بينه وبين جيش عامل الأمويين يوسف بن عمر الثقفي معارك عديدة، سارت في أيامها الأولى لصالح رجال الثورة، ولكن في اليوم الثالث من تلك المعارك أصيب زيد بن علي بسهم في رأسه استشهد على أثره فدفنه أصحابه في الليل وتفرقوا تحت جنح الظلام وحملوا معهم ولده يحيى بن زيد وذهبوا به إلى بلاد ما وراء النهر، حيث القبائل العراقية من شيعة أل البيت، التي هجرها الحجاج بن يوسف الثقفي وغيره من ولاة الأمويين، إلى تلك الأصقاع باسم المساهمة في الفتوحات. وفي الكوفة أمر عامل بني أمية يوسف بن عمر الثقفي صبيحة اليوم التالي بنبش القبر، وقطع رأس زيد بن علي وأرسله إلى الشام، ثم صلب الجسد على جذع نخلة في محلة الكناسة. وبعد مرور أكثر من عام أمر يوسف بن عمر، فأنزل ما تبقى من جسد ذلك الإمام الثائر، وأمر بحرقه بالنار. كتب أبو الفرج الأصفهاني:

فأمر به يوسف ـ لعنه الله ـ عند ذلك خراش بن حوشب.فأنزله من جذعه فأحرقه بالنار، ثم جعله في قواصر، ثم حمله في سفينة، ثم ذراه في الفرات.(١)

بعد استشهاد زيد بن علي، سار ولده يحيى بن زيد مع نفر من الزيدية إلى خراسان والتجأ إلى الأقاليم التي استقرت فيها القبائل العراقية التي هجرها من العراق حكام بني أمية، وأقام في بلخ عند الحريش بن عمرو بن داود حتى هلك هشام بن عبد الملك.

وفي سنة ١٢٥هـ ثار بأرض الجوزجان رجال القبائل العراقية من شيعة آل البيت بقيادة يحيى بن زيد بن علي، فتصدى لهم عامل بني أمية في ثمانية آلاف فارس من أهل الشام وغيرهم يقول صاحب مقاتل الطالبيين:

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني – مقاتل الطالبيين، ص١٣٩

فاقتتلوا ثلاثة أيام ولياليها أشد قتال، حتى قتل أصحاب يحيى كلهم ... وصاب يحيى بن زيد على باب مدينة الجوزجان ... فلم يزل مصلوباً حتى إذا جاءت المسودة فأنزلوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه ثم دفنوه... [(١)]

وبالرغم من استشهاد يحيى بن زيد بن علي، فأن دعوة الأمام زيد بن علي للثورة ضد الظلم ظلت تسري كالنار في الهشيم تحفز الرجال من عرب العراق للنهوض. وبعد سنوات قليلة ارتفعت في العام ١٢٩هـ رايات الثورة تحت شعار "الرضى من آل محمد" الذي أطلقه الإمام زيد بن عليّ. وزحفت القبائل العراقية، من بلاد ما وراء النهر وخراسان نحو الكوفة، رافعة الرايات السود، حزناً على آل محمد، وسقط حكم بني أمية وزال من الوجود، وقامت دول ومدارس فكرية باسم الإمام زيد بن علي، الذي كان لفكره، ولشيعته الفضل في تأجيج نيران تلك الثورة التي أسقطت حكم بني أمية.

الشاه إسماعيل وحكومة المشعشعين

بعد أن نظّم الشاه إسماعيل إدارة العراق، خرج من بغداد وزحف بعساكره نحو الجنوب، والمعروف إنه لم يتجه نحو البصرة حيث حكومة المنتفك، بل سار نحو الحويزة لمحاربة دولة الشيعة المشعشعين. وفي تلك الأيام جاءت الأنباء بوفاة سلطان دولة المشعشعين المولى محسن بن السيد محمد الموسوي وجلوس ولده المولى فياض. قال صاحب حبيب السير:

ثم توجه الشاه إلى جهة الحويزة فالأعراب القاطنون هناك وفي باديتها تسمى إمارتهم بأمارة المشعشعين، وكانوا قائلين بألوهية علي بن أبي طالب (ع)...وكان يترأسهم سادات يعرفون بالموالي، وكان رئيسهم أثناء فتح بغداد "السلطان محسن"

(١) أبو الفرج الأصفهاني – مقاتل الطالبّيين، ص١٥٠

وعند توجه الشاه إسماعيل إلى جهتهم أتاه خبر وفاة السلطان محسن وجلوس أبنه فياض مكانه.

وكان سلاطينهم يعتقدون بألوهية علي وينادون بنسخ الشريعة المحمدية ويسلكون سبل الضلال. فلما سمع بهذا تهيأ لدفعهم وإيصالهم إلى طريق الهداية والصواب...فوقعت معركة دامية هائلة أسفرت عن اندحار المشعشعين وتم الاستيلاء على الحويزة.(١)

وبعد الاستيلاء على الحويزة، قتل الشاه إسماعيل، المولى أيوب والمولى علي ولدي المولى محسن. وقتل معهم جماعة من رجال دولتهم باعتبار انهم من الغلاة الخارجين عن الدين. بعد ذلك تولى المولى فلاح بن المولى محسن، والذي أعلن تخلي المشعشعين عن عقائد الغلو والرجوع إلى عقيدة الشيعة الاثني عشرية، والتزم بأداء مبلغ سنوي للشاه إسماعيل.

الشاه إسماعيل والشيخ الكركي

سبق وأن أشرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب إلى استيلاء الشاه إسماعيل على بغداد، وإلى زيارته للمراقد المقدسة. وقلنا إنه اعتكف ليلة واحدة عند ضريح الإمام الحسين في كربلاء كعادة المتصوفة، وزار مقام الإمام علي ابن أبي طالب في النجف، وقدم هناك النوادر الفاخرة والهدايا الجزيلة.

غير أننا لا نعلم إلا اليسير، عما جرى بين الشاه إسماعيل وعلماء الدين في الحوزة الشيعية في النجف. فالمصادر التي تناولت أحداث تلك الحقبة التزمت، أما بالصمت أو اكتفت بالإشارة الموجزة إلى ما جرى أثناء تلك الزيارة، بين أولئك العلماء والشاه إسماعيل قائد الثورة ومؤسس الدولة الصفوية. ومن اليسير الذي نعلمه، هو أن كبار فقهاء الشيعة في النجف أما أن تحاشوا الالتقاء بالشاه إسماعيل،

---

(١)عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٣ص٣٤٥

أو أنهم أحجموا عن تأييد أو تزكية سياسته وما أدخله من مستحدثات في دولته الفتية، باسم التشيع وباسم أئمة الشيعة المعصومين.

ومن المعروف إن غالبية علماء الشيعة في المرجعيات الشيعية الرئيسية خاصة في النجف وقفوا ضد مبدأ قيام مؤسسة دينية شيعية رسمية في إيران، لأنهم اعتبروا ذلك مخالفاً للفكر الشيعي، ورأوا أن قيام تلك المؤسسة الرسمية، سيمنح الغطاء الشرعي لمخالفات السلطان الصفوي للشرع الإسلامي، ويشجعه على الاستبداد في الحكم. ولم يخرج عن ذلك الموقف، إلا فقيه مجتهد واحد، رأى أن من الواجب أن يتخذ رجال الدين موقفاً إيجابياً من حكومة الشاه إسماعيل ومن الدولة الصفوية، وعليهم المساهمة قدر المستطاع، في تدعيم جهود الجماعات الشيعية التي ترى وجوب إشراف رجال الدين، على شؤون الدولة الإسلامية، والعمل على نشر مبادئ الدين الحنيف والفكر الشيعي الصحيح، كما يراه فقهاء الحوزات الشيعية العريقة. وأن لا يترك الميدان في إيران لغلاة المتصوفة، المتنفذين في الحركة الصفوية. وعلى هذا الأساس وبعد سنتين تقريبا من زيارة الشاه إسماعيل للعراق، شد ذلك العالم الديني الرحال وغادر النجف متوجها إلى إيران، ودخل في خدمة الدولة الصفوية. كان ذلك هو الشيخ علي بن عبد العالي الكركي.

ينتسب الشيخ علي بن عبد العالي، إلى قرية "كرك نوح" في سهل البقاع من لبنان، ويقدر بعض المؤرخين سنة ولادته في حدود سنة ٨٧٠هـ (١٤٦٥م). لقد درس الشيخ علي علوم الدين في قريته، ونال إجازة الاجتهاد من شيخه علي بن هلال الجزائري، الفقيه العراقي الكبير، الذي انتقل إلى كرك نوح وأقام بها. وبعد أن نال إجازة الاجتهاد بفترة قصيرة، رحل في حدود سنة ٩٠٩هـ (١٥٠٣م) إلى النجف لمواصلة الدرس والبحث كما هو متبع لدى رجال الدين الشيعة. ولابد أن نشير هنا إلى أن رحلة هذا العالم اللبناني العاملي إلى العراق، كانت بعد تأسيس الدولة الصفوية بقليل، وقبل سقوط حكومة باريك (الآق قوينلو) في بغداد بخمسة

أعوام تقريباً. أي إنه عاصر الأحداث العاصفة، التي مر بها عرب العراق، والتحولات التاريخية التي أنجبت الدولة الصفوية، واستيلاء الشاه إسماعيل على العراق.

دخل الشيخ الكركي على الشاه إسماعيل بعد استيلائه على "هراة"، في سنة ٩١٦هـ (١٥١٠م). فوجد أن الشاه قد أمر بقتل جماعة من فقهاء أهل السنة، بينهم شيخ الإسلام أحمد بن يحيى. ويقال بأن الشيخ الكركي، أنكر على الشاه إسماعيل قتل شيخ الإسلام وصحبه من علماء أهل السنة، باعتبار إنه وضع السيف في موضع الحوار. وينسب للشيخ الكركي قوله:

لو لم يقتل لأمكن أن يتم عليه بالحجج والبراهين ... حقية مذهب الإمامية ... ويذعن بإلزامه، جميع ما وراء النهر وخراسان ... .(١)

ومهما كان الأمر، فإن الشيخ الكركي باشر بعد تلك المواجهة، في وضع الخطوط العامة لبناء مؤسسة دينية شيعية في الدولة الصفوية. واتخذ من مدينة "كاشان" مقرا له. وانهمك في إعداد جيل جديد من طلاب العلوم الدينة، كانوا يدرسون حسب المناهج والأساليب المتبعة في الحوزات الشيعية العريقة، التي يتعلم فيها طلاب العلوم الدينية، ويتخرج منها كبار العلماء أمثاله. وفي تلك الأثناء أمر الشيخ الكركي، أن يعين في كل بلد وقرية رجل دين يصلي بالناس، ويعلمهم الشرائع الدينية. واستمر على ذلك المنوال في نشاطاته الدينية، قرابة اثنتي عشر سنة.

ثم حدث شئ ما، أو ربما أشياء لازلنا نجهلها. ففي سنة ٩٢٩هـ (١٥٢٢م) وفي ظروف غامضة، ترك الشيخ علي الكركي إيران، وعاد إلى النجف. وفي الغالب فإن الشاه إسماعيل، هو الذي أمر بإبعاد الشيخ الكركي من إيران، بعد أن تأزمت الأوضاع بين الشيخ الكركي، والجماعات التي ظلت تصر على التمسك

---

(١) جعفر المهاجر – الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي ص١٢٣

بإطار التشيع الصفوي المشحون بالغلو. والذي لم يكن بعيداً عن فكر ووجدان الشاه إسماعيل نفسه.

بالرغم من شحة المعلومات وضبابية الموقف، نستطيع القول بأن تسفير الشيخ الكركي من إيران لم يكن بالأمر الهين، ونفترض أن تلك الجماعات الصوفية التي كانت تحظى بدعم أمراء العسكر القزلباش، دخلت في صراعات مريرة ضد الشيخ الكركي وضد مدرسته الفكرية، التي لم تكن تنسجم مع فكرهم الصوفي. ولابد أن تلك الجماعات، وجهت ضغوطاً شديدة على الشاه إسماعيل، في تلك الظروف العصيبة، التي كان الشاه إسماعيل يحشد فيها الجيوش، استعداداً لطرد العثمانيين من الأراضي الصفوية. مما اضطره اتخاذ مثل ذلك القرار تلافياً لأي فتنة قد تضعف قواته العسكرية.

وبعد رحيل الكركي بعام واحد، زحف الشاه إسماعيل بالجيوش الصفوية، وتمكن من طرد العثمانيين من بعض الأقاليم، ولكنه توفي قبل إكمال تلك الحملة العسكرية. وتولى بعد وفاته ولده الشاه طهماسب، الذي لم يكن قد جاوز العاشرة من عمره.

الفصل الثاني

الحكم الصفوي وعرب العراق

بعد هروب باريك آخر حكام الآق قوينلو من بغداد، أنهى العراق فترة عصيبة من تاريخه استمرت عدة أجيال، عانى أثناءها عرب العراق الويلات عبر نزاعات وحروب سلاطين وأمراء امبراطوريتين أقامتهما القبائل الرعوية التركمانية التي أسقطت حكم المغول.

وعليه لا يمكن أن نقلل من الأهمية التاريخية، لذلك اليوم الذي زحفت فيه جموع الشعب في بغداد نحو سجن باريك، وأخرجت منه نقيب الأشراف السيد محمد كمونة وسلمته مقاليد الأمور في البلاد. في غمرة تلك الأحداث، كان جيش القزلباش يزحف نحو بغداد بقيادة الشاه إسماعيل الذي دخل المدينة بدون مقاومة.

الإدارة الصفوية وحكومة نقيب الأشراف

بعد الاستيلاء على بغداد، فوض الشاه إسماعيل أمير الديوان خادم بك أبا منصور وهو من زعماء التركمان البارزين الموالين للشاه إسماعيل، وأوكل إليه الإدارة الصفوية الجديدة في بغداد، وأوصاه بتمشية الأمور والعناية بالمراقد المقدسة، والعمل مع نقيب الأشراف السيد محمد كمونة، الذي ولاه الشاه إسماعيل حكومة النجف وفوض إليه شؤون العرب في العراق.

ولابد أن نشير إلى أن الشاه إسماعيل استولى على بغداد ولم يكن قد مضى سوى ثمانية أعوام على قيام الدولة الصفوية، التي كانت لا تزال في دور التكوين

وتفتقر إلى المؤسسات الإدارية. ولذا أتبع منذ البداية سياسة إدارية لا مركزية، تعتمد على القوى المحلية في كل إقليم. وفي هذا الإطار وبما يخص العراق، ترك الشاه إسماعيل حكومة المنتفك التي كانت تتخذ من البصرة مقراً لها على وضعها السابق، وأطلق لها إدارة شؤون عرب العراق في الجنوب. وولى حكومة النجف وإدارة شؤون عرب العراق في المناطق الوسطى إلى نقيب الأشراف السيد محمد كمونة الذي قال عنه صاحب ماضي النجف وحاضرها:

هو من السادة الأشراف حاز سمعة وصيتاً وكانت له حكومة البلد مع حكومة أكثر البلدان العراقية أيام الصفويين، وكان مطاعا في العراق وله جاه واحترام ونفوذ تام ... .[(١)]

لقد أضفت تلك السياسة الصفوية مناخاً لم يشهد العراق مثله منذ فترة طويلة، كان من أهم مظاهرها استتباب الأمن وانتعاش التجارة وتحسن الأوضاع الاقتصادية في مناطق عرب العراق. وقد استمر ذلك الوضع حتى وفاة الشاه إسماعيل في سنة ١٥٢٣م. أما بعد ذلك فأن المشاكل السياسية والهزات التي واجهت الدولة في عهد ولده الشاه طهماسب، كان لها بعض الآثار السلبية على الأوضاع العامة في العراق.

وبهذا الصدد كتب المؤرخ البريطاني لونكريك عن العراق في عهد الشاه إسماعيل فقال:

وفي السنين المنحصرة بين زيارة الشاه إسماعيل للعراق ووفاته في ١٥٢٤م مر على العراق نصف جيل من السلم والهدوء. وكانت تأثيرات العتبات المقدسة القوية تؤيد الحكم الجديد فتقاطر التجار الإيرانيون على بغداد، وجذب نفوذ الصفويين الديني حتى العشائر النهرية المتمردة وكان أحد الحكام العرب في البصرة يدفع أتاوة سنوية إلى الشاه ... .[(٢)]

إن بروز شخصية نقيب الأشراف وتعاظم دوره في إدارة شؤون العراق في تلك الحقبة، مثل ظاهرة تاريخية افتقدها عرب العراق منذ القضاء على حكومة

---

(١) جعفر محبوبة - ماضي النجف وحاضرها

(٢) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٣٢

الشريف أحمد بن رميثة التي كان مقرها بالحلة، والتي قضى عليها السلطان المغولي حسن الجلايري في سنة ١٣٣٩م. ما يتوفر لدينا من معلومات يشير إلى أن الإدارة الصفوية في بغداد كانت تولي مقام نقيب الأشراف السيد محمد كمونة التقدير والاحترام وتتجاوب مع جهوده وسياسته في إدارة شؤون مناطق عراق العرب. ويبدو أن ذلك الوضع لم يتغير كثيرا بعد مقتل والي بغداد أبي منصور خادم بك ومعه نقيب الأشراف السيد محمد كمونة في معركة جالديران. فبعد تلك المعركة عين الشاه إسماعيل لإدارة بغداد، إبراهيم خان تكلو وهو أحد زعماء قبيلة تكلو التركمانية الكبرى، التي أشرنا إلى دورها في إسناد ثورة وحكومة الشاه إسماعيل. أما نقابة الأشراف في النجف فقد آلت إلى السيد حسين بن السيد محمد كمونة.

حكومة المنتفك في البصرة

في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري تدفقت على بلاد الرافدين موجة هجرة بدوية جديدة، تعد الموجة الكبيرة الثانية من حيث الحجم، بعد الموجة البدوية التي جاءت من شبه الجزيرة العربية إبان الفتوحات الإسلامية. وقد حملت تلك الموجة عدداً من العشائر التي تنتمي إلى قبائل طي وفزارة وأسد وعقيل ونمير وقشير وغيرها من القبائل العربية.

تزامن ورود تلك القبائل، مع تعاظم نفوذ أمراء عسكر المماليك الترك، الذين تسلطوا على الخلافة العباسية. ذلك الحدث الذي دخل مرحلة خطيرة وحاسمة في سنة ٢٤٧هـ. وهو العام الذي قتل فيه أمراء عسكر المماليك الترك الخليفة العباسي المتوكل بن المعتصم. إذ دخلوا عليه ليلاً وأخرجوه من مجلسه، ثم شدوا وثاقه ووضعوه في كيس ورموه في باحة القصر، ووطئوه بسنابك خيولهم. وهكذا قضى أمراء عسكر المماليك الترك، على سيدهم الخليفة المتوكل، وعلى ما تبقى من مقومات الخلافة العباسية.

بعد تنفيذ تلك الجريمة الشنعاء، تسلط أمراء المماليك الترك على مقاليد الأمور، وأخذوا يعبثون بمقدرات الدولة والناس، بما تمليه عليهم مصالحهم الذاتية. وبعد انقلابهم العسكري، نصبوا المنتصر بالله بن المتوكل، غير أنهم انقلبوا عليه وقتلوه بعد ستة أشهر. وبعد القضاء على الخليفة المنتصر، نصب أمراء المماليك المستعين بالله. غير أن أيام المستعين لم تطل، إذ خلعه أمراء العسكر وعذبوه حتى الموت. ثم نصبوا مكانه في سنة ٢٥٢هـ، المعتز بن المتوكل، الذي قتل هو الأخر في سنة ٢٥٥هـ. بعد مقتل الخليفة المعتز، نصب أمراء العسكر مكانه محمد المهتدي بن الواثق، ولكنهم انقلبوا عليه هو الآخر وقتلوه في سنة ٢٥٦هـ.

في تلك الفترة العاصفة السوداء، توالت هجرات تلك القبائل العربية على العراق. لتجد أن التحولات التاريخية التي أحدثها ذلك الانقلاب العسكري الدامي، قد وضعت عرب العراق على طريق طويل من المعاناة. ويبدو أن قبائل "المنتفق" أو المنتفك كانت من بين القبائل العربية التي واجهت ذلك الواقع، إذ أنها كما تشير المصادر، وردت العراق في العهد العباسي، وإنها كانت تتنقل في تلك الأيام، في بوادي العراق غربي الفرات.

المنتفق بطن من عامر بن صعصعة فهم من القبائل العدنانية التي تنتمي إليها ربيعة وكعب وتميم وقيس وعشائر أخرى استقرت في العراق. ذكرهم ابن الأثير في أحداث سنة ٣٧٨هـ فقال:

في هذه السنة جمع إنسان يعرف بالأصفر من بني المنتفق جمعاً كبيرا، وكان بينه وبين جمع من القرامطة وقعة شديدة قتل فيها مقدم القرامطة وانهزم أصحابه، وسار الأصفر إلى الأحساء فتحصن منه القرامطة، فعدل إلى القطيف فأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم وسار بها إلى البصرة ... .

تؤكد إشارة ابن الأثير هذه، إلى أن بني المنتفك كانوا منذ تلك الأيام يتجولون في بوادي جنوب العراق، وإن ما حدث بينهم وبين القرامطة، يشير إلى ما كانت عليه قوتهم آنذاك في تلك البوادي.

ثُم يعود ابن الأثير فيذكر بني المنتفك في أحداث سنة ٤٩٩هـ إذ يقول:

إنهم تحالفوا مع ربيعة وهاجموا البصرة، وأحرقوا أسواقها ونهبوا ما قدروا عليه ...

وهكذا نرى أن بني المنتفك، كانوا حتى تلك الأيام يعيشون حياة البداوة والسلب والنهب. وقد سبق أن ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، أن حكومة بغداد التي تسلط عليها عسكر المماليك في النصف الثاني من القرن السادس الهجري، استعانت بمقدم المنتفك ابن معروف، للقضاء على سلطة بني أسد في الفرات الأوسط وسلموا بطائحهم إليه.

تعلمنا الدراسات التاريخية لطبيعة الزراعة في العراق وخصوصياتها، أن دور المزارعين المحليين يتعاظم في إدارة شؤون الزراعة والري في مناطقهم، أيام ضعف وتخلخل الإدارة المركزية في البلاد. ويبدو أن هذا ما حدث بعد تسلط أمراء عسكر المماليك على خلفاء بني العباس في بغداد، مما استتبع عنه تشويش الإدارة الزراعية في البلاد، نتيجة صراعات أولئك الأمراء على السلطة وتنافسهم للاستحواذ على الأراضي الزراعية. وإن المعلومات تشير إلى أن دور المنتفك، أخذ يتعاظم في منطقة الفرات الأسفل، نتيجة تلك الظروف التاريخية التي واجهتها القبائل العربية في العراق.

بعد سقوط الدولة العباسية، قضت حكومة هولاكو على مؤسسة عسكر المماليك الترك وعلى أمرائهم، الذين استحوذوا على أخصب المناطق الزراعية في العراق. وبما أن حكومة هولاكو اتبعت سياسة لامركزية، في إدارة أقاليم الإمبراطورية ومنها العراق، فإن اختفاء تلك الطبقة الإقطاعية العسكرية، أوجد مناخاً أفضل للعشائر النهرية، للعمل في الزراعة في أرياف العراق. وفي خضم تلك التطورات والأحداث، تعاظم دور القبائل النهرية في إدارة مناطقها الزراعية. وبمرور الزمن اتخذ ذلك الدور أبعاداً جديدة.

ومع حلول القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) ظهرت المنتفك كقوة رئيسية بين قبائل الجنوب، وتمكنت من إقامة حلف جمع العديد من تلك القبائل المستقرة منها والراحلة، تحت زعامتها. وفي أواخر عهد المغول استغل رؤساء

المنتفك ضعف حكومات المغول، فساروا بقبائلهم واستولوا على البصرة، وأقاموا فيها حكومة عربية اضطلعت بإدارة شؤون جنوب العراق.

قال العزاوي (نقلاً عن تاريخ الجنابي):

إن استيلاء القبائل العربية على البصرة كان في عهد المغول الجلايرية، في إمارة أحمد بن أويس (٧٨٤هـ-٨١٣هـ).

وكان رئيس المنتفك آنذاك مانع الذي تسميه المصادر "أمير العرب". وقد استمرت حكومة مانع في البصرة حتى سنة ٨١٤هـ (١٤١١م)، ففي ذلك العام سقطت حكومة المغول في بغداد، فانسحبوا منها وساروا نحو الجنوب، بقيادة الأميرة دوندي زوجة السلطان أحمد آخر حكام المغول الجلايرية في العراق. وفي الجنوب هاجمت قوات دوندي المغولية مدينة البصرة، وتمكنت بعد معارك دامية من انتزاعها من يد عرب العراق. ولكن العشائر العراقية بقيادة رؤساء المنتفك، عادت وانتزعت البصرة من يد المغول مرة أخرى.

بعد استيلاء عشائر الجنوب على البصرة، أقام رؤساء المنتفك فيها حكومة عربية استمرت في إدارة شؤون جنوب العراق طيلة عهود حكومات التركمان القره قوينلو والآق قوينلو. وحينما انهارت حكومة الآق قوينلو في بغداد وتسلم مقاليد الأمور فيها نقيب الأشراف السيد محمد كمونة، كانت البصرة بيد حكومة المنتفك ورئيسها راشد بن مغامس، الذي تذكر المصادر أنه كان أميراً مستقلاً صاحب خطبة وسكة[1]. أي يخطب له على المنابر وتسك النقود باسمه، في المناطق التي كان يحكم فيها. وكان ذلك وضع الدول المستقلة في تلك الأيام.

استمر وجود حكومة راشد في جنوب العراق طيلة العهد الصفوي. ولكن الأمور تغيرت في العهد العثماني. فحينما استولت الجيوش العثمانية على بغداد في سنة ١٥٣٤م، لم تتقدم في بداية الأمر لاحتلال البصرة، وقد استمر ذلك الوضع

---

(١) عباس العزاوي - عشائر العراق، ج٤ص٤٦

قرابة اثنى عشر عاما، اقتصر فيه الاحتلال العثماني على بغداد والموصل. بعد مرور خمسة أعوام من استيلاء العثمانيين على بغداد، بعث رئيس حكومة المنتفك راشد بن مغامس في سنة ١٥٣٩م، سفارة إلى السلطان سليمان الأول برئاسة ولده مانع بن راشد ومعه وزيره الأمير محمد. وقد التقى مانع بن راشد بالسلطان العثماني في صحراء أدرنه. وتشير المصادر العثمانية، إلى انه نال التفاتاً زائداً من السلطان الذي أبدى له لطفاً كبيراً. وفي أثناء ذلك اللقاء، أعلنت حكومة المنتفك ولاءها لحكومة السلطان العثماني، وبالمقابل تعهدت الدولة العثمانية، باحترام استقلال حكومة المنتفك في إدارة شؤون عرب العراق. ولكن الدولة العثمانية نقضت عهدها بعد سبع سنوات، وحشدت جيشاً كبيراً زحف من بغداد واستولى على البصرة في سنة ١٥٤٦م. وهكذا قضى العثمانيون على حكومة المنتفك العربية في جنوب العراق.

رؤساء المنتفك

بالرغم من أن المصادر لا تختلف كثيراً في تاريخ المنتفك في العراق، غير أن الذين تناولوا ذلك التاريخ تضاربت آراؤهم حول تاريخ رئاسة المنتفك. لأن رؤساء المنتفك أل شبيب، ليسوا من صلب قبيلة المنتفك، بل أنهم من السادة الأشراف، من عقب الشريف نجم الدين محمد شريف مكة الملقب بأبي نمى الأول، المتوفى في سنة ٧٠١هـ (١٣٠١م)، وهو من سلالة الأمام الحسن بن علي بن أبي طالب.

المعروف أن أولاد الشريف أبو نمى تنازعوا بعد وفاته حول شرافة مكة، وقدم عدد منهم إلى العراق في عهد السلطان المغولي محمد خدابندة، الذي أعتنق المذهب الشيعي. وأن أغلب عشائر وعوائل السادة الحسنية في العراق، هم من عقب الشريف أبي نمى من ولديه، الشريف أبي محمد حميضة وأخيه الشريف رميثة.

ويرى جمع من المؤرخين أن رؤساء المنتفك آل شبيب ينتمون إلى ذلك الجيل من السادة الحسنيين، أي انهم وردوا العراق في عهد المغول الأيلخانين. وعلى هذا الأساس يفترضون أن رئيس المنتفك مانع "أمير العرب" كان من أولئك السادة الحسنيين.

غير أن كتاباً آخرين، يرون أن آل شبيب هم من عقب الشريف حسن، الذي ورد العراق في أوائل القرن العاشر الهجري، (أواخر القرن الخامس عشر ميلادي) وحل في ديار المنتفك. أي أنه ورد العراق، قبل الاحتلال العثماني بفترة وجيزة.

ولابد من الإشارة هنا إلى الفاصل الزمني بين هذين الرأيين، فإذا أخذنا بالرأي الأول، القائل إن علاقة الأشراف بالمنتفك تعود إلى أوائل القرن الثامن الهجري، فإن ذلك يجرنا للافتراض، أن السادة أشراف مكة، هم الذين قاموا بدور توحيد القبائل النهرية في جنوب الفرات، وهم الذين شيدوا صرح إمارة المنتفك منذ البداية. فالمعلومات التاريخية تشير إلى أن إمارة المنتفك ظهرت في تلك العصور. ومن هذا يستنتج البعض ويقول، إن مانع رئيس المنتفك الذي حكم البصرة حتى سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م، كان من أولئك الشرفاء الحسنيون. وكذلك الأمير راشد بن مغامس، الذي تعاهد مع الدولة العثمانية في سنة ١٥٣٩م. فإذا صحت هذه المقولة، يتأكد لنا إن بيت الشرفاء الحسنيين لعب دورا أساسياً في تكوين إمارة المنتفك، وفي تشييد صرح أول حكومة عربية في جنوب العراق بعد سقوط الدولة العباسية.

أما إذا كانت علاقة أشراف مكة قد بدأت بالشريف حسن، الذي حل في ديار المنتفك في أوائل القرن العاشر الهجري، أي قبل استيلاء العثمانيين على العراق بفترة وجيزة، فإن دور الشرفاء، يكون قد بدأ بعد أن اسقط العثمانيون حكومة المنتفك في البصرة. فإذا صحت هذه المقولة، فإن دور الشرفاء من عقب الشريف حسن، برز في جنوب العراق بعد أن شتت العثمانيون شمل القبائل العراقية التي قام عليها حاف المنتفك القديم.

ولما كانت خصوصيات الزراعة النهرية في وادي الرافدين، لها أحكامها الثابتة، التي تفرض على الأفراد، أن يتعاونوا في ما بينهم، ومع الآخرين في الأمور الزراعية، ليضمنوا معيشتهم ووجودهم على تلك الأرض. فإن الصراع من أجل الحياة والوجود، كان العامل الحاسم، في لم شمل تلك العشائر النهرية في طول وعرض وادي الرافدين. وفي تلك المرحلة التاريخية، أخذ السادة الحسنيون على عاتقهم، لم شمل تلك القبائل العربية في مناطق الفرات الأسفل، واضطلعوا بمهمة توحيدها تحت راية واحدة، وبذلك أعادوا بناء صرح إمارة المنتفك. التي لعبت دوراً أساسياً في تنظيم حياة القبائل العربية النهرية في جنوب العراق، وقادت صراعاتها المريرة من أجل البقاء والتمسك بالأرض، عبر العصور العثمانية.

وفاة الشاه إسماعيل ونهاية مرحلة

في سنة ١٥٢٣م انتهز الشاه إسماعيل انشغال العثمانيين بمشاكلهم الداخلية وبحروبهم في أوربا، فحشد قواته العسكرية وتقدم لاستعادة الأقاليم الصفوية التي استولى عليها العثمانيون بعد معركة جالديران. فهاجم بلاد الشركس التي كانت بيد العثمانيين واستولى عليها. وبعد ذلك الانتصار عرج على أردبيل لزيارة قبور أجداده، فكانت تلك العودة الأخيرة، فقد ألم به المرض وقضى نحبه، ودفن في تربة تلك المدينة التركمانية التي كانت مهد الحركة الصفوية. وبوفاة الشاه إسماعيل انطوت المرحلة الثورية في تاريخ الدولة الصفوية.

ومن المعروف أن الشاه إسماعيل لم يبرأ تماماً من جراحاته منذ معركة جالديران، ويقال أنه لم يشاهد ضاحكاً منذ ذلك اليوم، ولم يترك لبس السواد حتى آخر أيامه. قال عنه جعفر المهاجر:

قضى الشاه إسماعيل (ليل الاثنين ١٣ رجب ٩٣٠هـ/٢٣ أيار ١٥٢٣م) شابا في الثامنة والثلاثين، محطم القلب نتيجة هزيمته في "جالديران" على يد العثمانيين. ولكنه خلال السنوات الأربع وعشرين التي حكم فيها، بنى مملكة قوية

ضمت "أذربيجان" و "عراق العرب" و "خراسان" و "فارس" و "كرمان" و "خوزستان". وخطط لبلاده مسلكا جديدا في التاريخ على أساس التوحد والتشيع الإمامي، ظهرت نتائجه الحقيقية فيما بعد. فبدأ بهذين الإنجازين بناء شخصية هذا البلد (إيران) كما لا تزال مستمرة حتى اليوم.(١)

ومن الجدير بالملاحظة إن الشاه إسماعيل كان شاعراً ملهما بالتركية وكان لأشعاره أثر واسع في نشر تعاليمه الصوفية في مجتمعات الترك. وقد نشر ديوانه المسمى "ديوان خطائي أو خطايي" في مدينة باكو (وهي اليوم عاصمة جمهورية أذربيجان المستقلة، التي تقع على الجانب الغربي من بحر قزوين). وكانت باكو أول مدينة تركمانية استولى عليها ثوار القزلباش بعد اندلاع الثورة التي قادها الشاه إسماعيل. وتوجد نسخة أصلية من ذلك الديوان في اسطنبول.

وقد أشار جعفر المهاجر إلى أشعار الشاه إسماعيل في ذلك الديوان فقال:

عبر عن أفكاره، والعقيدة التي آمن بها بلغة تحرك القلب، وانتشرت تعاليمه حيث لم يصل سيفه. وحتى اليوم فإن "ديوان خطايي" شائع جدا، وكذلك قطع من شعره، بين الفرق المتشيعة في "تركيا" كالبكتاشية والتحتاجية، خاصة تلك القطع المسماة "دوازده إمام" أي "الأئمة الإثنا عشر".(٢)

ويشير عدد من الباحثين إلى أهمية التأثيرات الفكرية التي أحدثها الشاه إسماعيل في العقائد الصوفية البكتاشية التي لا زالت تتمتع بنفوذ واسع في تركيا الحديثة. وقد أشار الكاتب "بيرج" إلى تلك الظاهرة فقال:

يعتبر الشاه إسماعيل من أكثر المعلمين والمبشرين تأثيرا في التاريخ البكتاشي.(٣)

---

(١) جعفر المهاجر – الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي ص٢٣

(٢) ن.م.

(٣) Birge, J.K. The Baktashi order of Dervishes PP٢٤ - ٦٣

الشاه طهماسب

ولد طهماسب في سنة ١٥١٣م وتولى الحكم وهو في العاشرة من عمره. وبهذه السن المبكرة ورث طهماسب دولة مترامية الأطراف متعددة الأجناس، تفتقر إلى إطار روحي وفكري، يلم شمل شعوبها التي مزقتها الصراعات القبلية والطائفية عبر أجيال. وليحميها من الأخطار المحدقة بها وهي في دور التكوين. ويقال إن طهماسب كان فطناً حكيماً عميق التدين، يختلف عن أبيه في كثير من الأمور. فقد سمحت له نشأته، أن يتعلم ويتحلى بثقافة واسعة متفتحة يغلب عليها الطابع الحضري.

شاءت أقدار التاريخ أن يفجر الثورة الصفوية ويؤسس دولتها، صبي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، هو الشاه إسماعيل بن الشيخ حيدر الصفوي، وان يخلفه ولده طهماسب وهو في العاشرة من عمره. ولابد أن طهماسب لم يتمكن من ممارسة واجباته في تلك السن المبكرة، ولكن المعلومات تشير إلى أنه مارس القيادة والحكم، بعد سنوات قليلة من وفاة والده الشاه إسماعيل.

وفي عهده شنت الدولة العثمانية حملتها العسكرية الثانية على الدولة الصفوية. تلك الحملة التي كان من نتائجها استيلاء السلطان العثماني سليمان الأول على تبريز ثم بغداد. بعد الانتهاء من تلك الحملة وعودة السلطان سليمان إلى اسطنبول، جمع الشاه طهماسب جيشاً كبيراً من القبائل التركمانية، وتقدم به لاستعادة الأراضي الصفوية التي استولت عليها الجيوش العثمانية. وسار على رأس ذلك الجيش وطرد العثمانيين من تبريز، ثم استولى على أرمينية والأقاليم الصفوية المجاورة. غير أنه سحب جيوشه منها بعد فترة وجيزة وتحول بها نحو الشرق لمواجهة تمرد قبائل الأزبك.

وفي أيامه تمرد عليه أخوه القاص ميرزا الذي التجأ إلى السلطان العثماني سليمان، ويذكر أن القاص ميرزا أتفق مع السلطان سليمان على اقتسام أقاليم الدولة

الصفوية. ولكن بعد مدة، اختلف الأمير الصفوي مع السلطان العثماني فهرب إلى ديار بكر. فقبض عليه حاكمها، وسلمه إلى طهماسب الذي أمر بإعدامه.

في سنة ١٥٤٨م نقل الشاه طهماسب عاصمته من تبريز إلى قزوين، وكانت تلك نقطة تحول مهمة في تاريخ الدولة الصفوية، التي ولدت في بلاد التركمان. وكان طبيعياً في حينه، أن يختار رجال الثورة مدينة تبريز، قلب مجتمع التركمان في أذربيجان عاصمة لهم. وهكذا ظلت تبريز عاصمة للدولة التركمانية قرابة نصف قرن من الزمن. وفي تلك الفترة الزمنية حلت الدولة الصفوية محل إمبراطورية الآق قوينلو، التي أسسها جد الشاه إسماعيل، السلطان حسن الطويل. وبعد فترة وجيزة من ولادتها، تعرضت إلى عدة حملات عسكرية عثمانية، كان الهدف منها القضاء على تلك الدولة الناشئة، وإلحاق أقاليمها بالإمبراطورية العثمانية.

في خضم تلك الصراعات العثمانية الصفوية، التي كانت في حقيقة أمرها بالنسبة لسكان إيران، صراعات من أجل الأرض والوجود، ظهرت الحاجة لتوحيد صفوف الشعوب الإيرانية التي فرقتها الصراعات الفئوية، لمواجهة العدو المشترك. وفي ضمن ذلك الإطار، ظهرت في إيران إرهاصات وحدة وطنية تجاوزت حدود بلاد التركمان الأذريين، وامتدت إلى مختلف الأقاليم الإيرانية.

وبهذا الصدد يرى البعض أن السياسة التي أطلقها الشاه إسماعيل في فرض المذهب الشيعي، كما كان يراه هو وبعض مشايخ الطريقة الصفوية، أحدثت تحولاً في نسيج المجتمع الإيراني الذي مزقته الخلافات الطائفية والحروب القبلية. فالمعلومات التاريخية تشير إلى أن تحول أعداد كبيرة من سكان مدن وقرى وأرياف إيران من أتباع الفرق الإسلامية المختلفة، كالسنة والشيعة الزيدية والشيعة الإسماعيلية وغيرهم، عن مذاهبهم ودخولهم في مذهب الدولة الرسمي، كان بمثابة عملية توحيد إجبارية، أنتجت في العقود التالية أجيالاً من الإيرانيين، تجمعهم وحدة وطنية ضمن إطار مذهب الدولة المركزية. ولعل قرار الشاه طهماسب في الخروج

من تبريز، التي تعرضت لأكثر من احتلال عثماني، لقربها من الحدود المشتركة، واتخاذ مدينة قزوين الفارسية، التي تقع خارج مناطق التركمان الأذريين، جاء مؤشراً مهماً لذلك الواقع الجديد. الذي ظهرت فيه معالم الوحدة الوطنية الحديثة، التي جمعت الإثنيات الفارسية والتركية وغيرها من شعوب شبه القارة الإيرانية.

طهماسب والشيخ الكركي

بعد مرور خمسة أعوام من تولي طهماسب العرش الصفوي، وفي خضم الصراعات الصفوية العثمانية، بعث الشاه طهماسب برسول إلى النجف لدعوة كبار علماء الشيعة فيها للقدوم إلى إيران، ليساهموا في نشر التشيع، ويساعدوا في إقامة مؤسسات دينية شيعية في الدولة.

وفي الغالب فإن طهماسب، وهو الشاب المتعلم الذي أغنت تربيته وتعليمه تجارب سياسية وفكرية لم تتوفر لوالده الشاه إسماعيل، أدرك أن ليس بإمكانه أن يمسك بزمام السلطة الزمنية والدينية في آن واحد. وإن الحكمة تقضي، الابتعاد عن سياسة استعمال السيف في ميادين الفكر، حيث لا ينفع إلا القلم. وأقتنع بأن مصلحة البلاد التي كانت تمر بظروف عصيبة، تقتضي ترك أمر الدين والشريعة، بيد أهل الخبرة من الفقهاء وعلماء الدين، الذين كان المجتمع الصفوي في إيران يفتقر إليهم. فكان لابد من الاستعانة بفقهاء الحوزة الدينية في النجف.

وتشير الأخبار بأن مبعوث طهماسب جاء إلى النجف، وهو يحمل هدية مناسبة للشيخ علي الكركي الذي استقر في النجف بعد أن هجر من إيران، وأخرى مماثلة لفقيه آخر يوازيه في المنزلة هو الشيخ إبراهيم القطيفي، الذي نستدل من اسمه، إنه من القطيف من بلاد البحرين.

ولكن الشيخ القطيفي، رفض استلام هدية الشاه طهماسب، بينما قبلها الشيخ الكركي. ومما يذكر بهذا الصدد، أن الشيخ الكركي انتقد زميله الشيخ القطيفي على رده هدية الشاه طهماسب. وقال له:

أخطأت في ردها وارتكبت أما حراماً أو مكروهاً، بتركك التأسى بالإمام الحسن السبط في قبوله جوائز معاوية، مع أنك لست أعلى مرتبة من الإمام، ولا السلطان أسوأ حالاً من معاوية. (١)

ومهما كان من الأمر، فإن فقهاء النجف أحجموا عن تلبية دعوة الشاه طهماسب، إلا الشيخ علي الكركي الذي شد الرحال وعاد مرة ثانية إلى إيران، ليواصل العمل الذي بدأه من قبل.

في إيران جرت استقبالات منقطعة النظير للشيخ علي الكركي، حيث أصدر طهماسب أمراً ملكيا (فرمان) يأمر به رجال الدولة بإطاعة الشيخ علي الكركي باعتباره نائب الإمام الغائب (صاحب الزمان) والامتثال لأمره. وإن من يخالف حكمه "... **سيؤاخذ بالتأديبات البليغة والتدبيرات العظيمة** ..." ومنح الشيخ قرى ومناطق زراعية واسعة، ليأخذ خراجها وينفقه في أمور الدين بصورة مستقلة عن ميزانية الدولة. وبهذا الصدد يقول د. علي الوردي:

أصبح الشيخ علي الكركي هو الحاكم الفعلي في عهد الشاه طهماسب – فيما يخص الشؤون الدينية على الأقل- . (٢)

بينما أشارت مصادر أخرى إلى أن صلاحيات الكركي الفعلية تعدت ذلك، بعد أن أصبح يوجه بصورة مباشرة رسائل إلى حكام الولايات، تتضمن قوانين العدل، وكيفية سلوك أولئك الحكام وعمالهم في الرعية، وفي أخذ الخراج وكميته ومدته. وامتدت صلاحياته إلى حد تولية وعزل كبار المسؤولين في الدولة بما فيهم رئيس الوزراء.

وبهذا الصدد يرى البعض أن تجربة الشيخ الكركي في إيران، يمكن أن تعد التجربة العملية الأولى لنظرية "ولاية الفقيه" التي تنسب إلى الشيخ محمد ابن مكي الجزيني المعروف بالشهيد الأول. والشيخ ابن مكي من مواليد قرية "جزين" في

---

(١) علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ص٦٢

(٢) ن.م.، ص٦٠

جنوب لبنان. في حدود سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م هاجر ابن مكي الجزيني وهو في مقتبل العمر إلى العراق، وتلقى علومه الدينية في الحلة، التي كانت في تلك الأيام أكبر مركز حوزوي للشيعة. وفي سنة ١٣٥٥م تلقى إجازته من شيخه الأكبر، محمد بن الحسن فخر المحققين ابن الشيخ الحسن بن يوسف بن المطهر الشهير بـ "العلامة الحلي" (ت. في سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م) والذي يعد أعظم أعلام الفقه الشيعي في كل العصور.

في سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م دبر حكام المماليك الترك في دمشق للشيخ محمد بن مكي شهادة زور، واتهموه بانحلال العقيدة، واعتقاد مذهب النصيرية، واستحلال الخمر الصرف، وبعد محاكمة صورية ضربت عنقه بعد التعذيب الشديد.

بالرغم من المركز الهام الذي ناله الشيخ الكركي وإنجازاته، فإن دخوله في خدمة الدولة الصفوية، وتأييده المستحدثات التي أدخلها الصفويون باسم التشيع، أثار ضده موجة من المعارضة الشديدة في الأوساط الشيعية، باعتبار أنه وافق على أمور لا يجوز في الشرع الحنيف الموافقة عليها، حتى أن خصومه من رجال الدين أطلقوا عليه لقب "مخترع الشيعة".

نهاية الطريق والعودة إلى النجف

يبدو أن تعاظم نفوذ الشيخ الكركي، أثار مرة أخرى مخاوف الزعامات العسكرية التي ظهرت في عهد الدولة الصفوية، والمتمثلة بأمراء عسكر القزلباش من زعماء القبائل التركمانية، الذين كانوا يرون أن الثورة الصفوية ملكاً لهم، والذين لم يرق لهم تعاظم قوة ونفوذ المؤسسات الدينية التي باتت تهدد سلطاتهم وتعرض تفردهم في أداره البلاد للمسألة.

ويقال إن عناصر من تلك الفئات العسكرية، بدأت تتحرك ضد الشيخ الكركي. ثم أخذ ذلك التحرك مساراً خطيراً، حينما تعرض الشيخ الكركي لمحاولة

اغتيال دبرها أحد أمراء عسكر القزلباش المدعو "محمود بك مهردار" والذي قتل أثناء تنفيذ تلك العملية الفاشلة.

وفي غمرة تلك الأحداث التي باتت تنذر بانفجار صراع مكشوف في الدولة التي كانت تواجه ظروفاً عصيبة، أصدر الشاه طهماسب أمراً بترحيل الشيخ الكركي مرة أخرى إلى النجف. وكان لابد أن يصاغ أمر ترحيل الشيخ الكركي ونفيه إلى النجف، بلغة دبلوماسية. فكانت الإشارة إلى "**صدور الرخصة لخاتم المجتهدين بالتوجه إلى عراق العرب**".(١)

وهكذا أبعدت السلطة الصفوية "خاتم المجتهدين" عن إيران، وفرضت عليه الإقامة الجبرية في النجف. وقد أشار الشيخ الكركي إلى تلك الحقيقة في مقدمة كتابه "قاطعة اللجاج في حل الخراج" إذ قال في مسألة إبعاده عن إيران وبلغة دبلوماسية مماثلة "**إنا لما ألزمنا الإقامة في بلاد العراق ...** ".

وهكذا عاش الشيخ علي الكركي بقية سنين حياته في النجف حتى وفاته في ١٨ ذي الحجة ٩٤٠هـ الموافق ١ تموز (يوليو) ١٥٣٤م. وهو العام الذي هاجمت فيه الجيوش العثمانية الدولة الصفوية، في حملتها الثانية بقيادة إبراهيم باشا اليوناني الأصل، واستولت على العاصمة تبريز في ١٣ تموز. وبعد ذلك زحفت تلك الجيوش نحو العراق واستولت على بغداد في ٣١ كانون ثاني (ديسمبر) أي بعد وفاة الشيخ الكركي بستة أشهر.

طهماسب والشيخ حسين الجباعي

في سنة ١٥٥٨م/٩٦٥هـ قتل الحكام العثمانيون في بلاد الشام، الفقيه الشيعي الكبير الشيخ زين الدين بن علي الجباعي (نسبة إلى قرية جباع في جبل عامل جنوب لبنان). بعد مقتل الشيخ زين الدين، الذي لقب بـ "الشهيد الثاني".

---

(١)جعفر المهاجر – الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي ص١٢٨

انفتح باب الهجرة العاملية من لبنان على مصراعيه، وانطلق رجال الدين الشيعة مخلفين وطنهم لبنان الذي سادت فيه موجة عاتية من الاضطهاد العثماني، واتجهوا إلى مختلف البلدان الإسلامية، كالهند والحجاز والبحرين والعراق وإيران. وكان طبيعياً أن يتجه أغلبهم إلى الدولة الصفوية الفتية في إيران. وكان من أبرز المهاجرين في تلك الفترة، الشيخ حسين بن عبد الصمد الجباعي، الذي كان أحد تلاميذ الشهيد الثاني.

هاجر الشيخ حسين إلى إيران واستقر في بادئ أمره في أصفهان، وبعد مرور حوالي ثلاث سنوات عينه الشاه طهماسب في سنة ١٥٦٠م شيخاً للإسلام في العاصمة قزوين.

ويشار إلى أن الشيخ حسين الجباعي اقتفى أثر الشيخ الكركي، وأبدى عناية فائقة في التدريس لتخريج أكبر عدد ممكن من الفقهاء المؤهلين، وقد وصف بأنه جدد قراءة كتب الحديث في إيران، وأنه أنشأ حوله حركة فكرية غير عادية خاصة في العاصمة قزوين، ومن بعد ذلك في مدينة مشهد الرضا في خراسان. ويستدل على ذلك من العدد الكبير لتلاميذه من العلماء المرموقين الذين تذكرهم كتب التراجم المعنية برجالات ذلك العصر. ومن المعروف أن الشاه طهماسب كان يؤمن بالشيخ الجباعي ويؤيد ما كان يقوم به من نشاطات دينية، بدليل أنه كان يحرص أن يحضر ولده محمد خدابنده مجلس الشيخ الجباعي لسماع دروسه ومواعظه، وأنه كتب إلى عامله في خراسان يأمره بتنفيذ فتاوى وأحكام الشيخ الجباعي. وفي إطار تلك العلاقة، يشار إلى أن الشيخ الجباعي سعى إلى إقامة صلاة الجمعة، كما كان الحال في أيام الشيخ الكركي قبل نفيه إلى النجف، وهذا يشير إلى إن الشيخ الجباعي رأى أن العدل قد تحقق بصدور أمر الشاه بتنفيذ أحكامه وفتاواه. لأن صلاة الجمعة عند الشيعة الإمامية، لا تجب إلا بشروط منها "السلطان العادل". ولكن تلك الأمور لم تستقم ولم تدم طويلاً إذ تعرض ذلك النهج إلى انتكاسة جديدة، تذكرنا بما حدث للشيخ الكركي. فقد صدر الأمر بنقل "شيخ

الإسلام" الشيخ حسين الجباعي، من مشهد الرضا المدينة المقدسة المهمة، إلى مدينة "هراة" البعيدة ذات الأكثرية السنية.

يبدو إن عملية إبعاد الشيخ الجباعي إلى هراة، انطوت على مجموعة من المعاني والأبعاد التي كانت تتفاعل في قلب ذلك الكيان الصفوي الذي كان يمر في أول مراحل تكوينه السياسي والفكري. ولا نريد هنا الدخول في تفاصيل الأحداث، ولكن لابد لنا أن نشير إلى أن إبعاد الشيخ الجباعي عن قلب الأحداث ومركز القرار ارتبط بموقف سياسي في جوهره وأداري في مظهره، رجحت فيه كفة أمراء العسكر القزلباش، الذين ضاقوا ذرعاً بتصاعد نفوذ فقيه آخر، بات يهدد سلطتهم ونفوذهم، بنفوذه الديني الذي برز تأثيره في إدارة الدولة. ويبدو إن الشاه طهماسب أضطر أن ينحني أمام العاصفة ويرضخ للضغوط التي تعرض لها من قبل تلك العناصر ومن لف لفها، ويأمر بأبعاد الشيخ الجباعي إلى هرات.

انتظر الشيخ الجباعي لفترة ريثما تهدأ الحملات التي أثيرت ضده، ولعله كان يتوقع تحسن الأمور. ولكن يبدو أن انتظاره طال، وفي سنة ١٥٧٥م استأذن الجباعي من الشاه، وشد الرحال إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، ولكنه لم يعد إلى إيران بعد ذلك بل ذهب إلى البحرين (أي بلاد الأحساء والقطيف) واستقر هناك. ومن البحرين بعث برسالة إلى ولده الشيخ بهاء الدين العاملي المعروف بـ"الشيخ البهائي" والذي بقى في إيران، يقول له فيها:

إن أردت الدنيا فارحل إلى الهند، وإن أردت الآخرة فاتبعني، وإن أردت لا دنيا ولا آخره فابقَ في أرض العجم.[(١)]

بهذه الكلمات الموجزة لخص لنا هذا الفقيه الشيعي الكبير، حالة الضياع الفكري والسياسي، التي كانت تعاني منها الدولة الصفوية، بعد مرور أكثر من سبعة عقود على تأسيسها.

---

(١) جعفر المهاجر – الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي ص١٤٩

حكومة ذي الفقار في بغداد

حينما تولى طهماسب العرش الصفوي كان والي بغداد من قبل الصفويين يدعى إبراهيم خان، وهو أحد أمراء قبيلة "موصلو" التركمانية. وفي إحدى حملات الشاه طهماسب العسكرية، استدعى الشاه والي بغداد إبراهيم خان للالتحاق به، فسار إبراهيم خان نحو إيران بنحو خمسة آلاف مقاتل من رجاله. وترك أخاه أمير خان نائباً عنه في بغداد. وفي أثناء مسيرته نحو الشاه، كمن له ابن أخ له طامع في الزعامة اسمه ذو الفقار، وهاجمه على حين غرة وقتله. ثم سار برجاله نحو بغداد وحاصرها، وبالنظر لقلة المدافعين عن بغداد، ركن عمه أمير خان إلى السلم وقبل بالمصالحة. ولكن بعد أن دخل ذو الفقار بغداد ودانت له الأمور، قتل عمه أمير خان وأولاده واستبد بحكومة بغداد.

أدرك ذو الفقار ضعف موقفه العسكري، وحاجته إلى قوة تحميه، من الدولة الصفوية، ولتأمين مثل تلك الحماية أعلن ولاءه للدولة العثمانية، وضرب النقود باسم السلطان سليمان الأول، وأرسل سفيراً لطلب الحماية.

غير أن الشاه طهماسب، أعد حال سماعه بما حدث لوالي بغداد إبراهيم خان ولأخيه أمير خان، حملة عسكرية كبيرة وأسرع نحو بغداد وحاصرها. ويقال بأن ذا الفقار قاوم بشدة عساكر القزلباش واستبسل في القتال ضدهم. غير أن الوضع العام لم يكن في صالحه. إذ تشير بعض المصادر بأن نقيب الأشراف السيد حسين بن السيد محمد كمونة، الذي كان يتمتع بنفوذ واسع في العراق، وقف ضد حكومة ذي الفقار.[1]

---

(١) عباس العزاوي- تاريخ العراق بين احتلالين ج٣ص٣٦٤

وفي أحد الأيام وبعد أن طالت أيام الحصار، عاد ذو الفقار إلى منزله لينال قسطاً من الراحة، فوثب عليه أخواه، علي بك وأحمد بك مع ثلة من أعوانهم وأردوه قتيلاً. ثم فتحوا أبواب بغداد أمام عساكر طهماسب.

بعد أن استولى الشاه طهماسب على بغداد، أعاد ترتيب حكومة العراق. فعين عدداً من أمراء القبائل التركمانية الشيعية في مختلف المناصب الإدارية في بغداد وخارجها. فمنح منصب حكومة بغداد إلى أمير تركماني يدعى محمد خان تكلو، وعين في كركوك صوفي كلهر، وفي لواء بندنجين غازي خان، وفي لواء واسط والجوازر في جنوب العراق قانصوه بك، وفي لواء الحلة سيد بك. وبعد أن أكمل ترتيب إدارة العراق عاد إلى قزوين. وقد استمرت ولاية محمد خان تكلو على بغداد إلى حين استيلاء الجيوش العثمانية عليها سنة ١٥٣٤م.

الباب الثاني

العراق والدولة العثمانية

١٥٣٤م _ ١٦٢٣م

الفصل الأول

عهد السلطان سليمان الأول

١٤٩٥م – ١٥٦٦م

ولد السلطان سليمان الأول في عصر كانت فيه أراضي الإمبراطورية العثمانية تمتد في الأقاليم المفتوحة من أوربا المسيحية، وكانت تلك الأقاليم الأوربية تمثل القسم الأعظم من الإمبراطورية. فمنذ تأسيس الدولة، اتجهت الطموحات العسكرية العثمانية بصورة عامة نحو الاستيلاء على أقاليم الإمبراطورية البيزنطية، في آسيا الصغرى والبر الأوربي، باعتبار أنها "بلاد كفر" و "دار حرب".

غير أن رجال الانقلاب العسكري الذي أطاح بجده السلطان المسالم بايزيد الثاني، غيروا اتجاه تلك الطموحات العسكرية العثمانية، ووجهوها نحو العالم الإسلامي والعربي.

بعد أن نصب رجال الانقلاب من أمراء الانكشارية، والده السلطان سليم الأول على العرش العثماني، زحفت الجيوش العثمانية باتجاه الشرق واخترقت الحدود التي كانت تاريخياً، تفصل الإمبراطورية العثمانية عن أقاليم إمبراطورية الآق قوينلو التركمانية، والتي أصبحت فيما بعد حدود الدولة الصفوية التي حلت محلها. وبعد معركة جالديران الشهيرة استولت الجيوش العثمانية على عاصمة الدولة تبريز، ثم حولت حروبها بعد ذلك نحو العالم العربي. فاستولت على بلاد

الشام ومصر وبعض مناطق شمال بلاد الرافدين. غير أن المنية وافت السلطان سليم الأول، قبل أن تتمكن المؤسسة العسكرية العثمانية من القضاء على دولة الشاه إسماعيل الصفوي، والاستيلاء على أقاليم ما كان يعرف بإمبراطورية الآق قوينلو، التي كانت تشمل أقاليم شبه القارة الإيرانية وبلاد الرافدين.

وفي خضم تلك الأحداث والتطورات ارتقى على العرش العثماني، السلطان سليمان الأول الذي يعد رسمياً السلطان العثماني العاشر.(١) كتب سفير البندقية عن السلطان الجديد فقال:

يبلغ السلطان سليمان ٢٥عاماً من العمر، وهو طويل القامة، له وجه دقيق بلحية صغيرة وشارب خفيف. ويقال إنه راجح العقل يحب الدرس والتعلم وله خبرة إدارية جيدة.

تلقى السلطان سليمان تعليمه في مدرسة السراي، ويقال أن عقيدته الإسلامية العميقة أسبغت على تصرفاته روحاً تجمع بين الطيبة والتسامح والجلد، على عكس والده الذي اشتهر بسلوكه العنيف وتعطشه لسفك الدماء.(٢)

ثورة في الشام

ما أن وصل خبر وفاة السلطان سليم إلى دمشق، حتى أعلن الغزالي حاكم الشام تمرده على الدولة، وبعث بقوة عسكرية للاستيلاء على حلب. وبالأثر زحف الجيش العثماني واستولى على حلب ثم زحف نحو دمشق واستولى عليها. وبعد مطاردة الغزالي تم القبض عليه وقتله.

---

(١) اعتبر بعض المؤرخين، سليمان هذا السلطان العثماني الحادي عشر ودعوه السلطان سليمان الثاني باعتبار أن سليمان الأول هو ابن بايزيد البكر الذي بويع سلطاناً في أدرنة سنة ١٤١٠م والذي قتله الانكشارية وقضوا على سلطنته لصالح أخيه الأصغر السلطان محمد الأول "أنظر الجزء الأول ص٢٧١ "

(٢) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P١٧٥

شنت الجيوش العثمانية بعد إخضاع حكومة الشام حرباً جديدة ضد مملكة المجر، واستولت في تلك الحرب على مدينة بلغراد. وبعد ذلك الانتصار، بدأت الاستعدادات العسكرية براً وبحراً لغزو جزيرة رودس، حيث تم الاستيلاء عليها في أوائل سنة ١٥٢٣م.

إبراهيم باشا

في صيف سنة ١٥٢٣م أصدر السلطان سليمان أمراً بتعيين إبراهيم باشا صدراً أعظم. وفي ربيع سنة ١٥٢٥ وبينما كان إبراهيم باشا في مصر، واجه السلطان تمرداً عسكرياً قام به العسكر الانكشاري. إذ هاجم أولئك العساكر سراي الصدر الأعظم ونهبوه. ثم انطلقوا يعيثون بالعاصمة نهباً وسلباً. وكان مما نهبوه قصور ومنازل الأعيان، وحارة اليهود ومستودعات دائرة الكمرك. ثم اقتحمت مجموعة منهم سراي السلطان نفسه، ويقال بأن السلطان سليمان شارك شخصياً في التصدي لهم وتمكن من قتل ثلاثة أفراد منهم. غير أن أولئك العساكر الثائرين أحاطوا بالسلطان والسلاح بأيديهم وهددوه بالقتل. مما اضطره إلى التراجع والركون إلى المصالحة. ولم تهدأ ثائرتهم إلا بعد أن وزع السلطان عليهم أموالاً طائلة. ولكن بعد أن هدأت الأوضاع وتمت السيطرة على الموقف، أمر السلطان بالقبض على قادة التمرد وقطع رؤوسهم.

بعد القضاء على ذلك التمرد، اسند السلطان إلى إبراهيم باشا، الذي كان يمسك بمنصب الصدر الأعظم، منصب القائد العام للجيوش العثمانية، وهو أعلى منصب عسكري بالدولة. وهكذا أصبح إبراهيم باشا، يمسك بأقوى وأعلى منصبين في الدولة، ويتمتع بسلطات تضاهي سلطات السلطان نفسه.

ولد إبراهيم باشا في إحدى جزر اليونان، من أب يوناني كان بحاراً. ويقال أن مولده كان في العام الذي ولد فيه السلطان سليمان. وفي أثناء طفولته اختطفه بعض القراصنة وباعوه في سوق النخاسة، فاشترته أرملة وقامت بتربيته وتعليمه.

وفي فترة الشباب التقى بالأمير سليمان الذي كان آنذاك ولياً للعهد، فأعجب سليمان بشخصية إبراهيم وذكائه، فاشتراه وألحقه بخدمته. وسرعان ما أصبح إبراهيم من أقرب خواص سيده سليمان. وحينما ارتقى سليمان العرش وانتقل إلى العاصمة اسطنبول، انتقل إبراهيم معه واستلم أحد المناصب الرفيعة في السراي. وفي غمرة العمل والخدمة بين يدي السلطان، كانت تتكشف مؤهلات إبراهيم وقدراته الفائقة في الإدارة والقيادة، وولاؤه العميق للسلطان الذي كان يبادله مشاعر الود والثقة العميقة. بعد مرور فترة من الزمن، أمر السلطان منح إبراهيم باشا جناحاً خاصاً للسكنى، داخل القصر، ليكون قريباً منه في جميع الأوقات.

وهكذا أصبح إبراهيم باشا أول صدر وقائد للجيش، يعيش مع السلطان تحت سقف واحد، ويقضي معه معظم أوقاته. وفي أثناء ذلك كانا يتباحثان كأقرب صديقين حميمين، في شؤون الدولة والأمور العامة الأخرى. وحينما حان وقت زواج إبراهيم باشا، وافق السلطان أن يزوجه إحدى أخواته، أي إحدى بنات السلطان سليم الأول. وبذلك أصبح إبراهيم باشا، أحد أفراد العائلة المالكة.

حدث كل ذلك، ولم يكن إبراهيم باشا قد تجاوز الثلاثينيات من عمره. ويقال أن ارتقاء إبراهيم باشا إلى تلك المقامات العالية أخذ يثير مخاوفه، وأنه صارح السلطان بذلك، وتضرع إليه أن لا يمنحه المزيد. بعد أن أثنى السلطان على تواضع إبراهيم، أقسم له أن لا يناله سوء والسلطان حي يرزق.

وهكذا وضع السلطان سليمان، مملوكه وصديقه الحميم إبراهيم باشا في أعلى منصب يلي مقامه، وجعل منه السيد المطلق المخول في إدارة شؤون الإمبراطورية. ومما كان يعزز مركز وسلطة إبراهيم باشا، هو طبيعة المؤسسة التي كانت تدير شؤون الإمبراطورية. فالمعلومات التاريخية تشير إلى أن الهيئات التي كانت تمسك بمقاليد الحكم، في عهد السلطان سليمان، والتي كانت تشمل المجموعات التالية:

١ ـ الرجال الذين كانوا يقومون بمختلف الخدمات في البلاط الإمبراطوري.

٢ ـ الوزراء وكبار المسؤولين في دوائر السلطة التنفيذية.

٣ ـ أغوات وأمراء مختلف رتب القوات المسلحة، وعلى رأسهم الانكشارية الذين كانوا يهيمنون على المؤسسة العسكرية في العاصمة، وباقي أنحاء الإمبراطورية.

٤ ـ رجال الدولة المنتشرون في مختلف أنحاء الإمبراطورية.

كان جميع أولئك الرجال من خريجي مدرسة السراي، ومماليك ينحدرون من أصول أوربية. أي انهم كانوا من الأطفال المخطوفين من المناطق المسيحية في الجانب الأوربي من الإمبراطورية العثمانية.

وقد كتب أحد السفراء الأوربيين في حينه عن تلك الظاهرة، فقال معلقاً:

كان أولئك الرجال يتباهون بقولهم أنهم "عبيد السلطان". إذ كان جلياً أن قولهم هذا يضعهم في إطار أعلى المقامات !. لأن السلطة في تلك الأيام كانت بيد أولئك المماليك، فهم العبيد والحكام في آن واحد !.

تلك كانت حقيقة تاريخية يعرفها الجميع، ويعلمون أن جل أولئك المماليك الحكام، كانوا من أصول أوربية مسيحية. فالحكومة العثمانية كانت في حقيقة أمرها حكومة مماليك. وفي عهد السلطان سليمان الأول، جلس إبراهيم باشا، الذي كان ينحدر من أصل يوناني، في قمة ذلك الهرم الحاكم.

الفصل الثاني

الحملة العسكرية على العراق

في ١٥أيار (مايو) من سنة ١٥٢٩م، خرج السلطان سليمان على رأس جيش كبير وسار نحو فيينا عاصمة الإمبراطورية النمساوية للاستيلاء عليها. وبعد مسيرة طويلة أخرتها غزارة الأمطار، وصلت الجيوش العثمانية أسوار فينا، في أواخر شهر أيلول (سبتمبر)، ولكن مدافعها الثقيلة تأخرت، ولم تصل في الوقت المناسب، بسبب غزارة الأمطار وكثرة الأوحال. مما اضطر الجيش العثماني إلى اللجوء إلى عمليات النسف بالبارود، بعد أن وجد أن المدافع الخفيفة المتوفرة، لم تؤثر في تحصينات المدينة.

بعد فشل جميع محاولات العثمانيين في اقتحام أسوار فيينا، أضطر السلطان سليمان إلى رفع الحصار والعودة إلى اسطنبول قبل حلول موسم الشتاء. وكانت تلك أول حملة عسكرية فاشلة، يقودها السلطان سليمان بهدف الاستيلاء على عاصمة الإمبراطورية النمساوية.

تعد فيينا من الناحية العسكرية، بوابة أوروبا الوسطى والغربية، وكان الاستيلاء عليها يعني، ليس القضاء على الإمبراطورية النمساوية فحسب، بل فتح الباب على مصراعيه، أمام الجيوش العثمانية لاكتساح وسط أوربا، ثم التقدم نحو نهر الراين، وبالتالي سقوط أوربا في قبضة العثمانيين. غير أن تأخر وصول الجيوش العثمانية بكامل مدافعها الثقيلة، منح ملوك وأمراء أوربا الوقت الكافي،

لإرسال النجدات اللازمة، مما ساعد الإمبراطور النمساوي على مضاعفة المدافعين عن عاصمته.

بعد مرور ثلاثة أعوام، وفي أواخر شهر نيسان (أبريل) سنة ١٥٣٢م جهز السلطان سليمان حملة عسكرية ثانية، سارت نحو فيينا بقصد الاستيلاء عليها، غير أن تلك الحملة عادت هي الأخرى أدراجها بدون تحقيق أهدافها.

إن فشل الجيوش العثمانية المتكرر، في اقتحام أسوار فيينا، أقنع المؤسسة العسكرية العثمانية، بعدم قدرتها على تحقيق المزيد من الفتوحات والتوسع في أوربا، وإن ذلك الواقع العسكري والسياسي، أحدث تحولاً أساسياً في العقيدة العسكرية العثمانية، التي فرضت عليها أوضاع أوربا الجديدة، تغيير توجهاتها العسكرية، والتحول في حروبها وفتوحاتها إلى العالمين العربي والإسلامي.

بعد مرور عام واحد على فشل تلك الحملة الأوربية ، وما يقارب العقدين من الزمن، على الحملة العسكرية العثمانية الأولى ضد الدولة الصفوية، بدأت استعدادات عثمانية جديدة، لشن حرب واسعة باتجاه الشرق، كان هدفها القضاء على الدولة الصفوية، وضم أقاليمها إلى الإمبراطورية العثمانية. ذلك المشروع العسكري الذي توقف، بعد وفاة السلطان سليم الأول، بسبب انشغال الدولة بأمور أخرى.

في هذه المرة أوكلت تلك المهمة بإبراهيم باشا، الذي سار على رأس الجيوش العثمانية نحو حلب. وفي ربيع سنة ١٥٣٤م باشر بالزحف نحو عاصمة الدولة الصفوية تبريز. حدث ذلك في عهد الشاه طهماسب بن الشاه إسماعيل، الذي تولى الحكم وهو في العاشرة من عمره، والذي دخلت في عهده الدولة الصفوية، مرحلة غياب القيادة القوية القادرة على الحفاظ على وحدة البلاد وقوتها. ولذا لم يكن أمام القيادة العسكرية الصفوية، سوى تحاشي الاصطدام بالجيوش العثمانية الزاحفة بمدافعها الجبارة.

قبل وصول الجيوش العثمانية، أخلى طهماسب مدينة تبريز وانسحب إلى مدينة سلطانية، التي تقع في منطقة المرتفعات جنوب بحر قزوين. وهكذا واصل إبراهيم باشا زحفه واستولى على تبريز بدون مقاومة تذكر. ثم بنى فيها قلعة وضع فيها حامية عسكرية من الانكشارية.

وبعد الاستيلاء على تبريز، وصل السلطان سليمان. ومن تبريز زحفت الجيوش العثمانية جنوباً نحو مدينة سلطانية، غير أن وعورة الطرق والمسالك عبر تلك المرتفعات، حالت دون مرور المدافع العثمانية الضخمة، وهي السلاح الفتاك الذي مكن العثمانيين من تدمير أقوى الجيوش. ولذا قررت القيادة العثمانية عدم مواصلة الزحف نحو سلطانية، لتفادي مواجهة جيش القزلباش الصفوي، من دون مدافعها الضخمة. بعد ذلك الفشل، قررت القيادة تغيير مسيرة تلك الحملة العسكرية الكبيرة، وتوجهت نحو بغداد.

الاستيلاء على بغداد

في بداية الزحف نحو بغداد، سار جيش عثماني بقيادة إبراهيم باشا واستولى على الموصل. وفي تلك العملية، اصطحب إبراهيم باشا معه أولامة بك، أحد أمراء قبيلة "تكلو" التركمانية الموالية للصفويين. كان أولامة بك حاكم تبريز، ومن الموالين للشاه طهماسب، ولكنه تحول في تلك الأيام إلى الجانب العثماني.

ومن الموصل أخذ أولامة بك يبعث بالرسائل إلى زعماء قبيلة "تكلو" يحثهم فيها على الخروج على الشاه طهماسب، والتحول إلى جانب العثمانيين، وتسليم بغداد للسلطان سليمان. ويقال إن رسائل أولامة بك كانت تجمع بين الترهيب والترغيب. ولكن بالرغم من تلك الرسائل، رفض والي بغداد التركماني محمد خان "تكلو" تسليم بغداد، وأخذ يستعد للحرب.

في أثناء ذلك ورد بغداد رسول من قبل الشاه طهماسب، طلب من الوالي محمد خان إخلاء بغداد والانسحاب مع رجال قبيلته إلى إيران. وحينما اجتمع

محمد خان برجال قبيلته للتشاور، عبر غالبيتهم عن رغبتهم في البقاء في بغداد، ولكن محمد خان هددهم بتخريب بيوتهم لإجبارهم على الرحيل معه. غير أن نقيب الأشراف السيد حسين ابن السيد محمد كمونة توسط في الأمر، وطلب من الوالي عدم إيذاء أفراد قبيلته، فأذعن محمد خان واستجاب لوساطة نقيب الأشراف. وحينما اقتربت طلائع الجيش العثماني من مشارف بغداد، عبر محمد خان تكلو نهر دجلة بمن تبعه من رجال التركمان وسار نحو الشاه طهماسب عن طريق البصرة. وبعد مرور بضعة أيام وصل موكب السلطان سليمان مرقد الإمام أبا حنيفة، فترجل وزار المرقد، ثم مضى نحو بغداد ودخلها في جمادى الأولى سنة ١٥٣٤م بدون حرب.

بعد الاستيلاء على بغداد، قام السلطان بزيارة المراقد المقدسة في العراق، فزار مدينة الكاظمية ثم توجه نحو كربلاء لزيارة مرقد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب. ومن كربلاء سار نحو النجف ماراً بالحلة والكوفة. ويقال إن السلطان سليمان ترجل، حينما شاهد عن بعد قبة المشهد العلوي تلوح في الأفق، وواصل السير على قدميه حتى المرقد الشريف.

أعمال السلطان في العراق

حينما شاهد السلطان سليمان، ما ناله مرقد الإمام أبي حنيفة من إهمال وخراب، أصدر أوامره بتعمير القبة وباقي أنحاء المرقد. وأقام دار ضيافة يقدم فيها الطعام للزوار الواردين. وبنى عمارة ومدرسة وحماماً وخاناً ونحو خمسين دكاناً. وشيد قلعة في الأطراف وضع فيها مدافع ومعدات حربية، وأسكن فيها ثلة عسكرية وأنشأ حولها بساتين وحدائق. وعلى هذا الأساس، فإن بعض المؤرخين ينسبون

تأسيس قصبة الأعظمية إلى السلطان سليمان الأول[1]. كما عمر السلطان في بغداد قبة الزاهد الصوفي الشيخ عبد القادر الكيلاني، وشيد تكية للصوفية وعمارة وعين لها أوقافاً.

بعد زيارة مرقدي الإمامين، موسى بن جعفر الكاظم، وحفيده محمد الجواد، أصدر السلطان سليمان فرماناً بمواصلة العمل الجاري في تشييد المرقدين، الذي بدأ في عهد الشاه إسماعيل الصفوي. فحينما زار الشاه إسماعيل الكاظمية، وجد أن بناية مرقدي الكاظم ومحمد الجواد قديمة وصغيرة، ولا تسع المصلين والزوار. فأمر بقلع العمارة القديمة، وتشييد عمارة أوسع. وأمر بتشييد أربع مآذن بدلاً من المئذنتين القديمتين، وتشييد مسجد كبير في الجهة الشمالية للحرم.

وحينما زار السلطان سليمان الكاظمية بعد حوالي ربع قرن من الزمن، وجد أن جميع الأعمال في هيكل الحرم وروضته والقبتين والمسجد قد أنجزت، بما في ذلك أعمال الرخام والقاشاني. بينما كان العمل قائماً، لإكمال تشييد المنائر الأربع الكبيرة، التي بلغت ارتفاعاً يعلو سطح الحرم بقليل. فأمر السلطان سليمان بالاستمرار بالعمل وإكمال تشييد المآذن. وأثناء ذلك أقر مرتبات وعطايا السدنة والمقيمين على خدمة المرقدين، على أن تدفع من خزانة بغداد.

وحينما زار السلطان سليمان مدينة كربلاء، وجد أن النهر القديم الذي يتفرع من الفرات ويجري نحو وادي كربلاء، قد انطمر مجراه وجفت المياه فيه. فأمر بإعادة حفر ذلك المجرى لإيصال المياه مرة أخرى إلى المدينة المقدسة. ويقال أن

---

(١) يرى فريق آخر من المؤرخين أن ما شيده السلطان سليمان لم يدم طويلاً وزال من الوجود. وأن المؤسس الحقيقي لقصبة الأعظمية هو السلطان مراد الرابع.

المهندسين الذين نفذوا المشروع، ادخلوا تعديلات مهمة على المجرى القديم مما سهل عملية جريان المياه في ذلك النهر.[1]

ولعل أهم إجراء إداري أنجز في العراق في عهد السلطان سليمان، هو وضع سجلات للأملاك والمقاطعات في العراق. إذ تم تأليف لجنة دونت في تلك السجلات، القرى والمزارع والمراعي والأراضي الأخرى. وأدرجت في تلك القيود كذلك، الأراضي الأميرية والمؤسسات الخيرية. ولكنها لم تدرج ملك الأفراد من المزارع والأملاك الخاصة.

وبعد أن أقام السلطان سليمان في بغداد نحو أربعة أشهر، عاد في الثاني من نيسان سنة ١٥٣٥م إلى تبريز، بعد أن ولّى على بغداد أحد أمراء العسكر الانكشاري يدعى سليمان باشا، وهو من أصل مجري. وترك معه قوة عسكرية انكشارية قوامها ألفا رجل.

نهاية إبراهيم باشا

بعد الاستيلاء على تبريز، قرر إبراهيم باشا أن يمنح نفسه لقب "سردار سلطان"، وهو لقب غريب لم يكن متداولاً في مناصب الدولة. ويقال إن اسكندر باشا وزير الخزانة، نهاه عن ذلك وحذره من العواقب، مما أغضب إبراهيم باشا. في منتصف الطريق نحو بغداد، قرر إبراهيم باشا عزل وزير الخزانة، وظل يوغر صدر السلطان ويحرضه على إعدام الوزير، بحجة أنه يتلاعب بأموال الدولة.

---

(١) عرف هذا النهر في التاريخ بأسماء متعددة منها "العلقمي" نسبة إلى أحد زعماء بني أسد الذي حفر ذلك النهر في أواخر العهد العباسي وهو جد وزير الخليفة المستعصم مؤيد الدين محمد ابن أحمد العلقمي الأسدي. و"الغازاني" نسبة إلى السلطان المغولي محمود غازان. ويبدو أن أعمال حفر ا ىرى وتطهيره جرت في العهد الصفوي أيام الشاه إسماعيل والشاه طهماسب. ولكن مشروع السلطان سليمان الأول كان أوسع وأتى بنتائج أفضل. ولذا سمي ذلك النهر بعد أن جرت المياه فيه بـ "السليماني". أما في الوقت الحاضر فإن ر كربلاء يعرف باسم "الحسينية".

وبعد الاستيلاء على بغداد أمر السلطان قتل وزير خزانته. ومما يذكر أن اسكندر باشا كتب في وصيته أنه برئ من التهم التي ألصقت به، وحذر السلطان من طموحات إبراهيم باشا التي تجاوزت كل الحدود. ويقال بأن السلطان اقتنع ببراءة اسكندر باشا وندم على قتله، وبعد ذلك أخذ يشك في نوايا إبراهيم باشا ويراقب تصرفاته، خاصة اتصالاته بممثلي الدول والملوك، بعد أن صدرت إليهم التعليمات، بأن يكون إبراهيم باشا أول من يقابلونه حين ورودهم العاصمة اسطنبول.

يبدو إن تصرفات إبراهيم باشا التي أخذت منحاً جديداً بعد فتح بغداد ومقتل الوزير اسكندر باشا، أخافت أصحاب المقامات العليا، فتحركت عدة أطراف للتخاص منه. وفي سنة ١٥٣٦م، أي بعد مرور نحو سنة من الاستيلاء على بغداد، أمر السلطان سليمان بقطع رأس إبراهيم باشا.

الوالي سليمان باشا

بعد الاستيلاء على بغداد وإعلانها ولاية عثمانية، أصدر السلطان أمراً بتعين سليمان باشا والياً عليها. كان سليمان باشا والياً على ديار بكر وشارك في الاستيلاء على بغداد، وهو مجري الأصل أسلم بعد انخراطه في صفوف العسكر الانكشاري. ولكن أيام هذا الولي في بغداد لم تطل، لأن سياسة الدولة في عهد السلطان سليمان كانت، عدم الإبقاء على الوالي مدة طويلة، لكي لا يحول الولاية إقطاعا له، ويتمرد على الدولة، ولذا جرى نقله بعد أقل من سنتين. وبعده توالى على بغداد عدد من الولاة حكموا فيها لفترات قصيرة، لم يأتوا أثناءها بشيء يستحق الذكر حتى أن السجلات لم تحفظ أسماء أغلبهم. واستمر ذلك الحال سنوات عديدة، حتى ولاية آياس باشا في سنة ١٥٤٦م. وآياس باشا هذا ألباني الأصل من "الأرناؤط" تخرج في البلاط العثماني ونال درجة أمير الأمراء (بكلربكي). وهو الوالي الذي قاد الحملة العسكرية العثمانية التي أسقطت حكومة عرب العراق في البصرة.

الفصل الثالث

القضاء على حكومة عرب العراق في البصرة

بعد الاستيلاء على بغداد اتجهت أطماع المؤسسة العسكرية العثمانية نحو جنوب العراق. وذلك للاستحواذ على خيراته الزراعية، وللوصول إلى مياه الخليج، بهدف السيطرة على خطوط التجارة العالمية في البحار الجنوبية، التي كان البرتغاليون يسيطرون عليها آنذاك. ولتحقيق ذلك كان لابد من السيطرة على البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي.

صدرت الأوامر إلى والي مصر سليمان باشا، لبناء أسطول عثماني في ميناء السويس على البحر الأحمر للقيام بتلك المهمة. وقد أنجز الوالي ذلك، وشيد أسطولاً كبيراً مؤلفاً من سبعين سفينة مجهزة بالمدافع الضخمة. وفي سنة ١٥٣٨م، أبحر سليمان باشا بذلك الأسطول، ومعه ما يزيد عن عشرين ألف عسكري، واستولى على ميناء عدن في أقصى جنوب غرب شبه الجزيرة العربية. ثم سار نحو عمان واستولى على مسقط، وحاصر جزيرة هرمز عند مدخل الخليج الفارسي. وهكذا سيطر العثمانيون على مدخل البحر الأحمر ومدخل الخليج الذي يؤدي إلى ميناء البصرة.

ثم أبحر الأسطول العثماني، نحو سواحل الهند واستولى على عدد من الحصون التي أقامها البرتغاليون على ساحل كجورات شمال ميناء بومبي. ثم عاد إلى عدن وأكمل احتلال بلاد اليمن، التي جرى إلحاقها بالإمبراطورية العثمانية.

بعد أن أحكم العثمانيون سيطرتهم على البحار الجنوبية، وعلى ممراتها البحرية بين الشرق والغرب، صدرت في سنة ١٥٤٦م الأوامر إلى آياس باشا والي بغداد، للزحف نحو البصرة للاستيلاء عليها، والقضاء على حكومة عرب العراق هناك.

خرج آياس باشا من بغداد على رأس الجيش العثماني وسار جنوباً بمحاذاة نهر الفرات، وفي طريقه مر بالنجف لزيارة مشهد الإمام علي بن أبي طالب. وبعد أن تجاوز الجيش مناطق الفرات الأوسط اقترب من ديار قبيلة قشعم.

تذكر بعض المصادر، أن قشعم هو ربيعة بن نزار وعليه فهم من العدنانيين، بينما تذكر مصادر أخرى أنهم من القحطانيين. ويقال أن قشعم كانت رئاسة بدوية تجمع عدداً من العشائر، وبعد أن استقرت أغلب تلك العشائر في أرياف الفرات واستوطنت للزراعة، ضعفت علاقة رئاستها البدوية بتلك العشائر. وفي عهد ضعفها، انضمت قشعم إلى أحلاف المنتفك، وكانت ديارها تمثل الإمتدادات الشمالية لذلك الحلف العشائري.

تصدى رجال قشعم للجيش العثماني، ونشبت معركة دامية بين الطرفين انتهت بانتصار العسكر العثماني. بعد انتهاء المعركة والاستيلاء على ديار قشعم، قتل آياس باشا رئيس تلك القبيلة وعدداً كبيراً من رجاله. وحينما رأت قبائل المنتفك ما حل بقبيلة قشعم، انسحبت من مدينة البصرة وانتشرت في مختلف أهوار الجنوب. أعلن آياس بعد سقوط البصرة بيد العسكر العثماني، باشا إلغاء حكومتها العربية، وإلحاق جنوب العراق بالإدارة العثمانية. ثم فرض نظام الضرائب العثماني على السكان.

ثورات عرب الأهوار

بعد ثلاثة أعوام تقريباً من إسقاط حكومة عرب العراق في البصرة، وفي سنة ١٥٤٩م أعلنت العشائر العراقية في أهوار الجنوب، الثورة ضد السلطة

العثمانية، وحاصرت مدينة البصرة وقطعت الطرق المؤدية إليها. ولقمع تلك الثورة الشعبية، أصدر السلطان سليمان أمراً إلى والي بغداد، بتجهيز حملة عسكرية والزحف بها نحو الجنوب.

جهز الوالي عساكر الانكشارية مع قوة نهرية كبيرة، وسار نحو مدينة واسط على نهر دجلة، وهناك استقبله أمير لوائها وانضم بعساكره إلى الحملة. وسارت الجيوش العثمانية بمحاذاة النهر، حتى وصلت المدَينة (بالتصغير) التي كانت مستقر حكام الجزائر آل عليان وهم من أمراء طي. وهناك اشتبكت برجال القبائل حيث نشبت معركة دامية تكبد فيها رجال القبائل العربية خسائر كبيرة. بالرغم من تلك الخسائر، عاد رجال القبائل العربية ليلاً وهاجموا العسكر العثماني، واستمر القتال الشديد طوال الليل. وعند الصباح الباكر كرر رجال القبائل هجومهم ودارت بين الطرفين معارك طاحنة أشد هولاً. أشار العزاوي إلى تلك المعركة بقوله:

... وفي اليوم التالي بادروا صباحاً للدخول في معركة أخرى فكان الهول أكبر وقتلت نفوس كثيرة بصورة مرعبة. وفي هذه المرة نالهم ما نالهم في الأولى، فهرب أمير المدَينة ولم يطق البقاء. هذا ما قالوه وليس هناك قطع سبل، وإنما هو جدال عن حياة ودفاع عن استقلال أرادت الدولة القضاء عليه.

وهكذا سحق التفوق العسكري العثماني، مقاومة عشائر أهوار العراق التي تكبدت خسائر فادحة دفاعاً عن أرضها واستقلالها.

بالرغم من نتيجة تلك الحرب، لم تستسلم العشائر العراقية، بل استمرت في منازلة العسكر العثماني والتصدي له في أعماق تلك الأهوار المنيعة، وقد استمرت تلك المقاومة سنين طويلة. قال العزاوي نقلاً عن بعض المصادر:

بعد هذه المعارك وفي خلال سنة ٩٥٧هـ (١٥٥٠م) دخلت المدَينة في حوزة القائد الوزير، ولكن أطرافها لا تزال مأهولة بالعربان فلم يذعنوا بالطاعة واستمروا في الكفاح ... .[١]

في عهد السلطان سليم الثاني، انفجرت في سنة ١٥٦٧م ثورة شعبية أخرى في أهوار الجنوب بقيادة ابن عليان. وقد تمكن الثوار أثناءها، من إنزال خسائر

(١) عباس العزاوي- تاريخ العراق بين احتلالين ج٤ص٥٦

فادحة بالقوات العثمانية وممتلكاتها. ومن الجدير بالملاحظة، أن العثمانيين كانوا يطلقون على مناطق الأهوار، أسم بلاد "المشعشع". ولقمع تلك الثورة، جهزت الحكومة حملة عسكرية كبيرة بقيادة اسكندر باشا الشركسي الأصل.

بدأ ذلك الباشا الانكشاري حربه ضد الثوار العرب بحملة تهديد ووعيد واسعة، متهماً العشائر العراقية بالفسق والفجور والبدع، كما جرت عادة العثمانيين في حروبهم العدوانية ضد الشعوب التي كانت تدافع عن أرضها واستقلالها. ولكن زعيم الثورة الأمير ابن عليان، رد على تهديدات واتهامات الوالي. ومما جاء في رده:

... فنحن إن عشنا سعداء، وإن متنا شهداء. فنحن المقربون بولاية علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، خليفة رسول الله رب العالمين. فنحن والله الشيعة المؤمنون (إلا أن حزب الله هم الغالبون)، تريدون منا الطاعة، لا سمعاً ولا طاعة... .[1]

وبهذا الصدد كتب عباس العزاوي عن أوضاع عرب العراق وحروب العثمانيين ضدهم في تلك الأيام فقال:

... كان ولاة بغداد والبصرة يقسون عليهم في التكاليف الشاقة التي لا تطاق. وقبل سنة ٩٧٤هـ (١٥٦٦م) ثاروا عليها مراراً بمن معهم من العشائر فأحدثوا أضراراً كبرى في الممالك المجاورة لهم مما يعود تصرفه للحكومة، فسيرت عليهم الدولة ألفين من الينكجرية (الانكشارية) وما يكفي من المدفعية والعرباتية وجعل اسكندر باشا قائد الحملة ومعه ولاة شهرزور والبصرة والأمراء الذين اختارهم من الأكراد ... جهزهم جميعاً فتقدموا على تلك النواحي والقرى فأشعلوا فيها نيران النهب والغارة ....

---

(١) أنظر نص الرد في كتاب زهر الربيع للسيد نعمة الله الجزائري ج٢ ص١٢٦-١٢٩ المطبعة الحيدرية – النجف الأشرف

وسرد لنا العزاوي مزيداً من التفاصيل، نقلاً عن تحفة الكبار في أسفار البحار فقال:[1]

... إن أنحاء واسط كانت ولا تزال تقطنها العشائر، وإن ابن عليان يتولى رئاستها منذ أمد، وكان يبدي الطاعة مرة ويعصي أخرى، وبعد جلوس السلطان سليم الثاني أظهر ابن عليان العصيان. وكان قد ولّى بغداد اسكندر باشا الشركسي الذي هو عارف بتلك الأنحاء، كان أمير أمراء ديار بكر لمدة خمس عشرة سنة. فاختارته الدولة للقيام بهذه المهمة، ودفع الغائلة التي قام بها ابن عليان، وعهد إلى مظفر باشا بأيالة شهرزور فأمر أن يلحق به عسكر الأكراد، وعهدت القبطانية إلى جانبلاد بك متصرف (كلس).

وفي معبر الفرات عند بيره جك تداركت الحكومة ٤٥٠ سفينة جعلتها أسطولاً مائياً حسب الفرمان الصادر، وجهزت ألفين من الينكجرية ومائتين من المدفعية، كما أن الأمير المزبور جهز جيشاً من العرب والأكراد هناك يبلغ ستة آلاف ليكون في هذه الحملة، فوضعت المهمات والمعدات في السفن المذكورة وسارت في ٤ المحرم سنة ٩٧٥هـ / ١٥٦٧م. نهض الجيش والأسطول من بيره جك فوصل إلى بالس، وبعد الاستراحة يوماً أو يومين مضوا في طريقهم فمروا بالرقّة، وعانة والفلوجة، وفي الفلوجة هذه استراحوا بضعة أيام. ثم مضوا في طريقهم إلى الحلة، وهناك أقاموا مدة شهرين للإستراحة بأمل أن يزول الحر ويحل زمن البرد.

ومن جهة أخرى أن الوالي اسكندر باشا كان قائد القوى البرية، فنهض من بغداد أيضاً وسار في طريقه للمحل المطلوب. أما الأسطول فقد تحرك من الحلة إلى لواء الرماحية والسماوة وفي طريقه مر بنهر (أبو كلبين)، اجتاز من صدره ومن هناك مضوا حتى وصلوا إلى ملتقى النهرين دجلة والفرات، جاءوا إلى محل

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٤ص١٠٧

في رأس الجزائر يقال له (صدر الدار)، والعشائر هناك حاولوا الدفاع، واتخذوا متاريس، ولكنهم حينما رأوا الأسطول تركوها ومضوا إلى جهتهم. وكانوا قد ذهبوا إلى جزائر الشاب (الرز) في أسفل من هذه.

ومن ثم اجتاز الجيش بسهولة ولم يدخل حرباً. فاتصلوا حينئذ بجيش اسكندر باشا قرب قلعة (زرتوك)، وهناك وافت نحو ١٥٠ سفينة فالتحقت بالأسطول أيضاً أتت من بغداد عن طريق دجلة، ومن هناك مضوا إلى الداخل إلى صدر الدار، وبنوا قلعتين متقابلتين في كل جانب ووضعوا بهما قوة، ثم مضوا إلى قرب زرتوك فبنوا قلعتين أخريين كل واحدة بجانب وهكذا مضوا إلى جزيرة مشهورة يقال لها (صدر البحران)، وهناك تجمعت الجيوش العربية ووضعوا المتاريس فيها، ومن ثم وبلا توقف باشروا الحرب، ومن قواد الجيش جانبولاد تمكن من الوصول إلى الساحل، هاجم هؤلاء ببسالة فكان إقدامه مشكوراً مما أدى إلى انتصاره وتبعثر جيش العرب، وقتل منهم ما لا يعد من النفوس، وكذا مات في هذه الحرب جملة من رجال الترك المشاهير. وبعد أن تمت الهزيمة بنيت قلاع متقابلة أيضاً. وفي هذه المواطن لا يظهر البرد وفي أكثر الجزائر نشاهد القلاع مبنية مثل هذه. ولكن الحرب لم تنقطع مع العرب بل بقيت مستمرة لا هوادة فيها. ولما كانت عيشة العشائر على النخيل وما يتحصل منها، اضطرت القوة إلى قطع هذه النخيل جميعها، وبذلك أذعنوا وقدموا الطاعة فأظهروا أنهم يسالمون الحكومة، ولكن لا ثبات في أقوالهم ... كانت الهجومات والحروب تتكرر بعد ذلك من الطرفين ووقعت حروب دامية جداً، فانفل جيش العرب وقتل أكثرهم ...

ومما يلفت النظر أن العثمانيين، أثناء حروبهم ضد عرب العراق، توسعوا في حملاتهم الدعائية، وأخذوا يصبون اتهاماتهم وشتائمهم ضد عرب العراق ويضعونها في قوالب دينية، هكذا كان ديدن المؤسسة العسكرية العثمانية التي كانت تسبغ على حروبها ضد الشعوب طابعاً دينياً وذلك لتغطية أهدافها العدوانية. إذ كانت تكيل التهم للذين كانت تقتلهم وتحرق مزارعهم وقراهم وتستبيح حرماتهم،

باعتبار أنهم مارقون أصحاب بدع، وخارجون عن طاعة السلطان خليفة المسلمين. تحت مثل تلك الظروف قدر لعرب العراق أن يعيشوا في ظل الحكم العثماني، الذي قضى على حكومة المنتفك في البصرة، وبسط سلطته على البلاد.

الفصل الرابع

الحملة العسكرية الثالثة ومعاهدة أرضروم

في سنة ١٥٥٢م، هاجمت الجيوش العثمانية بلاد المجر، وتمكنت من الاستيلاء على عدد من الحصون وعلى مساحات واسعة من الأرض. غير أن ذلك التقدم توقف عند مدينة "ادلو" الواقعة شمال شرق بودا، حيث استعصت تلك المدينة على الجيوش العثمانية. وبعد حصار طويل، اضطر العثمانيون إلى الانسحاب والدخول في مفاوضات للسلام.

بعد تلك الحملة الفاشلة، بدأت الاستعدادات العسكرية لشن حرب جديدة ضد الدولة الصفوية، وذلك لأن الشاه طهماسب انتهز فرصة انشغال العثمانيين في الحروب على جبهات أوربا، فشن هجوماً مباغتاً، تعرضت فيه القوات العثمانية إلى سلسلة من الهزائم انتهت باستيلاء الصفويين على مدينة أرضروم، وطرد القوات العثمانية من مناطق أخرى. بعد تلك الانتصارات الصفوية، انتشرت إشاعات تقول إن الصفويين سيطروا على ممرات جبال طوروس، وان جيوشهم باتت تهدد بلاد الشام.

لمواجهة تلك التطورات شن السلطان سليمان حملته الثالثة، التي قدر لها أن تكون الأخيرة ضد الدولة الصفوية، وأن تكون السبب في تعرض عرش آل عثمان لمؤامرة خطيرة حيكت خيوطها داخل الحرم السلطاني.

الجارية روكسلان وعرش آل عثمان

رزق السلطان سليمان بأربعة أولاد هم : مصطفى وسليم وبايزيد وجهانكير. وكان مصطفى أكبر أولاد السلطان، شاباً وسيماً قوياً معروفاً بشجاعته وفروسيته، وميله للأدب والشعر، ومجالسة رجال العلم والأدب. إضافة إلى ذلك، كان محبوباً في الأوساط العسكرية، لشجاعته وبلائه الحسن في الحروب. ولذا كان طبيعياً أن يتوقع الجميع، ارتقاء الأمير مصطفى عرش آل عثمان بعد أبيه السلطان سليمان الأول، وأن يكون سلطاناً مؤهلاً لقيادة الدولة، والسير بها على الطريق الذي سار عليه والده.

غير أن الأقدار شاءت أن تكيد لهذا الأمير الشاب، امرأة كانت تجمع بين الفتنة والجمال، والأنانية وحب التسلط، والاستحواذ على كل شئ عن طريق الدس والتآمر. تلك كانت محظية السلطان سليمان المدعوة روكسلان.

كانت روكسلان من سبايا الحروب، ويقال إنها ابنة كاهن روسي في غاليسيا، وقد انتهى بها المطاف في قصر السلطان، الذي أعجب بجمالها فضمها إلى الحريم. ويبدو أن روكسلان الروسية فتنت السلطان بجمالها، وأسرته بجاذبيتها فأصبحت محظيته المفضلة وحلت محل محظيته المفضلة الأولى (كلبهار) أم ولده البكر الأمير مصطفى.

وحينما رزقت روكسلان بولدها البكر سليم، عقدت العزم على بذل ما بوسعها من جهد في سبيل أن يؤول عرش آل عثمان إلى ولدها سليم، بالرغم من أنه اصغر من أخيه مصطفى ابن كلبهار. ويبدو أن عوامل عديدة متشابكة ساهمت في دفع روكسلان لسلوك ذلك الطريق المحفوف بالمخاطر. وفي الغالب فإنها كانت تحاول إبعاد شبح الموت عن ولدها سليم، الذي كان سيواجه الموت بعد وفاة والده السلطان، وتولي العرش ابنه البكر مصطفى. فكما جرت العادة في انتقال العرش العثماني، كان الانكشارية يقتلون باقي أولاد السلطان ويدفنونهم مع آبائهم. ثم إن

ارتقاء سليم عرش آل عثمان، كان سيفتح لها طريق المجد، ويضمن لها مقام "السلطانة الوالدة".

أدركت روكسلان بأن ارتقاء ولدها سليم العرش، يعني التخلص أولاً من أخيه الأكبر مصطفى ابن كلبهار. وهكذا أخذت تحيك بصمت وروية، الدسائس للتخلص من الأمير مصطفى. وبعد مرور سبعة أعوام من إعدام إبراهيم باشا، تمكنت روكسلان من التأثير على السلطان سليمان، فعين رستم باشا البلغاري الأصل لمنصب الصدارة، وبذلك بلغت روكسلان أوج قوتها ونفوذها. لأن رستم باشا كان زوج ابنتها، وطوع بنانها.

وفي أيام صدارة رستم باشا، قررت المؤسسة العسكرية العثمانية شن الحرب ضد الدولة الصفوية. ولما كان السلطان سليمان قد قارب الستين من عمره، ارتأى أن لا يتجشم عناء قيادة تلك الحملة، بل عين لقيادتها الصدر الأعظم، وزوج ابنته من روكسلان رستم باشا. ويبدو أن روكسلان شعرت أن ساعة الحسم قد حانت، وأنها بحثت الأمر مع رستم باشا. ولابد أن رستم باشا ترك اسطنبول وهو يحمل تعليمات من روكسلان تقضي بالتخلص من الأمير مصطفى بأي صورة كانت، وحسب خطة محبوكة. ومما يعزز هذا الرأي أن رستم باشا باشر في تطبيق تلك الخطة بعد مغادرته اسطنبول.

في أثناء مسيرة الجيش نحو الجبهة، بعث رستم باشا كتاباً سرياً إلى السلطان سليمان يقول له فيه:

إن العسكر الانكشاري متذمر ويرفض مواصلة الزحف نحو الجبهة تحت قيادته والغالبية تقول، إذا كان السلطان عاجزاً لكبر سنه عن قيادتهم، فالأجدر به أن يسلم قيادة الجيوش إلى ولده الأمير مصطفى...!.

وتشير الأخبار بأن رستم باشا ذكر في رسالته للسلطان، أن الانكشارية يتوددون إلى الأمير مصطفى، ولا يخفون حبهم وتعلقهم به. ولمح له بأنه يتخوف من وجود تآمر يجري في الخفاء ضد السلطان، وإن الأمير مصطفى ضالع في ذلك التآمر، بدليل أنه يتجاوب مع تحركات الانكشارية المشبوهة...!. وتوسل إلى

السلطان، أن يحضر بنفسه وعلى وجه السرعة لإنقاذ عرشه، لأن الأمر خرج من يديه.

ويقال بأن روكسلان لعبت دورها في إثارة هواجس وشكوك السلطان سليمان، وأثارت في نفسه ذكريات تآمر والده السلطان سليم الأول، مع أمراء الانكشارية ضد السلطان بايزيد الثاني. يبدو إن المؤامرة انطلت على السلطان سليمان، فقرر التحرك فوراً نحو الجبهة ليتولى قيادة الجيش، ويحسم الأمر مع ولده مصطفى.

سار السلطان على عجل، وحال وصوله مقر القيادة، استدعى ولده الأمير مصطفى، الذي كان لا يزال في مقره في ولاية أماسيا. وحينما استلم مصطفى أمر والده السلطان قرر التوجه إليه. ويقال بأن خواص ومحبي الأمير الشاب نصحوه، وتوسلوا إليه أن يؤجل سفره، ريثما يهدأ والده السلطان من حالة الهياج التي كان عليها. ولكن الأمير مصطفى شعر بأنه يقف أمام خيارين، فإما عصيان والده السلطان وتجنب المكروه، أو الذهاب لإثبات براءته.

اختار مصطفى الطريق الشجاع المحفوف بالمخاطر، وقرر الذهاب والمثول بين يدي والده السلطان. وقال لأصدقائه، إذا كان علي أن أسلم الروح، فإني افضل أن أسلمها لوالدي.

وصل موكب الأمير الشاب مقر القيادة فحف به الوزراء وأمراء الجيش، واستقبله العسكر بالتهليل والهتاف. وبعد أن سلم الجميع عليه توجه الأمير مصطفى إلى سرادق السلطان. وحينما دخل مصطفى السرادق الكبير وجده خالياً من الحرس. ومنه دخل مصطفى الخيمة الداخلية حيث مجلس والده السلطان، وهناك وجد بانتظاره فريقاً خاصاً من الرجال الأشداء الغير مسلحين. وما أن دخل الأمير الشاب الخيمة، حتى انقض عليه أولئك الرجال الأشداء وحاولوا إلقاءه أرضاً. ولكن مصطفى الشاب القوي، أبدى مقاومة أذهلتهم، وكاد أن يتخلص من قبضاتهم ويهرب إلى خارج السرادق، الذي كانت تحيط به جموع العسكر الانكشاري. في

تلك اللحظة خرج السلطان الذي كان يراقب العملية من وراء الستار، وأخذ يصرخ بأولئك الرجال ويعنفهم ويأمرهم بإبداء الشدة لإنجاز مهمتهم !. فعاود أولئك الرجال الكرة، وألقوا بأنفسهم على مصطفى، وتمكنوا في هذه المرة من طرحه على الأرض، ثم أمسكوا بخناقه حتى كتموا أنفاسه، ولم يتركوه حتى أصبح جثة هامدة.

في تلك الأثناء كان الوزراء والأمراء وجموع العساكر، ينتظرون في الخارج نتيجة مقابلة الأمير مصطفى مع والده السلطان. لقد صعق الجميع حينما شاهدوا رجال السلطان، يخرجون من السرادق وهم يحملون بساطاً وضعوه أمام الباب وعليه جثة الأمير الشاب.

ما أن شاهد الرجال ذلك المنظر المفجع، حتى ساد الهياج والحزن والبكاء. وثار العسكر الانكشاري وطالبوا السلطان بقتل الصدر الأعظم رستم باشا، فالكل كان يرى أنه مدبر تلك الدسيسة. ولتهدئة العسكر اضطر السلطان سليمان عزل نسيبه رستم باشا، وتسفيره على عجل إلى اسطنبول.

بعد مقتل الأمير مصطفى، أمر السلطان بقتل بن مصطفى الرضيع، الذي كان في مدينة بورصا. أشار الأستاذ محمد فريد إلى ذلك الحدث فكتب :

... وكانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء في تاريخ السلطان سليمان ... ولولا دسيسة هذه المرأة الأجنبية، لبقي اسمه لا تشوبه شائبة ... ولم تكتف هذه المرأة البربرية الطباع بقتل مصطفى ابن السلطان بل أرسلت إلى مدينة بورصا من قتل ابنه الرضيع.(١)

يبدو أن مقتل الأمير مصطفى هز كيان العائلة الملكية، إذ يقال إن ابن السلطان الأصغر جهانكير كان شديد التعلق بأخيه مصطفى، وكان معتلاً ضعيف البنية، فأخذت حالته الصحية تسوء من شدة الحزن على أخيه المغدور مصطفى، حتى وافته المنية بعد فترة قصيرة. وقد أشيع بعد وفاته، بأن جهانكير اطلع على بعض أسرار تلك المكيدة التي دبرتها أمه روكسلان، ضد أخيه مصطفى، فحضر

---

(١) محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٤٦

أمام والده السلطان وهو يجهش بالبكاء، وبعد أن وبخ والده على تلك الفعلة، أخرج سلاحاً وانتحر به.

بعد وفاة جهانكير، لم يبق للسلطان سوى ولدين هما سليم وبايزيد. ويقال بأن بايزيد كان يحمل الكثير من صفات أخيه مصطفى، منها رجاحة عقله وشجاعته واستقامة أخلاقه. وكان يبدو مؤهلاً للحكم أكثر من أخيه سليم، بالرغم من أنه الأصغر في السن. ولذا تحولت أنظار رجال الدولة نحو الأمير بايزيد، في مسألة وراثة العرش.

ولكن بعد مدة، وبسبب مقتل الأمير مصطفى، توترت العلاقات بين الأخوين سليم وبايزيد. وبمرور الأيام تفاقم الوضع وتحول إلى عداء سافر بينهما خاصة بعد وفاة أمهما روكسلان، التي وافتها المنية بعد ثلاثة أعوام من مقتل مصطفى. وقد بلغت العداوة بين الأخوين حداً، اضطر السلطان أن يفرق بينهما، فعين كل واحد منهما والياً بعيداً عن الآخر. غير أن العداء ظل يتفاقم ويزداد سوءاً بين الأخوين حتى بلغ حد المجابهة العسكرية، وتبادل الرسائل العدائية. ويقال إن سليم حمل إلى والده السلطان رسالة بعث بها إليه بايزيد، وردت فيها عبارات بدت وكأنها تعريض بوالده السلطان. مما أثار غضب السلطان سليمان، فبعث إلى ولده بايزيد خطاباً شديد اللهجة يأمره فيه بترك مقر إمارته في قونية والتوجه إلى إمارة أماسيا، ولكن بايزيد رفض الانصياع لأمر والده، خوفاً من الغدر به كما حدث لأخيه مصطفى. وهكذا بدأت فتنة أخرى.

جهز السلطان سليمان جيشاً كبيراً بقيادة الوزير محمد باشا صقللي وهو سلافي من البشناق (البوسنة)، وسيره لقتال ولده الأمير بايزيد. ومن جهته حشد بايزيد جيشاً من فرسان تركمان الأناضول، يقال إن أعداده فاقت العشرين ألف مقاتل. وفي سنة ١٥٦١م التقى الجيشان بالقرب من قونية، ونشبت بين الطرفين معركة طاحنة انتهت بانتصار جيش السلطان. مما اضطر بايزيد إلى الانسحاب

بمن تبقى من جيشه، والدخول إلى أراضي الدولة الصفوية. وبعد عبوره الحدود طلب دخالة الشاه طهماسب بن الشاه إسماعيل الصفوي.

استقبل الشاه طهماسب، الأمير بايزيد بمراسم فخمة تليق بابن السلطان العثماني، وبادله بايزيد الود وقدم للشاه هدايا فاخرة، من ضمنها خمسون جواداً مطهماً من خيرة جياد الأناضول. ثم قدم فرسانه عرضاً أمام الشاه، شمل ضروباً بارعة من فنون الفروسية التي اشتهر بها فرسان الأناضول، والتي نالت إعجاب فرسان القزلباش، الذين هم أيضا من فرسان التركمان الذين اشتهروا بمثل تلك الفنون.

كتب السلطان سليمان إلى الشاه طهماسب يطلب منه تسليم ولده بايزيد وأبنائه لقتلهم، ولكن الشاه طهماسب رفض طلب السلطان. غير أن المراسلات بهذا الشأن بين الطرفين ظلت مستمرة. وبمرور الأيام ازدادت بعثات السلطان سليمان، واشتدت ضغوطه على الشاه طهماسب إلى حد التهديد بالحرب. وفي نهاية المطاف اضطر طهماسب إلى القبول بحل وسط، حفاظاً على العلاقة السلمية بين الدولتين. وبموجب ذلك الحل، وافق طهماسب على أن يستقبل هيئة قضائية عثمانية، تقوم بمحاكمة بايزيد وأبنائه على الأراضي الصفوية، لتقرر ما يستحقونه من عقاب.

بعد أن تسلمت الهيئة القضائية العثمانية، الأمير بايزيد وأبناءه، سلمهم رئيس الهيئة إلى مجموعة من الرجال الذين كانوا ضمن بعثة السلطان، ويبدو أنهم كانوا جلادين مدربين، فانقضوا على الأمير بايزيد ومسكوا بخناقه ولم يتركوه حتى أصبح جثة هامدة. ثم أمسكوا بأبنائه الأربعة، وكتموا أنفاسهم الواحد تلو الآخر بنفس الطريقة.

لم يبق من أبناء بايزيد سوى طفل لم يتجاوز الثالثة من عمره، كان قد تركه والده في بورصة العاصمة القديمة. فبعث السلطان سليمان إلى بورصة، رجالاً قاموا بخنق ذلك الطفل ودفنوه مع والده وبقية اخوته.

معاهدة أرضروم ١٥٥٥م

في بداية ربيع سنة ١٥٥٤م خرجت جيوش عثمانية من حلب، وزحفت نحو الشرق واستولت على مدينة أرضروم، ثم اجتازت نهر الفرات وتوغلت في أراضي الدولة الصفوية. في هذه المرة اتبعت الجيوش العثمانية سياسة حرق وتدمير، لم تشاهدها تلك المناطق من قبل. بالرغم من سلوك سياسة القسوة المتناهية، واجهت الجيوش العثمانية مقاومة شديدة أذهلت المهاجمين، إذ نشبت بين العثمانيين والصفويين معارك عنيفة مدمرة، كانت تنتهي أحياناً بانتصار العثمانيين، وأحياناً أخرى بانهزامهم وانتصار الجيوش الصفوية.

بعد أن طالت تلك الصراعات الدموية المضنية، اقتنع رجال المؤسسة العسكرية العثمانية، بأنهم بلغوا مرحلة لا غالب ولا مغلوب في حروبهم مع الدولة الصفوية.

في خريف عام ١٥٥٤م وصل مدينة أرضروم سفير من قبل الشاه طهماسب الصفوي، وتم التوقيع على اتفاقية هدنة بين الدولتين. واتفق الطرفان على عقد معاهدة للسلام، على أن يتم توقيعها في العام التالي. وفي سنة ١٥٥٥م تم التوقيع في أرضروم، على معاهدة سلام بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية. تخلت بموجبها الدولة العثمانية عن أي ادعاء بمدينة تبريز حاضرة التركمان الأذريين وما يرتبط بها من أقاليم تركمانية.

يعد التوقيع على معاهدة أرضروم، نقطة تحول تاريخية في العلاقة بين الدولتين العثمانية والصفوية، إذ اعترفت الدولة العثمانية بتوقيعها على تلك المعاهدة، عدم قدرتها على إلحاق أقاليم التركمان الأذريين بالإمبراطورية العثمانية. وبالمقابل تخلت الدولة الصفوية، عن أي ادعاء بالعراق الذي كان آنذاك تحت الاحتلال العثماني. وبذلك تمكن السلطان سليمان من مد حدود الإمبراطورية العثمانية لتصل إلى مياه الخليج وسواحل بحر العرب والمحيط الهندي.

إضافة إلى ذلك وبموجب تلك المعاهدة، سمحت الدولة العثمانية للشيعة في الدولة الصفوية، بالحج إلى بيت الله الحرام، وسمحت لهم أن يزاولوا مناسك الحج حسب ما يمليه مذهبهم وبدون التعرض لهم.

وفاة السلطان سليمان

في الخامس من أيلول (سبتمبر) ١٥٦٦م توفي سليمان الأول بعد حكم دام قرابة ٤٦ عاماً، وخلفه على العرش من بعده ولده سليم بن روكسلان الروسية. كانت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان، تملك جيشاً نظامياً قوامه خمسون ألف رجل، يتمتعون بأعلى درجات التدريب والتعبئة العسكرية. ويملكون أفتك وأفضل الأسلحة القتالية. يضاف إليهم جيوش غير نظامية يبلغ تعداد أفرادها الربع مليون. وكانت الجيوش العثمانية، تملك أكثر من ثلاثمائة مدفع ثقيل لا مثيل لها في الجيوش الأخرى، وتملك ما يوازي ذلك من السفن الحربية المزودة بمدافع مشابهة. وبمقاييس تلك الأيام كانت تلك الآلة العسكرية، تعد أقوى وأعظم قوة عسكرية على وجه الأرض. وبفضل تلك القوة الجبارة، بلغت الفتوحات العسكرية في عهد سليمان الأول أقصى حدودها.

تشير الدراسات الموضوعية، إلى أن القوانين التي أحدثتها الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان، والتي أحيطت بهالة من التعظيم كانت في حقيقة الأمر، البداية لمرحلة الضعف والانحطاط، التي دشنها ولده السلطان سليم الثاني.

فالسلطان سليمان كان أول سلطان عثماني، امتنع عن الخروج على رأس الجيش للحرب. وأجاز للعسكر الانكشاري الذي لم يكن يخرج إلا تحت قيادة السلطان، الخروج بدونه، وتحت إمرة الصدر الأعظم أو قائد عسكري غيره. فكانت تلك السنّة سبباً في تقاعس أغلب السلاطين الذين جاءوا من بعده في الخروج للحرب، إذ فضلوا البقاء في قصورهم الباذخة بين محظياتهم وجواريهم.

أما في شؤون إدارة الدولة، فكان ديوان الوزراء يعقد دائما برآسة السلطان للنظر في الأمور العامة. ولكن السلطان سليمان أبطل تلك السنّة كذلك. وبهذا الصدد قال صاحب تاريخ الدولة العلية:

... وصار الديوان ينعقد تحت رئاسة أكبر الوزراء وهو الصدر الأعظم. والسلطان لاه عن ذلك معرض عن دسائس الوزراء ومن يستعينون بهم من جواريه وأزواجه. وترتب على ذلك أن صارت الأمور بيد الوزراء المغايرين للجنس العثماني أصلا ونسبا، إذ كان أغلبهم ممن أسلم أو تظاهر بالإسلام من النصارى أو من غلمان وخدم السلاطين ... .(١)

وهكذا كان السلطان سليمان أول من سار على طريق تهميش دور السلاطين العثمانيين في إدارة الدولة. وهذا بدوره أدى إلى عزلهم عن الحياة العامة، وتسليم أمور الدولة بيد رجال المؤسسة الحاكمة من ذوي الأصول الأوربية.

قوانين السلطان سليمان

تميز عصر السلطان سليمان الأول بكثرة التشريعات وتعدد وجوهها، وقد أحاط المؤرخون العثمانيون تلك الظاهرة بهالة من التعظيم، إلى حد انهم لقبوا ذلك السلطان بالقانوني. غير أن حقيقة الأمر تؤكد إن تلك القوانين ترتبط وتعد بصورة عامة، امتداداً للقوانين العثمانية التي صدرت في عهد السلطان محمد الفاتح بعد الاستيلاء على القسطنطينية. وعلى هذا نجد أن قوانين السلطان سليمان جاءت لتعكس وضع الدولة العثمانية في عهدها الإمبراطوري الجديد. إذ شملت إعادة تنظيم هياكل المؤسسة الحاكمة بما يلائم الأوضاع الجديدة. وقد شملت تلك التنظيمات:

١ ـ القضاء

٢ ـ الإدارة

(١) محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٥٢

٣ ـ الاقتصاد

٤ ـ المؤسسة العسكرية

فقد أدخلت الدولة، عدداً من التعديلات على قوانين توظيف رجال الدين، واستخدام المدرسين في مدارس الدولة التي ازداد عددها في عهد السلطان سليمان. وكان من شأن تلك التعديلات، رفع مراتب رجال الدين وتوسيع امتيازاتهم، خاصة مقام شيخ الإسلام، الذي رفعت منزلته إلى حد كادت أن تعادل منزلة الصدر الأعظم. وبنفس الوقت تم توسيع امتيازات القضاة ورجال الإفتاء. إذ منحت تلك الفئات من رجال الدين امتيازات واسعة شملت الإعفاء من الضرائب، وحماية ممتلكاتهم من المصادرة الحكومية، التي كان يتعرض لها بقية رجال الدولة. وبذلك ضمنت تلك الفئات من رجال الدين، ثرواتها التي أصبح بالإمكان الاحتفاظ بها وتوريثها إلى الأولاد.

وهكذا ظهرت في المجتمع العثماني طبقة دينية ثرية ذات امتيازات خاصة، كما كان حال رجال الإقطاع العسكري. وكان من أهم نتائج تلك القوانين، أن الدولة ضمنت ولاء تلك الفئات الدينية المترفهة اقتصادياً، بعد أن وثّقت ارتباطها بالمؤسسة الحاكمة.

وقد اكتسبت تلك التشريعات التي تخص الفئات الدينية، أهمية خاصة في تلك المرحلة التاريخية، التي تحولت فيها فتوحات الدولة العثمانية نحو العالمين العربي والإسلامي. إذ ساعدت على إقامة مؤسسات دينية عثمانية في تلك البلاد المفتوحة ترتبط مصادر رزقها بالدولة. وهكذا أصبح بإمكان المؤسسة العسكرية العثمانية الحاكمة في اسطنبول، ضمان ولاء المؤسسات الدينية التي أقامها العثمانيون منذ عهد السلطان سليمان في تلك البلاد. ومما يجب تقدير أهميته التاريخية، أن العراق دخل في حوزة العثمانيين في عهد السلطان سليمان، وكان من أول الأقطار الإسلامية التي تأثرت بتلك القوانين الجديدة.

إعادة تنظيم العسكر الانكشاري

في عهد السلطان سليمان صدرت قوانين جديدة تخص العسكر الانكشاري, تم بموجبها تقسيمهم إلى ثلاث مراتب، حسب مدة خدمتهم العسكرية. وتم تحديد رواتبهم وعطاياهم على ذلك الأساس.

وسمح للانكشارية بالزواج والإقامة مع عائلاتهم خارج ثكناتهم. وكانت تلك نقطة تحول مهمة في حياة العسكر الانكشاري. ومما زاد في أهمية ذلك، حصول الانكشارية على العديد من الامتيازات الجديدة، التي حسنت حياتهم الاقتصادية والاجتماعية ومنحتهم درجة عالية من الرفاهية.

ومهما كانت النتائج الإيجابية في تلك القوانين، فإنها في نفس الوقت أساءت من وجوه عديدة، إلى تلك القوة العسكرية الجبارة التي كانت العمود الفقري للمؤسسة العسكرية العثمانية. إذ أنها ساهمت في إفساد أخلاق الانكشارية وحطت من معنوياتهم العسكرية، وأضعفت انضباطهم وقدراتهم القتالية.

ومما زاد في تدهور أوضاع العسكر الانكشاري، السياسة التي تبنتها الدولة في عهد السلطان سليمان، والتي تم بموجبها قبول أعداد كبيرة من شبان البلدان المسيحية الذين ألحقوا بصفوف الجيش الانكشاري. إذ يرى عدد من الباحثين، أن تلك الزمر من الشباب الذين جاءوا من مختلف الأقاليم الأوربية الملحقة بالإمبراطورية العثمانية، كبلاد الصرب مثلا، كانت السبب في نشر الفساد والتفسخ الأخلاقي بين صفوف تلك المؤسسة العسكرية العريقة، التي قامت على أسس الفكر الصوفي البكتاشي.

تعديل قوانين الإقطاع العسكري

كان من أهم المسائل التي عالجتها قوانين السلطان سليمان, مسألة السيطرة على إقطاعيات "السباه" الكبيرة (التيمار)، التي كانت تسمى "زعامت". تلك الإقطاعيات العسكرية، التي كانت وراثتها محصورة بالأولاد الذكور، والتي كان

من حق الدولة استعادتها، في حالة عدم وجود وريث ذكر للإقطاعي العسكري المتوفى.

كانت صلاحية إقرار منح تلك الإقطاعيات العسكرية، في السابق بيد الولاة. مما سمح لأولئك الولاة بالتلاعب بمصير تلك الإقطاعيات في ولاياتهم. وللحد من ذلك التلاعب، صدر قانون يحصر إقرار منح تلك الإقطاعيات، بديوان السلطان في اسطنبول.

ولكن إصدار ذلك القانون أتى بنتائج خطيرة. فهو من جهة فتح المجال لرجال الحكم في العاصمة اسطنبول، للاستحواذ على الكثير من تلك الإقطاعيات الزراعية، واستغلالها لمصالحهم الخاصة. ومن الجهة الأخرى، أدى إلى تقليص ملكيات الإقطاعيين العسكريين في مختلف الولايات، وبالتالي تحجيم إمكانياتهم في حشد أعداد كبيرة من الفرسان والمقاتلين أثناء الحروب كما كان في السابق.

وبمرور الزمن تفاقمت المساوئ والآثار السلبية لذلك القانون، الذي استهدف بالأصل الحد من تلاعب الولاة المحليين، في التزام الإقطاعيات العسكرية. وبذلك أصبح عاملاً إضافياً ساهم في نشر وتجذير الفساد والتفسخ الإداري في مختلف الولايات، وفي العاصمة اسطنبول.

إضافة إلى ذلك، فقد ظهرت في ولايات الإمبراطورية طبقة إقطاع جديدة، تعيش في ظل ذلك الفساد الإداري، ويعتمد وجودها عليه. وهذا بدوره أثر سلبيا على الروح المعنوية لرجال السباه، وحط من قدراتهم القتالية. وبمرور الزمن تفشت بين صفوفهم، ظاهرة التمرد وعصيان الأوامر والهروب من ساحات القتال. ولأهمية تلك القوانين التي شرعت في عهد السلطان سليمان الأول، والنتائج التي ترتبت عليها. سنتناول في فصول قادمة، تأثير تلك القوانين في العراق الذي دخل في حوزة العثمانيين في ذلك العهد، وعلى المجتمعات العثمانية التي قامت في العاصمة بغداد، وبعض المدن الأخرى، التي اتخذها العثمانيون مراكز لإداراتهم.

الفصل الخامس

سلاطين الضعف والانحطاط

بعد وفاة السلطان سليمان الأول، لم يتمكن من خلفوه من سلاطين آل عثمان، توسيع رقعة الإمبراطورية العثمانية. فكان السلطان سليمان الأول، بمثابة من بلغ القمة الإمبراطورية. وقدر لسلاطين آل عثمان الذين جاؤا من بعده، أن يبدأوا مشوار الهبوط الطويل والمضني، على منحدر الضعف والانحطاط. وكان أول أولئك السلاطين.

السلطان سليم الثاني

تولى بعد وفاة والده السلطان سليمان سنة ١٥٦٦م. وهو ابن روكسلانة الروسية التي مهدت له السبيل لارتقاء العرش. لم يرث سليم عن والده الاستقامة والقدرة على القيادة، ولا المكر والدهاء عن أمه الروسية. بل كان كما يقال، خامل الذهن قميئاً ذا وجه منتفخ، سيئ الأخلاق غارقاً في ملذاته. وكان مدمناً على تعاطي الخمور، حتى إن الناس أطلقوا عليه لقب سليم "السكران". ويبدو أن الانكشارية أبدوا منذ البداية، استخفافهم بالسلطان سليم. إذ تمردوا عليه، وأخذوا يهينون ضباطهم بحضوره، لأنه تأخر عليهم في توزيع العطايا المعتادة.

كان سليم يفضل حياة القصور ومجالس الشراب، ويقال انه لم يكن يملك من المؤهلات سوى نظم الشعر، على طريقة الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي. وكانت أكثر أشعاره في وصف الخمرة. ونتيجة لانغماسه في مثل تلك الحياة ابتعد

عن معضلات الحكم والسياسة، وسلم مقاليد الحكم وإدارة شؤون الدولة بصورة كاملة، إلى الصدر الأعظم محمد باشا صقللي وهو سلافي الأصل من البوشناق (البوسنة). قال محمد فريد:

ولم يكن السلطان متصفاً بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه... ولولا وجود الوزير محمد باشا صقللي المدرب على الأعمال الحربية والسياسية للحق الدولة الفشل، ولكن حسن سياسة هذا الوزير وعظم أسم الدولة ومهابتها في قلوب أعدائها حفظتها من السقوط مرة واحدة... .[(1)]

تلقي هذه الكلمات الموجزة، الضوء على جانب مهم من مرحلة جديدة دخلتها الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني، الذي جلس على العرش في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي. تلك المرحلة التي تميزت بتراجع السلاطين العثمانيين وتسليمهم إدارة البلاد بصورة كاملة إلى رجال المؤسسة العسكرية أمثال الوزير محمد باشا صقللي السلافي الأصل. بينما قبعوا هم داخل قصورهم الباذخة، ورضوا لأنفسهم حياة المجون واللهو بين جواريهم ومحظياتهم، ومع بطانة السوء التي كانت تحيط بهم.

ومن المعروف أن السلطان سليم الثاني، أباح للانكشارية وغيرهم من العسكريين شرب الخمور. فأخذوا يرتادون حانات الخمور ويسكرون ويعربدون ويعتدون على السكان المدنيين وعلى ممتلكاتهم. ولذلك فقد سليم الثاني احترام الجميع.

وبينما كان السلطان سليم الثاني منغمسا في ملذاته، خاضت الدولة العثمانية بقيادة الوزير القدير محمد باشا صقللي حروبا عدة. ففي سنة ١٥٦٩م أرسل هذا الوزير جيشا كبيراً إلى اليمن لقمع الثورة التي اندلعت بقيادة السلطان الشريف مظهر بن شرف الدين يحيى. وقد استولت تلك الجيوش العثمانية، على العاصمة

---

(١) محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٥٣

صنعاء، مما اضطر الشريف مطهر إلى الاعتراف بسيادة العثمانيين على بلاده. وفي سنة ١٥٧٠م تمكنت الجيوش العثمانية من الاستيلاء على جزيرة قبرص.

وفاة السلطان سليم الثاني

في أواسط شهر كانون أول سنة ١٥٧٤م، فوجئ سكان اسطنبول بإعلان وفاة السلطان سليم الثاني. وقد سرت في حينه إشاعات تقول، إن السلطان كان يهم بتدشين حمام جديد داخل القصر، فأمسك بقنينة من الخمر المعتق، الذي كان يجلب إليه من قبرص، واحتسى ما بداخلها دفعة واحدة، ثم دخل الحمام وهو يترنح من شدة السكر، وبعد دخوله اختل توازنه وسقط على أرض الحمام المرصوفة بالمرمر. ويبدو أن رأسه ارتطمت بالمرمر، فغاب عن وعيه وتوفي بعد فترة قصيرة.

خلف السلطان سليم ستة أولاد هم: مراد الذي ارتقي العرش من بعده، ومحمد وسليمان و مصطفى وجهانكير وعبد الله.

السلطان مراد الثالث

بعد أن ارتقى السلطان مراد العرش، صدر الأمر بقتل اخوته الخمسة، حسب السنّة الدموية العثمانية. ويبدو أن السلطان الشاب كان متأثراً بالحادث الذي أودى بحياة والده، فأصدر أمراً حرم فيه شرب الخمر، الذي شاع استعماله، وأفرط فيه الانكشارية في تلك الأيام. غير أن الانكشارية ثاروا وهددوا السلطان، فاضطر السلطان مراد إلى التراجع، وأباح لهم شرب الخمر.

وبهذا الصدد يقول صاحب تاريخ الدولة العلية:

وكانت فاتحة أعماله أن أصدر أمراً بعدم شرب الخمر الذي شاع استعماله أيام السلطان السابق وأفرط فيه الجنود خصوصاً الانكشارية، فثار الانكشارية لذلك واضطروه لإباحته لهم بمقدار لا يترتب منه ذهول العقل وتكدير الراحة العمومية ... .[1]

في سنة ١٥٧٨م أصدر الصدر الأعظم محمد باشا صقللي أمره إلى والي طرابلس، أن يجهز عساكره ويزحف للاستيلاء على المغرب الأقصى، الذي كان يواجه اضطرابات، كانت حكومة البرتغال طرفا فيها. وقد التقت الجيوش العثمانية بعساكر البرتغال في موقع بالقرب من طنجة، وبعد معركة حامية أنزل العثمانيون بالبرتغال هزيمة ساحقة. وبذلك خضعت مملكة مراكش للحكم العثماني، وصار شمال أفريقيا بأجمعه تابعاً للدولة العثمانية.

الدولة وحروب الانكشارية

في سنة ١٥٧٦م توفي الشاه طهماسب الصفوي وتولى بعده ابنه الشاه حيدر ميرزا، غير أنه قُتل بعد ساعات قليلة من توليه العرش. فتولى بعده الشاه إسماعيل وهو رابع أبناء الشاه طهماسب، ويقال إنه كان فاسداً منغمساً في شهواته. فقام أهل خراسان ونصبوا محمد ميرزا سلطاناً عليهم. في تلك الفترة انتشرت الاضطرابات والفتن في الدولة الصفوية، التي بدأت هي الأخرى، مسيرة الضعف والانحطاط في تاريخها.

انتهزت المؤسسة العسكرية العثمانية حالة الضعف والانقسامات في الدولة الصفوية، فأوعز الصدر الأعظم محمد باشا صقللي بتجهيز حملة عسكرية لمهاجمتها. وفي سنة ١٥٧٧م، أي بعد مرور عقدين من الزمن على توقيع معاهدة أرضروم، خرجت الجيوش العثمانية بقيادة لالة مصطفى باشا وسارت نحو بلاد الكرج التي كانت من أملاك الدولة الصفوية واستولت عليها، ثم استولت على

---

(١) ن.م.، ص٢٥٩

شيروان. كتب محمد فريد تحت عنوان محاربة العجم ودخول العثمانيين مدينة تبريز دفعة رابعة فقال:

هذا وأهم ما حصل في أيام السلطان مراد الثالث محاربة بلاد العجم بناءً على إيعاز الصدر الأعظم محمد باشا صقللي وانتهاز فرصة الاضطرابات الداخلية بها. وذلك أنه لما توفي الشاه طهماسب سنة ٩٨٤هـ (١٥٧٦م) تولى بعده ابنه حيدر وقتل بعد بضع ساعات قبل دفن أبيه ... ثم تولى بعده إسماعيل ابن طهماسب وتوفي مسموما سنة ٩٨٥هـ وخلفه أخوه محمد خدابندة، وكانت البلاد منقسمة عليه فأرسلت الجيوش السلطانية لمحاربته وفتح ما تيسر من بلاده ...

غير أن قبائل التركمان في أقاليم أذربيجان، التي دأب العثمانيون على تسمية أقاليمهم بـ"بلاد العجم" هبت للدفاع عن أرضها، فزحفت في أواسط شتاء ذلك العام أربعة جيوش صفوية بقيادة الأمير حمزة ميرزا وهاجمت بلاد شيروان. وبعد معارك مريرة تمكن فرسان التركمان القزلباش، من اقتحام مدينة شيروان واستعادتها من العثمانيين. وأمام ذلك الضغط العسكري، اضطر القائد العثماني عثمان باشا إلى الانسحاب أمام الجيوش الصفوية، والاحتماء بمدينة (دربند) على بحر قزوين والتي كانت تسمى قديما "باب الأبواب". ثم حاصرت الجيوش الصفوية مدينة تفليس ولكنها لم تتمكن من انتزاعها من يد العثمانيين.

في تلك الأثناء اشتدت المؤامرات والمنافسات على السلطة في اسطنبول، قتل أثناءها الصدر الأعظم محمد باشا صقللي بيد أحد انكشارية البوشناق. قال محمد فريد:

وفي غضون ذلك قتل الصدر الأعظم محمد باشا صقللي الذي حافظ على نفوذ الدولة بعد موت السلطان سليمان ... وكوفئ على خدماته الجليلة بالقتل لا لذنب جناه أو جناية ارتكبها، بل هي دسائس

حاشية السلطان قضت عليه بالموت غدرا تبعا لدسائس الأجانب ... فكان موته ضربة شديدة ومحنة عظيمة لاسيما وقد كثر بعده تنصيب وعزل الصدور ... .[1]

بعد مقتل محمد باشا صقللي، دخلت الدولة العثمانية مرحلة جديدة من الفوضى والبلبلة، تصاعدت فيها الفتن وصراعات رجال المؤسسة العسكرية، حول مراكز الدولة العليا في اسطنبول. وكان أول من حاز على منصب الصدارة بعد اغتيال صقللي، أحمد باشا غير أنه عزل في صيف سنة ١٥٨٠م. فاستلم المنصب من بعده سنان باشا، الذي كان أحد قادة الجيش الذي هاجم أراضي الدولة الصفوية، والذي تولى القيادة العامة بعد وفاة مصطفى باشا. وقد قيل في حينه، إنه انتحر بالسم بعد أن فشل في الحصول على منصب الصدارة لنفسه. واستمرت الفتن والصراعات التي لم يتمكن سنان باشا التعامل معها، فخسر منصبه بعد فترة قصيرة ونفي إلى خارج البلاد. فحاز بعده على منصب الصدارة، سيواس باشا المجري الأصل، وأصبح فرهاد باشا قائداً عاماً للجيوش العثمانية التي كانت تقاتل في أقاليم الدولة الصفوية. غير أن أعمال فرهاد باشا العسكرية انتهت بالفشل، لعدم امتثال الانكشارية لأوامر رؤسائهم.

وفي سنة ١٥٨٤م عاد عثمان باشا إلى العاصمة اسطنبول، وتولى منصب الصدارة بدلا من سيواس باشا المجري، وتولى كذلك منصب القائد العام (سر عسكر). وبعد ذلك خرجت جيوش عثمانية كبيرة زحفت شرقا، واخترقت الحدود الصفوية مرة أخرى واستولت على مدينة تبريز. غير أن الجيوش الصفوية استمرت في مقاومة العثمانيين. وهكذا استمرت الحرب سجالا نحو ستة أعوام، انتهت بإبرام معاهدة صلح بين الدولتين، وحسب بنود تلك المعاهدة الجديدة، تنازلت الحكومة الصفوية للعثمانيين، عن إقليم الكرج وشيروان ولورستان وجزء من إقليم

---

(١) ن.م.، ص٢٦٢

أذربيجان بما فيه مدينة تبريز. وبعد إبرام تلك المعاهدة، أخذت الأحوال تهدأ بين الدولتين.

غير أن مشاكل الدولة العثمانية لم تنته، وضلّت تسير من سيئ إلى أسوأ. وواصل الانكشارية أعمال السلب والنهب في العاصمة اسطنبول وباقي أنحاء الإمبراطورية. وبهذا الصدد يقول محمد فريد:

إلا أن هذه السكينة لم تكن لترضي الانكشارية الذين كانوا يفضلون استمرار الحروب، للنهب والسلب وارتكاب ما لا خير فيه، فكانت إذا انقطعت الحرب تمردوا وارتكبوا هذه القبائح في بلاد الدولة المعسكرين بها بل وفي نفس الأستانة (اسطنبول). فلما بلغهم إن المخابرات سائرة بين الدولة والعجم (والمقصود هنا الدولة الصفوية) للوصول إلى الصلح ثاروا بالقسطنطينية (اسطنبول) وطلبوا تسليم الدفتردار (وزير المالية) ومحمد باشا بكلار بك الرومللي لقتلهما، بدعوى إنهما أرادا أن يصرف إليهما نقودا ناقصة العيار، وحاصروهما في منزلهما إلى أن قتلوهما شر قتلة، ولم يقو السلطان على منعهم.

وتمردوا مرة أخرى سنة ١٥٩٣م في الأستانة وأخرى في مدينة بود وقتلوا واليهما، وفي القاهرة وفي تبريز مما يطول شرحه ... ولذلك أشار سنان باشا الذي أعيد إلى منصة الوزارة في سنة ٩٩٧هـ (١٥٨٨م) بإشغالهم بمحاربة بلاد المجر وأوعز إلى حسن باشا والي بلاد البشناق (البوسنة) أن يجتاز حدود بلاد المجر إعلانا للحربْ، ولكن هل يرجى نجاح أو فلاح حقيقي من جيوش بلغ عندها عدم النظام الدرجة القصوى حتى استطالت لقتل الولاة وعزل الحكام ... .[(١)]

هكذا عمت الفوضى مختلف أنحاء الإمبراطورية العثمانية، بسبب الأعمال الاجرامية للعسكر الانكشاري. تلك الأعمال التي جلبت الويلات ليس على شعوب الإمبراطورية فحسب، بل على ما جاورها من شعوب. وكان طبيعياً أن منيت

---

(١) ن.م.، ص٢٦٤

الجيوش العثمانية بالخسران. ولذا طالت تلك الحرب بين الدولة العثمانية وجيوش المجر التي انضمت إليها جيوش النمسا، وتمكنت تلك الجيوش الأوربية من الاستيلاء على عدة قلاع عثمانية. وهكذا استمر انحسار نفوذ العثمانيين الذين تقهقروا خلف نهر الدانوب، وفقدوا بعد ذلك العديد من المدن في أوربا.

كانت أموال الدولة في عهد السلطان سليمان الأول تحفظ في خزائن داخل القلعة الكبيرة المسماة ذات السبعة أبراج، الواقعة إزاء السراي. وكانت أبراج تلك القلعة، مليئة بالذهب والأموال والنفائس التي سلبها العثمانيون من إيران ومصر وبلدان أخرى. ولكن الحروب المتواصلة أكلت الأخضر واليابس، واستنفدت أكثر تلك الأموال. حتى أضحت تلك الأبراج في عهد السلطان مراد شبه خاوية. فنقل السلطان مراد ما تبقى من تلك الأموال إلى خزينته الخاصة، وحول القلعة ذات السبعة أبراج إلى سجن.

في أيام هذا السلطان، انتشر الفساد في أجهزة الدولة وبلغ حداً لم يشاهد مثله من قبل. وظهر في اسطنبول ما يشبه السوق، كانت مناصب الدولة تباع فيه وتشترى بأثمان يتم الاتفاق عليها مع أصحاب النفوذ . والغريب في الأمر أن السلطان نفسه، دخل طرفاً في تلك السوق، وأخذ يجمع الأموال عن طريق الرشوة وقبول الهدايا الثمينة، لقاء منح المناصب العالية لمن كان يدفع الثمن.

ويشار إلى إن الرجل، الذي لعب دوراً رئيسياً في توريط السلطان في عمليات الرشوة وقبض الأموال، هو شمسي باشا. كان شمسي باشا من بطانة السلطان المقربين، وكان يدعي أنه سلجوقي الأصل، ينتسب إلى أمراء قونية. ويقال إنه كان يكن في قرارة نفسه، كرها دفينا لسلاطين آل عثمان. ويقول أن آل عثمان دخلوا في خدمة أجداده أمراء قونية في عهد السلطان علاء الدين، ثم تنكروا لهم بعد وفاته وسلبوا منهم الملك.

ويبدو أن شمسي باشا نشط في عمليات بيع المناصب العليا، وترتيب الرشاوى التي كانت تدفع للسلطان. ومما ينسب إليه قوله :

وأخيراً انتقمت من آل عثمان، الذين تنكروا لنا وسلبونا ملكنا. فقد أغويت السلطان وغررت به، واستدرجته إلى الطريق الذي سيؤدي بعرش آل عثمان إلى الزوال.

السلطانة الوالدة وصفية الإيطالية

تشاء أقدار الدولة العثمانية، أن تساهم والدة السلطان مراد الثالث، في إضعاف مركز ولدها، ودفع عرش آل عثمان إلى ذلك المنحدر الخطير. فبعد وفاة زوجها السلطان سليم الثاني أصبحت هي "السلطانة الوالدة"، وهو مقام كبير حسب تقاليد الدولة العثمانية. ولكن السلطانة الوالدة، واجهت من كان ينافسها على ذلك المركز الخطير. فولدها السلطان مراد الثالث كان منغمسا في ملذاته، ومنشغلاً في اقتناء الفتيات الجميلات من أسواق الرقيق الأبيض للتمتع بهن، ويقال إنه كان يضاجع أكثر من محظية في الليلة الواحدة. وفي تلك الأثناء فتن السلطان، بجمال محظية إيطالية تدعى "صفية"، فقد سلبت لبه وتسلطت عليه. وحينما أنجبت له ابنه البكر محمد، أخذت تتصرف باعتبارها سيدة القصر.

يقال أن صفية استغلت نفوذها لدى السلطان، فأخذت تتدخل في شؤون السياسة الخارجية، لصالح إيطاليا. وكان طبيعياً أن يثير نفوذ صفية مخاوف السلطانة الوالدة، فأخذت تعمل على إبعاد ولدها السلطان عن محظيته الإيطالية. ولتحقيق مسعاها استعانت بكبيرة وصيفات القصر. ويقال إن السلطانة الوالدة اتفقت مع وصيفتها، على تهيئة المزيد من الحسناوات، ودفعهن إلى مضجع ولدها السلطان. وهكذا أخذت كبيرة وصيفات القصر، اقتناء المزيد من الفتيات الحسناوات لتقديمهن إلى السلطان. وتشير الروايات إلى أن أسعار البنات الجميلات، تضاعفت في أسواق الرقيق في اسطنبول. ويبدو إن خطة السلطانة الوالدة نجحت، بعد أن هام السلطان بجمال جارية مجرية الأصل، أبعدته لفترة عن صفية الإيطالية. ولكن بعد وفاة السلطانة الوالدة، عاد مقام صفية إلى ما كان عليه، بعد أن أصبحت "السلطانة صفية" وهكذا أفل نجم الجارية المجرية.

وفاة السلطان مراد الثالث

في بداية سنة ١٥٩٥م توفي السلطان مراد الثالث، بعد أن تربع على العرش مدة إحدى وعشرين سنة تقريبا، قضاها منغمسا في ملذاته. ونتيجة لذلك النمط من الحياة، ولكثرة معاشرته بنات الهوى، خلف مراد الثالث بعد وفاته، عدداً كبيراً من الأولاد والبنات تجاوز المائة، هذا إضافة إلى عدد من المحظيات الحوامل.

السلطان محمد الثالث

هو ابن صفية الإيطالية، ولد في سنة ١٥٦٦م، وتولى بعد وفاة والده مراد الثالث. بعد ارتقاء محمد الثالث عرش آل عثمان، جمع العسكر الانكشاري اخوته من الذكور، من زوجات ومحظيات والده، فبلغ عددهم تسعة عشر أميراً، كان أغلبهم لم يتجاوز سن الطفولة. فقام الزبانية الانكشارية بخنقهم جميعا حسب التقاليد العثمانية، ثم جرى دفنهم مع والدهم السلطان، اتجاه جامع آيا صوفيا في اسطنبول. وفي نفس ذلك اليوم جمع الانكشارية محظيات السلطان الحوامل، فبلغ عددهن ست نساء. شد الزبانية وثاق كل واحدة منهن، ثم وضعوها في كيس ربطوه بأحجار ثقيلة وألقوا بتلك الأكياس في مياه البوسفور. وبهذه الطريقة اللاإنسانية، تم القضاء على تلك المحظيات البائسات، وعلى ما كان في أرحامهن من أنفس بريئة. وهكذا بدأ عهد السلطان العثماني محمد الثالث.

في عهد السلطان محمد الثالث الذي دام تسعة أعوام، ازدادت الأوضاع سوءاً. واستشرى الفساد في أجهزة الدولة التي كانت تدار من قبل الوزراء أمثال سنان باشا، وحسن باشا، وجغالة زاده "سيكالا" الجنوي الأصل، الذي قتل أثناء الحروب العثمانية الصفوية. كتب محمد فريد عن أولئك الوزراء وأمثالهم فقال:

... ففسدوا في الأرض وباعوا المناصب الملكية (المدنية) والعسكرية وقللوا عيار العملة حتى علا الضجيج من جميع الجهات، وتعاقب انهزام الجيوش العثمانية أمام ميخائيل الفلاخي، الذي ضم

لسلطانه بمساعدة الجيوش النمساوية إقليم البغدان وجزءاً عظيماً من ترانسلفانيا لعدم وجود القواد الأكفاء لصدهم... .[(١)]

وبمرور الأيام أخذت معالم الانحطاط التي ألمت بالدولة تظهر بجلاء، وكان أبرزها ضعف مقام السلطان، الذي اقتصر دوره على الطقوس الشكلية الفارغة المحتوى. بينما ستمر الوزراء وكبار العسكريين ذوو الأصول الأوربية، على جمع الأموال وتحقيق المكاسب الشخصية. ذلك السلوك الذي أدى إلى انفلات زمام الأمور وانتشار الفوضى، وساهم بدوره في تفكك صرح الإمبراطورية العثمانية.

وفي عهد محمد الثالث طفت على السطح، النتائج السلبية لقوانين الإصلاح الزراعي، التي شُرعت في عهد السلطان سليمان الأول. فقد استغل رجال الحكم في اسطنبول انفلات زمام الأمور، فأخذوا يستحوذون عن طريق الرشوة والمحسوبية، على المزيد من الأراضي الزراعية التي كانت تنتزع من رجال الإقطاع العسكري (التيمار). وكان أكثر المتضررين من تلك الأوضاع، الفلاحون والمزارعون المحليون، الذين كانوا المصدر الرئيسي لتزويد الجيوش العثمانية بالفرسان (السباه). وهكذا ظهرت في اسطنبول، طبقة ثرية جديدة من الملاكين الغائبين الذين نمت ثرواتهم الشخصية، على حساب القدرات العسكرية للدولة.

ومن الجدير بالملاحظة، أن المتضررين من جماهير الفلاحين وصغار المزارعين في الأناضول كانوا السكان الترك. أولئك الذين استقروا في تلك الأقاليم منذ العهود السلجوقية وما قبلها، والذين كانوا أساس المجتمع التركي في آسيا الصغرى. بينما كانت تلك الطبقة الجديدة من الملاكين الغائبين، الذين يحكمون في اسطنبول، تنتمي اثنياً إلى أصول أوربية. إذ كانوا من أصول يونانية وصربية وسلافية وأصناف عثمانية أخرى. وإن تسلط تلك الجماعات العسكرية العثمانية

---

(١) ن.م.، ص٢٦٧

على الحكم في اسطنبول، كان يعني عملياً، تحول الترك في آسيا الصغرى إلى شعب مستعبد مظلوم، كسائر شعوب الإمبراطورية العثمانية.

إن ذلك الواقع السياسي يعني بصورة جوهرية، أن الحكم العثماني لم يكن حكما تركياً، وأن حكومات اسطنبول التي وسعت حروبها واستولت على بلاد الشام ومصر والعراق وباقي العالم العربي والإسلامي، لم تكن تمثل تسلطاً تركياً فُرض على تلك الشعوب، بل كان في حقيقة أمره، حكم مؤسسة عسكرية تسلطت على تلك الشعوب بما فيها الشعب التركي. من هذا يمكن أن نستنتج أن ثورات الترك في أقاليم الأناضول التي انفجرت ضد حكومات اسطنبول، لم تكن تختلف جوهرياً عن ثورات بقية شعوب الإمبراطورية ضد الطغمة العسكرية الحاكمة في اسطنبول.

في خضم تلك التحولات تقلصت إمكانيات عسكر السباه في الإمبراطورية، فظهر عجزهم في مواجهة الجيوش الأوربية التي أخذت تحدث وتحسن أسلحة وحداتها العسكرية. فقد فشل عساكر السباه، في الصمود في ساحات المعارك أمام الفرق الألمانية، التي تفوقت عليهم بأسلحة المشاة الحديثة، التي لم يكن رجال السباه يملكون مثيلاً لها. وهكذا وبالتدريج تحولت قوات السباه، إلى عناصر قليلة الفائدة عسكرياً، كثيرة المشاكل اجتماعياً. واصبحوا مصدراً رئيسياً للشغب والعصيان، في وقت تكررت فيه هزائمهم العسكرية. وهذا ما حدث مثلاً، في معركة Mezo-Keresztes بين الجيوش العثمانية وجيوش المجر وحلفائهم في سنة ١٥٩٦م، والتي مني فيها العثمانيون بهزيمة منكرة. بعد تلك الهزيمة طردت الحكومة العثمانية، ٣٠ ألف سباهي، وسفرتهم بصورة جماعية، إلى مناطق نائية في الأناضول. ثم أطلقت على أولئك الفرسان، اسم "فراري" أي الفارين، أو المنهزمين وذلك تحقيراً لهم.

إن طرد مثل تلك الأعداد الكبيرة من السباه ومصادرة أراضيهم الزراعية، أدى من جهة إلى زيادة ثروات أولئك الملاكين الغائبين في اسطنبول، ومن الجهة الأخرى، زاد أعداد الفقراء والمعدمين في الولايات الآسيوية. وبحكم القانون أصبح

بإمكان أولئك الملاكين الأثرياء المستفيدين من تفشي الفساد والرشوة، شراء المناصب العليا لأولادهم. وهكذا أصبحت المناصب العليا في سراي السلطان، حكرا على أبناء تلك العوائل الثرية من الملاكين الغائبين الذين يملكون المال الكافي لشراء المناصب. ومع نهاية القرن السادس عشر، تعاظم دور تلك الطبقة من الملاكين الغائبين، بحيث أصبح دورها أساسياً في إضعاف وتدهور الدولة العثمانية.

الأزمة المالية

أدى استشراء الفساد السياسي والاقتصادي في أجهزة الدولة، إلى ارتفاع أسعار السلع في الأسواق، بينما أخذت قيمة العملة تميل إلى الهبوط، وذلك بسبب تدفق الفضة والذهب من العالم الجديد (أمريكا)، إلى أسواق العالم القديم. تلك الظاهرة التي أثّرت سلبياً، في الوضع النقدي للدول التي كانت تعتمد الفضة أساس عملتها.

إن انخفاض أسعار الفضة وازدياد كمياتها المعروضة في الأسواق، لابد أن يؤدي إلى تضخم كبير في العملة المتداولة، وبالتالي زيادة أسعار السلع في الأسواق. وقد شملت تلك الأزمة المالية، الدولتين الصفوية والعثمانية، بينما كان المستفيد منها، الدول الأوربية التي سيطرت على العالم الجديد، والتي أخذت تستغل ثرواته في تطوير قدراتها الاقتصادية والعسكرية.

أجبرت تلك الأزمة المالية التي ألمت بالبلاد، الحكومة العثمانية على تخفيض نسبة الفضة والذهب في عملاتها، فتم في سنة ١٥٨٤م تخفيض نسبة الذهب في العملة الذهبية إلى النصف. ثم سحبت الحكومة من الأسواق العملة الفضية القديمة، وطرحت بدلاً منها عملة فضية جديدة خفيفة الوزن، تحوي نسبة عالية من النحاس.

كانت تلك العملة الفضية الجديدة، هي الأساس في دفع معاشات العسكر وسائر موظفي الدولة. وقد أدى طرحها إلى تدني قيمتها وارتفاع أسعار السلع في الأسواق. وهذا بدوره أدى إلى زيادة التذمر في صفوف العسكر، خاصة الانكشارية

منهم، وإلى أضعاف سلطة الدولة وهيبتها، وقدرتها على التصدي للجيوش الأجنبية. ومما زاد في الطين بلة، أن تلك الأوضاع أجبرت الموظفين وأصحاب المعاشات على الإقبال على الكسب الغير مشروع، وهذا بدوره عمق أزمة الفساد الإداري والتعاطي بالرشاوى، وعممها بصورة لم تشهد مثلها البلاد من قبل. واستمر انتشار الفساد حتى شمل القضاة وكبار الموظفين، الذين كانت توكل إليهم مسؤوليات التفتيش، ودراسة المشاكل لتقصي أسباب سوء الأوضاع. فحينما كانت تعرض على أولئك المسؤولين قضايا الناس، كانوا يتلاعبون بالقانون ويصدرون أحكامهم وقراراتهم، بما يتناسب والمبالغ التي كانت تدفع لهم كرشاوى.

أما في الأرياف، فقد تمادى المسؤولون في ابتزاز الفلاحين والمزارعين، مما اضطر أولئك المزارعين إلى الاقتراض من المرابين بفوائد عالية، لتسديد ما كان يفرض عليهم من ضرائب. ولمواجهة النقص في أعداد المقاتلين (السباه)، لجأت الدولة إلى زيادة أعداد الانكشارية، ولكن ليس كما جرت العادة في الماضي، بل جرى لأول مرة، تجنيد الشباب من مناطق إسلامية، وتم إلحاقهم بالعسكر الانكشاري. وتم كذلك توسيع فرق عسكرية أخرى، مرتبطة بديوان السلطان مثل Kapi kulus .

سبق وأن أشرنا إلى القوانين التي سمحت للانكشارية في الاشتغال بالتجارة والأعمال الحرة. مما سمح لهم بالامتزاج بالطبقات والشرائح المهنية، سواء في اسطنبول أو المدن الأخرى التي كان الانكشارية يتمركزون بها. ونحن نعلم بأن الدولة العثمانية سمحت منذ عهد السلطان سليمان الأول، للانكشارية بالزواج والعيش خارج المعسكرات، وكنتيجة لذلك ظهرت في المجتمعات العثمانية، أجيال جديدة من الانكشارية يحصل أفرادها على مراكزهم العسكرية بالوراثة. وهكذا شملت ظاهرة الوراثة حتى الرتب العسكرية بين الانكشارية.

تلك كانت أهم مظاهر الضعف الذي دب في جسم الإمبراطورية العثمانية، والذي شمل رجال المؤسسة العسكرية الانكشارية، الذين ضعفت روحهم القتالية بينما ازدادت مشاكلهم وحالات التمرد والعصيان بينهم.

ففي عهد السلطان مراد الثالث مثلا، ثار الانكشارية في سنة ١٥٨٩م احتجاجاً على تخفيف أوزان العملة الفضية التي كانت تدفع لهم، فساروا نحو سراي السلطان وحاصروه وطلبوا منه تسليم الدفتردار والوزير محمد باشا بكاربك الروملي. وحينما حاول السلطان، حماية وزيريه هددوه بالقتل. فاضطر للاستسلام والخضوع لمطالبهم. وبعد أن سلمهم الوزيرين قتلوهما شر قتلة.

ثورات في الأناضول

مع بداية القرن السابع عشر الميلادي، انفجرت في الأناضول ثورة شعبية واسعة ضد حكومة اسطنبول، التحقت بها العديد من الجماعات العسكرية النظامية وغير النظامية. كان من بينها جماعات كبيرة من فرسان السباه "الفراري"، الذين سبق وأن أشرنا إلى نفيهم إلى تلك المناطق. وقد برز في تلك الثورة، رجل يدعى (قرة يازجي) قيل إنه ادعى أن النبي محمد (ص) جاءه في المنام وأمره بالثورة ضد سلاطين آل عثمان، ووعده بالنصر. وأمره بفتح ولايات آسيا الصغرى التركية، وتخليصها من ظلم حكومة اسطنبول، التي تسلط عليها العسكر الانكشاري.

استجاب لقرة يازجي خلق كثير من سكان الأناضول، وتمكنت جموع الثوار من دحر الجيوش العثمانية وإنزال الهزيمة بعساكر والي إقليم القرمان. ثم استولى الثوار على مدينة عين تاب، جنوبي الأناضول بالقرب من الحدود السورية. مما اضطر الحكومة، إلى أن تجهز جيشاً كبيراً سار وحاصر تلك المدينة، غير أنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها. مما اضطر الحكومة إلى الدخول في مفاوضات مع زعيم الثورة قرة يازجي، الذي اشترط أن تسلم الحكومة له ولاية آماسيا، مقابل

طاعة السلطان. وبالنظر لحراجة الوضع، اضطرت حكومة اسطنبول قبول شروط قرة يازجي، وباشرت بسحب جيوشها من المنطقة. ولكن بعد فترة رفع قرة يازجي راية الثورة مرة أخرى، فأرسلت الحكومة جيشاً جراراً بقيادة صقللي حسن باشا لمحاربته. وبعد معارك طاحنة انتصرت جيوش الحكومة العثمانية على الثوار، مما اضطر قرة يازجي إلى الانسحاب إلى المناطق الجبلية على البحر الأسود، حيث توفي هناك متأثرا بالجراح التي أصيب بها أثناء المعارك.

بالرغم من وفاة قرة يازجي فإن نار الثورة لم تخمد، بل استمرت بقيادة أخ له يدعى دلي حسن، الذي تمكن بعد سلسلة من المعارك، من تحقيق انتصارات كبيرة ضد الجيوش العثمانية. فقد التحمت قواته في شرق الأناضول، بمعركة شديدة بجيوش صقللي حسن باشا، وأنزلت بها هزيمة منكرة. وبعد تلك المعركة الفاصلة، هرب القائد صقللي حسن باشا من وجه الثوار، ولكن جيوش الثوار طاردته وتمكنت من اللحاق به وقتله قرب أسوار مدينة توقات.

بعد ذلك الانتصار الكبير زحف جيش الثوار نحو ديار بكر واستولى عليها، وبعد ذلك تمكن من إنزال الهزيمة بجيش والي حلب، ثم والي دمشق. وفي سنة ١٦٠١م حاصرت جيوش الثوار مدينة كوتاهية في غرب الأناضول.

وهكذا انحسرت مع بداية القرن السابع عشر، سلطة الحكومة العثمانية عن أقاليم الأناضول، وهي قلب المجتمع التركي في الدولة. وكذلك عن بلاد الشام وأقاليم أخرى. مما أثار الرعب في الأوساط الحاكمة في اسطنبول التي كانت تعصف بها الأزمات، جراء التفسخ الإداري والسياسي والأخلاقي.

بعد أن وجد رجال المؤسسة الحاكمة، أن دولتهم تواجه أزمات تهددها بالانهيار، قرروا الانحناء أمام الثائرين، وبعد جهود مضنية، نجحوا في إقناع قائد الثورة، بالتوجه إلى جبهات المواجهة مع القوى الأوربية. وبهذه الصدد كتب محمد فريد عن قائد الثورة ورجاله:

... ولما رأت الدولة تجسم هذه النازلة أخذت في استعمال طرق السلم والتودد فأجزلت إليه العطايا وأغدقت عليه الهبات، ثم عرضت عليه ولاية بوسنة فقبل بعد تعللات كثيرة ووضع السلاح وأعلن إخلاصه للدولة العلية سنة ١٦٠٣م، وسافر بجنوده ومن انضم إليهم من أخلاط الأكراد وأوباش القرمان واستعمل قوته لمحاربة الإفرنج على حدود الدولة من جهة أوربا، حتى هلكت جيوشه عن آخرها في المناوشات المستمرة بينها وبين عساكر المجر والنمسا واستراحت الدولة من شرها.[(١)]

بعد انحسار تلك الثورة، ثار عسكر السباه في اسطنبول مطالبين الحكومة بتعويضهم عما فقدوه من ريع الإقطاعيات في مناطق آسيا الصغرى. لأن خيالة السباه كانوا يعتمدون في معيشتهم، على ريع تلك الإقطاعيات العسكرية التي استولى عليها الثوار في أقاليم الأناضول. هذا إضافة إلى ما فقدوه من الأراضي الزراعية التي استحوذ عليها المتنفذون من رجال الدولة. غير أن خزائن الدولة كانت خاوية، فتحول رجال السباه لنهب ما في المساجد والقصور من التحف الذهبية والفضية. وأخذوا يهددون حياة السلطان نفسه، فاستعان السلطان عليهم بالعسكر الانكشاري. وهكذا اشتبك العساكر من الطرفين، في معارك دموية عنيفة في قلب اسطنبول. انتهت بالقضاء على المتمردين من السباه، ولكن بعد الكثير من الخراب والدمار وسفك الدماء. في نهاية سنة ١٦٠٣م توفي السلطان محمد الثالث وكان له من العمر ٣٧ سنة، فتولى بعده ولده أحمد.

السلطان أحمد الأول

جلس السلطان أحمد على العرش وله من العمر أربعة عشر عاماً. وكان له أخ واحد مختل العقل اسمه مصطفى. ولذا لم يقتله الانكشارية كما جرت العادة في

---

(١) محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٦٩

تعاقب سلاطين آل عثمان، بل تم حجزه وعزله عن العالم الخارجي، في جناح خاص داخل جناح الحريم في قصر السلطان. وبمرور الأيام أطلق العديدون على ذلك الجناح مجازاً، أسم "القفص".

أما السلطان الشاب أحمد الذي كان في الرابعة عشر من عمره، فقد وقع تحت تأثير حريم القصر، ومؤامرات البطانة الفاسدة التي كانت تحيط به. وفي أيامه طغى نفوذ المملوك الذي كان يشغل منصب رئيس ديوان الحريم في القصر، الملقب "قيزلر أغاسي" فقد اتسع ديوان ذلك المملوك، حتى أصبح يضاهي في أبهته ديوان السلطان نفسه في السرايغلو. وفي هذا الجو الفاسد، كان الطامعون يحصلون على مناصب في الوزارة، ثم يعزلون منها بسرعة، وذلك حسب أهواء الحريم والمحظيات اللاتي تسلّطن على السلطان الشاب، وبقدر الهدايا والأموال التي كانت تدفع لهن ولرئيس ديوان الحريم.

وكان طبيعياً أن تتفاقم الأزمات التي أخذت بخناق الدولة، وأن تزداد الأخطار التي كانت تهددها، سواء من الداخل أو من الخارج. ففي أوربا ظلت الجيوش العثمانية تشتبك في حروب متواصلة مع النمسا. أما في الشرق فالأخطار كانت أشد، إثر الانتصارات الكبيرة التي حققتها الجيوش الصفوية، في عهد الشاه عباس الصفوي. ومما ضاعف من وقع وخطورة انتصارات الشاه عباس ضد الجيوش العثمانية المحتلة، تزامنها مع الثورات الداخلية التي كانت تستعر في أقاليم الأناضول، التي عمت فيها الفوضى واستشرى فيها الفساد الإداري.

وقد بلغ الفساد الإداري والظلم حداً اضطر فيه ديوان السلطان أن يعمم في سنة ١٦٠٩م على حكام الولايات، مذكرة باسم السلطان أحمد، جاء فيها: [(١)]

...إنكم تخرجون للتجول في ولاياتكم، ليس لأداء الواجب بل لنهب أموال الناس بصورة غير قانونية...وفي جولاتكم التفقدية، كما تسمونها .! فإنكم تقترفون

---

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P٢٨٤

العديد من المخالفات القانونية، وكمثال على ذلك، لو سقط شخص ما، من أعلى شجرة وقضى نحبه، فإنكم تصدرون حكماً يقول إن ذلك الحادث جريمة قتل متعمد. ثم تخرجون بحجة البحث عن القاتل، وتمسكون بالناس وتكبلونهم بالحديد، ثم تستحوذون على ما يملكون من نقود ذهبية وفضية باسم دية القتيل. ثم تصادرون من تلك الأرياف ما يملكه القرويون من خيول وبغال وحبوب وأعلاف وأخشاب وأغنام وماعز ودجاج وسمن وعسل وما تجدونه من مؤنه. وفوق كل هذا فإنكم تضمنون أملاككم بتقديرات عالية، ثم يخرج أصحاب الضمان إلى الأرياف تصحبهم أعداد كبيرة من الفرسان. وبدلاً من الاكتفاء بتحصيل حقكم كما يحدده القانون، أو كما هو مدون في السجلات الرسمية، فإنهم ينهبون ويتجاوزون على حقوق الغير، ويجمعون ما باستطاعتهم من الأموال منهم.

معاهدة الصلح مع الشاه عباس الصفوي

في عام ١٦١٢م اضطرت الحكومة العثمانية، بعد أن توالت هزائم جيوشها أمام الجيوش الصفوية، إلى توقيع معاهدة للصلح مع الشاه عباس الصفوي. تخلت له فيها عن جميع الأقاليم والقلاع والحصون الصفوية التي استولى عليها العثمانيون منذ عهد السلطان سليمان الأول. كتب محمد فريد عن تلك المعاهدة فقال:

في سنة ١٦١١م تراسلت الدولتان على الصلح وتم الأمر بينهما في سنة ١٦١١م، بمساعي نصوح باشا الذي تولى منصب الصدارة بعد موت قويوجي مراد باشا، على أن تترك الدولة العلية لمملكة العجم جميع الأقاليم والبلدان والقلاع والحصون التي فتحها العثمانيون في عهد السلطان الغازي سليمان الأول القانوني بم فيها مدينة بغداد.

وهذه أول معاهدة تركت فيها الدولة بعض فتوحاتها. ويمكننا القول بكل أسف وحزن إنها كانت فاتحة الانحطاط وأول المعاهدات المشؤومة التي ختمت بمعاهدة برلين الشهيرة.[1]

وفي سنة ١٦١٧م توفي السلطان أحمد وله من العمر ٢٧ عاماً، وبالنظر لصغر سن ولده عثمان، أخرج الانكشارية الأمير مصطفى المختل العقل من "القفص"، وأجلسوه على عرش آل عثمان، بعد أن قضى قرابة ١٤ عاما معزولاً عن العالم الخارجي، لم ير أثناءها سوى الخدم والجواري.

السلطان مصطفى الأول

في تلك الفترة المضطربة، ارتقى عرش آل عثمان سلطان مختل العقل لا يدري ماذا كان يجري حوله، بعد أن عاش معزولا عن العالم الخارجي معظم سنين حياته. وهذا زاد من حالة الارتباك والفوضى في اسطنبول، التي كان الانكشارية يعبثون بمقدراتها. وبعد مرور ثلاثة شهور، اقتنع الجميع بأن استمرار الحال بتلك الصورة لابد أن تأتي بنتائج وخيمة، يمكن أن يحترق فيها الأخضر واليابس. ولذا تدخل الانكشارية مرة أخرى، وقاموا بعزل السلطان مصطفى وأعادوه إلى محبسه في "القفص"، ونصبوا مكانه عثمان بن السلطان أحمد، الذي لم يكن قد بلغ الرابعة عشرة من عمره.

---

(١) محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٧٢

السلطان عثمان الثاني

بعد مرور أكثر من ثلاثة قرون على تأسيس الدولة العثمانية، ارتقى العرش سلطان يحمل اسم مؤسسها. وقد رحب الانكشارية بارتقائه العرش، لأنهم قبضوا إنعاماتهم التقليدية مرتين خلال ثلاثة أشهر.

كان السلطان عثمان شاباً معتداً بقوته ومهارته في استعمال السلاح، وكان على قلة تجربته في الحياة وحداثة سنه، يحاول التشبه في تصرفاته بأجداده الفاتحين. وفي سنة ١٦٢١م حشدت الدولة جيشاً جراراً بهدف احتلال مملكة بولندا، وذلك للحد من اتساع نفوذ دولة الروس، الذي أخذ يتعاظم في تلك الأيام.

في تلك الحملة العسكرية قرر السلطان الشاب الخروج للحرب بنفسه، وقبل مغادرته اسطنبول، صدر الأمر بقتل أخيه الأمير محمد، وصدر أمر آخر يقضي بتقليص سلطات المفتي، الذي اتسع نفوذه، مما أثار حفيظة العناصر العسكرية التي كانت تصر على احتكار السلطة. بعد إتمام تلك الإجراءات باشرت الجيوش العثمانية زحفها نحو مملكة بولندا، والسلطان الشاب تراوده أحلام فتوحات جديدة تضاهي فتوحات جده سليمان القانوني.

ومنذ البداية واجهت الجيوش العثمانية مقاومة بولندية عنيدة، أنزلت بالعثمانيين خسائر فادحة بالرجال والمعدات. وبالرغم من تحمس السلطان عثمان ورغبته في الاستمرار في الحرب، واستعداده للنزول والمشاركة في القتال، فإن الانكشارية ارتأوا عكس ذلك. فقد ولى ذلك الزمان الذي كانت فيه تلك الفرق المنضبطة تذهب للحروب وتقاتل بروح فدائية منقطعة النظير، بعد أن أفسدت سلطة الحكم وملذات الحياة تلك الروح العسكرية العالية، وحولت الانكشارية إلى فئة تتلذذ بالحكم والتسلط ورغد العيش. وعليه قرر الانكشارية عدم الاستمرار بالحرب، وأرغموا السلطان عثمان على إيقافها وقبول الصلح.[١]

---

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P٢٩٢

وهكذا تم التوقيع على معاهدة الصلح في سنة ١٦٢١م. بعد ذلك انسحبت الجيوش العثمانية، وعادت أدراجها بعد أن تكبدت خسائر فادحة بالرجال والمعدات والخيول. وبالرغم من أن الحكومة العثمانية ادعت انتصار جيوشها على الأعداء، فإن السلطان عاد إلى اسطنبول، وهو في أشد الغضب على الانكشارية.

في اسطنبول أخذت العلاقات تتوتر وتسير من سيئ إلى أسوأ بين السلطان الشاب والعسكر الانكشاري، الذي تحول إلى قوة فاسدة يتسكع أفرادها في حانات الخمور التي انتشرت في مختلف أنحاء اسطنبول، يثيرون الشغب والاضطرابات وهم سكارى في الشوارع والأسواق. أما في ساحات المعارك، فكانوا يتخاذلون ويحجمون عن القتال ويتمردون على سلطانهم في أحلك الساعات، بينما ازدادت شكاواهم ضد السلطان، وباتوا يتهمونه بتقليل إنعاماتهم في الحروب.

بمرور الأيام كانت شقة الخلاف بين الانكشارية والسلطان عثمان الثاني تتسع. وفي ذلك الجو السياسي المتشنج، التف نفر قليل من الوزراء حول السلطان، وأخذوا يشجعونه على بعث حركة إصلاح جديدة، ربما تنقذ الدولة من الانهيار.

اقتنع السلطان الشاب عثمان بضرورة إصلاح الحال، بالرغم من الأخطار التي كانت تحيق بذلك المشروع. بدأت تحركات سرية رسمت بموجبها خطة طموحة، استهدفت القضاء على الانكشارية والسباه وبقية العناصر العسكرية الفاسدة، المتمركزة في العاصمة اسطنبول وباقي الولايات. وبموجب تلك الخطة تقرر إعداد جيش قوامه أربعون ألف مقاتل، يعدهم ويجهزهم والي ديار بكر "دلاور باشا"، على أن يتم اختيار رجاله من بين خيرة المقاتلين الترك في الأناضول، تضاف إليهم فرق أخرى من الكرد، وفرق عسكرية مرتزقة عالية التدريب والانضباط، يتم إعدادها في بلاد الشام ومصر. وبعد أن يتم تجهيز تلك الجيوش يذهب السلطان ويتولى قيادتها ويزحف بها نحو العاصمة اسطنبول للقضاء على الانكشارية ومن لف لفهم.

أقدم السلطان عثمان الثاني على ذلك العمل الخطير، عله يتمكن من العودة بالتاريخ إلى الوراء إلى أيام أجداده الفاتحين. وتشاء مفارقات التاريخ أن يعتمد السلطان عثمان الثاني في تنفيذ ذلك المخطط الخطير، على رجال الترك من سكان الأناضول، وهم الرجال الذين أبعدهم جده السلطان أورخان، وحجم دورهم في قواته العسكرية، وسلط عليهم مماليكه في جيشه الجديد الانكشاري.

وحينما جاء وقت التنفيذ، أعلن السلطان عثمان الثاني، في ربيع سنة ١٦٢٢م عزمه على زيارة الديار المقدسة لأداء فريضة الحج. وبدأت الاستعدادات لتنفيذ تلك الخطة تحت ستار خروج السلطان للحج، بالرغم من معارضة بعض رجال الدولة. وبموجب تلك الخطة، كان من المفروض أن يخرج السلطان من اسطنبول ويتوجه إلى الشام بحجة قمع ثورة عربية قامت هناك بقيادة أمراء الدروز، ثم يباشر بتنفيذ الخطة الحقيقية.

يبدو أن قلة خبرة السلطان، وعدم توخيه الحيطة والحذر، أثار شكوك ومخاوف رجال الانكشارية. وقد تأكدت شكوكهم بنوايا السلطان، حينما صدرت الأوامر بنقل جميع الخزائن الإمبراطورية، بما في ذلك المجوهرات والحلى والمسكوكات الذهبية وسرادق السلطان إلى البر الآسيوي. ويقال إن المفتي وبعض الوزراء، ساهموا في تسريب أسرار تلك الخطة.

حال انكشاف أمر السلطان، قرر الانكشارية إعلان الثورة، وزحفوا بجموعهم وضربوا الحصار عليه، وطالبوه بتسليم الوزراء الضالعين بتلك المؤامرة. وحينما رفض السلطان طلبهم، اقتحم الانكشارية قصر الصدر الأعظم وقصر وزير آخر ونهبوها.

بعد أن تفاقم الأمر وأخذ أبعاداً خطيرة أعلن السلطان تراجعه، وإلغاء استعداداته للسفر. غير أن ذلك الإعلان جاء بعد فوات الأوان، إذ هتف الانكشارية مطالبين بعودة السلطان مصطفى. ثم اندفعت جموعهم الغاضبة، واقتحم بعضهم جناح الحريم في قصر السلطان. وهناك أخذوا يبحثون عن السلطان مصطفى

المحجوز بالقفص. وبعد التفتيش والبحث عثروا على المسكين مصطفى، وقد اختبأ في إحدى الحجرات الداخلية، وهو يرتعد من الخوف وقد مضى عليه ثلاثة أيام بدون طعام أو شراب. وحينما اقترب منه رجال الانكشارية أخذ يتوسل ويتضرع إليهم أن لا يقتلوه. وحينما وجد الانكشارية السلطان مصطفى بتلك الحال، أتوا بالسلطانة الوالدة التي أخذت تهدئ من روعه، ثم جلب له الانكشارية الماء وخرجوا به إلى باحة القصر وأعلنوا إعادة تنصيبه على عرش آل عثمان.

في تلك الأثناء شاهد الانكشارية، الصدر الأعظم، ورئيس ديوان المحظيات، يحاولون الهروب متسللين من باب قصر الحريم. فأمسكوا بهما، ثم تناولتهم سيوف الانكشارية وقطعتهم إرباً إربا.

أما السلطان عثمان فقد اختبأ هو الآخر في جناح الحريم. وللقبض عليه، اقتحم الانكشارية جناح الحريم مرة أخرى وفتشوه. وبعد العثور على السلطان عثمان، اقتادوه إلى ثكناتهم وأشبعوه سبا وإهانة. فأخذ السلطان يتضرع لآسريه ويتوسل إليهم ويكرر اعتذاره لهم. وكان يخاطبهم بقوله، يا مشايخ الانكشارية وأغوات السباه أنا ولدكم، وكنت غراً قليل التجربة في الحياة، ولذلك أصغيت للمشورة الفاسدة. أنا نادمٌ على ما أقدمتُ عليه، فلماذا تذلونني وتهينونني بهذه الصورة؟ وأنا سلطانكم. كان يكرر اعتذاره، ويقسم لهم ويقول: أنا ولدكم، ومنذ الساعة سأطاوعكم ولا أخرج عن مشورتكم. ولكن صيحات الانكشارية تصاعدت وهم يقولون لا نريدك سلطانا علينا ..! . لأنك من دم فاسد، وعليك أن تموت.

حمل الانكشارية السلطان عثمان إلى القلعة ذات الأبراج السبعة، التي كانت تحوي في السابق، خزائن السلطان سليمان الأول. وأحضروا إلى القلعة، داود باشا وعمر باشا الكيخيا وقلندار أوغلي وغيرهم من كبار رجال الدولة، وقتلوا أمامهم السلطان الشاب عثمان الثاني. ثم قطعوا أذنه وبعثوا بها إلى والدته المفجوعة، التي وافقت بالإكراه على قتل ولدها السلطان، ولم يكن قد جاوز الثامنة عشرة من عمره.

كان عثمان الثاني، أول سلطان عثماني يقتله الانكشارية بتلك الصورة المأساوية. وهم المماليك من غير الجنس التركي..!.، والذين جلبهم جده السلطان أورخان من أقاليم أوربا المسيحية، وكون منهم جيشا غريباً عن مجتمعات الترك، لحماية عرشه والتوسع في فتوحاته. وتشاء مفارقات التاريخ أن يكون اسم السلطان المقتول مرادفاً لأسم مؤسس ذلك العرش..!.

اسطنبول تحت رحمة الانكشارية

بعد حادثة مقتل السلطان عثمان الثاني، التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الدولة العثمانية. انهارت الأوضاع وضربت الفوضى أطنابها في العاصمة اسطنبول. فقد تسلط العسكر الانكشاري، وأخذوا يرتكبون الفضائع بدون رادع، ويقتلون الناس على الشبهة وينهبون أموالهم. وفي تلك الأثناء، كانوا يعزلون الوزراء وكبار رجال الدولة، وينصبون غيرهم حسب نزواتهم، وعلى قدر ما كان يدفع لهم إزاء تلك المناصب. وبالرغم من أن بيع وشراء المناصب كان معروفاً منذ زمن بعيد، فإن ما كان يحدث في تلك الأيام في اسطنبول تجاوز كل الحدود، وانحدر إلى مستويات لم تشهدها الدولة من قبل.

بعد أيام من مقتل السلطان عثمان، عزل الانكشارية الصدر الأعظم داود باشا الذي أشرف على جريمة قتل السلطان والتمثيل به. وبعد ذلك صارت الحكومة ألعوبة بأيديهم، واستمر الحال كذلك ثمانية عشر شهراً لم تشاهد أثنائها اسطنبول الأمن والسكينة.

أوضاع الدولة العامة

بعد انتشار أخبار مقتل السلطان عثمان الثاني وما كان يجري في العاصمة اسطنبول، انفجرت الثورات في أنحاء مختلفة من البلاد، خاصة في أقاليم الترك بآسيا الصغرى. فقد أعلن الثورة والي أرضروم، الذي كان طرفا رئيسيا في حركة السلطان عثمان ضد الانكشارية والسباه، وزحف بجيشه الذي كان مهيئا لذلك

الغرض، واستولى على سيواس وأنقرة. وبعد أن سيطر على تلك الولايات، قام بقتل كل من عثر عليه من رجال الانكشارية والسباه، وصادر أراضيهم وإقطاعياتهم وما كان بحوزتهم من أموال وذخائر. في تلك الأثناء انظم إلى الثورة والي سيواس والعديد من حكام وسط الأناضول، الذين نكلوا بدورهم بالانكشارية في تلك المناطق. ثم زحفت جيوش الثائرين نحو بورصة عاصمة العثمانيين القديمة ومركز الحركات الصوفية، واستولت عليها بعد حصار دام ثلاثة أشهر.

برزت في جميع تلك الثورات، ظاهرة انتقام الثوار من رجال الانكشارية والسباه، باعتبارهم قتلة السلطان عثمان الثاني. وهكذا أصبحت تلك الثورات، بالنسبة للترك وهم السكان الأصليون، رمزاً للقضاء على العسكر الانكشاري. أولئك المماليك الدخلاء، الذين عاثوا في الأرض فساداً، واستعبدوا الترك الذين استوطنوا تلك البلاد منذ أيام السلاجقة.

من الجدير بالملاحظة إن مشاعر العداء ضد الانكشارية، لم تقتصر على السكان الترك في الأناضول، إذ سرعان ما امتدت نيران الثورة إلى ولايات أخرى، مثل طرابلس الشام، فقد ثار واليها وأعلن استقلاله، وطرد العسكر الانكشاري من ولايته.

أما في اسطنبول فقد استمرت أعمال الشغب والفوضى وقتل الناس الأبرياء ونهب أموالهم. وبعد مضي أكثر من سنة ونصف على ذلك الحال، نسب الانكشارية أحد رجال الدولة المدعو (كمانكش علي باشا)، لمنصب الصدارة لتوسمهم فيه الخبرة السياسية والإدارية. فأشار عليهم بوجوب عزل السلطان مصطفى، لعجزه ووهن قواه العقلية. وطلب اتخاذ ما يلزم من الإجراءات، لتفادي الانهيار التام الذي سيكون وبالاً على الجميع. وبالنظر لتأزم الأوضاع أقر الانكشارية ما أشار به الوزير. وفي شهر أيلول من سنة ١٦٢٣م عزل الانكشارية السلطان مصطفى وأعادوه إلى محبسه في "القفص"، ونصبوا مكانه السلطان مراد الرابع بن السلطان أحمد الأول وكان له من العمر أربعة عشر عاما.

الفصل السادس

حكومة بكر صوباشي في بغداد

منذ بداية القرن السابع عشر ميلادي بلغ تردي الإدارة في بغداد حداً، شوش على الباحثين تتبع وقائع الولاة وأعمالهم، إذ كانوا يتولّون ويعزلون من مناصبهم ثم يعاد تعيين بعضهم مرة أخرى.

حكومة ابن الطويل

في سنة ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م صدر الأمر السلطاني بتعيين نصوح باشا لولاية بغداد، وفي طريقه إليها، علم أن من يدعى بن أحمد الطويل، أبرز أمراً مزوراً استولى به على بغداد، وبعد أن كسب إلى جانبه جيش بغداد المحلي، أعلن نفسه والياً عليها.

في نصيبين اجتمع نصوح باشا بحاكم الجزيرة، وبأمير طي أحمد بن أبي ريشة وعدد من أمراء الكرد. وبعد أن قدم لهم الخلع، أبلغهم أمر السلطان بوجوب الالتحاق بجيشه للمشاركة في الاستيلاء على بغداد. غير أن الأحداث أثبتت، بأن جميع أولئك الرجال كانوا متحالفين مع ابن الطويل ضد حكومة اسطنبول. ولذا لم يلتحق بنصوح باشا أي منهم، بالرغم من أنه أنتظرهم بالموصل نحو أربعين يوماً. وقد ظهرت له حقيقة الأمر، بعد أن عثر على كتاب من أمير الكرد سيد خان، موجه إلى ابن الطويل يقول له فيه: إننا نجحنا في تأخير نصوح باشا، ومنعنا باقي الكرد من الالتحاق به، فعليك أن تصمد كرجل شجاع، ولا تدع بغداد تخرج من

يديك. وبينما كان في حيرة من أمره، ورد إليه أمر سلطاني بوجوب الإسراع بالذهاب إلى بغداد. مما اضطره للتحرك بما لديه من رجال.

أما ابن الطويل فقد تعزز موقفه، بعد أن جاءه المدد من أمير طي بن أبي ريشة، ومن أمراء الكرد. وفي بغداد نشب القتال بين جيش نصوح باشا وعساكر ابن أحمد الطويل من جيش بغداد الأهلي، ومن انضم إليهم من المقاتلين العرب والكرد. وخلال سويعات أنزل جيش بغداد، ومعه المقاتلون العرب والكرد، هزيمة منكرة بجيش نصوح باشا، الذي ولّى رجاله الأدبار. أما هو، فقد هرب إلى الجزيرة بعد أن أصيب بجروح بالغة.

في أثناء ذلك قُتل ابن الطويل فتسلط بعده على بغداد ابنه محمد ، ثم تولى بعده أخوه مصطفى. وفي سنة ١٦٠٧م عينت الحكومة للمرة الثانية، محمود جغالة باشا لمنصب ولاية بغداد، وأوكلت إليه قيادة الجيش. ومحمود باشا هذا هو الذي تملك في ولايته الأولى، مقاطعة "المحمودية" جنوب بغداد.

سار محمود باشا على رأس جيش كبير واستولي على بغداد. وفي السنين التي تلت ولاية محمود باشا، حكم في بغداد عدد من الولاة أخبارهم مشوشة، كان آخرهم الوالي يوسف باشا. توالت كل تلك الأحداث، في عهد السلطان المختل العقل مصطفى الأول.

الوالي يوسف باشا

في عهد الوالي يوسف باشا، تعاظم في بغداد نفوذ ضابط انكشاري يدعى بكر صوباشي[1]، كان في بادئ أمره من أفراد الانكشارية، وارتقى سلم العسكرية

(١) الصوباشي في النظام الإداري العثماني يجمع بيده سلطة حفظ الأمن وسلطات البلدية وفي حالة بغداد كان بمثابة الحاكم العسكري والمدني مع وجود الوالي.

حتى نال رتبة صوباشي في بغداد. وبعد ذلك نال رتبة أغا الانكشارية أي القائد الأعلى للانكشارية.

بعد أن نال بكر صوباشي هذين المنصبين، أصبح يتحكم بالقوات العسكرية العثمانية في بغداد، التي تجاوز تعدادها اثني عشر ألف رجل. ومع تزايد نفوذه وسلطته، أخذ بكر صوباشي يفرض سطوته وينشر الرعب في المدينة. فخضع له الأعيان وعلية القوم في مجتمع بغداد العثماني، وأخذوا يستجيبون له، ويخضعون لسلطته رهبة منه لا رغبة فيه.

وبمرور الأيام، أصبح بكر صوباشي الحاكم المطلق في بغداد، بالرغم من وجود الوالي الذي فقد سلطاته وصار هو الآخر يهاب قائد الانكشارية بكر صوباشي وينفذ تعليماته. ومما زاد في الطين بلة، انقطاع اتصال الوالي بحكومة اسطنبول التي كانت تعصف بها الأزمات.

في سنة ١٦٢١م انفجرت ثورة عشائرية أخرى في أرياف العراق. فجهز بكر صوباشي جيشاً كبيراً وسار به للقضاء على الثورة، وأقام ابنه حاكماً على بغداد، وكان حينئذ رئيس كتيبة خيالة (بلوك باشي). استغل الوالي يوسف باشا غياب بكر صوباشي، فأخذ يجمع القوى السياسية والعسكرية المناوئة أملاً في استعادة سلطته المسلوبة. قال العزاوي:

... حينئذ دعا السباه والعزب[1] والأشراف والأعيان ممن في بغداد وشاورهم في الأمر، واتفقت كلمتهم على لزوم استئصال بكر وأعوانه وإبادتهم كلهم ووجوب مراعاة النظام وإنهاء هذه الحالة المضطربة.[2]

---

(١) العزب: صنف من عسكر المشاة المحليين كان يشترط أن يكونوا من غير المتزوجين، ولذا أطلق عليهم إسم العزب.

(٢) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٤ص١٦٦

غير أن الموازين العسكرية لم تكن بجانب الوالي. إذ كان من ثوابت السياسة العثمانية، أن لا تسمح للولاة امتلاك قوة عسكرية يمكن أن توازي قوة العسكر الانكشاري، المرتبط مباشرة بالسلطة المركزية في اسطنبول. بعد أن قضى بكر صوباشي على ثورة العشائر العراقية، عاد منتصراً إلى بغداد، ليجد أبوابها مغلقة بوجهه.

الصوباشي يستولي على بغداد

ضرب بكر صوباشي الحصار حول بغداد، بينما تحركت جماعات موالية له من الداخل، ورفعت السلاح بوجه الوالي. وهكذا نشبت معارك دامية داخل بغداد ذهب ضحيتها أعداد كبيرة من الطرفين. في تلك الأثناء عبر بكر صوباشي نهر دجلة، وشن هجوماً كاسحاً على قوات الوالي. وفي أثناء تلك المعارك، قُتل الوالي وهرب أعوانه واعتصموا بالقلعة في السراي، ولكنهم استسلموا بعد بضعة أيام.

بعد الاستيلاء على بغداد والقضاء على الوالي، أصبح بكر صوباشي حاكماً مطلقاً مستقلاً عن سلطة اسطنبول. ولتوطيد أركان سلطته، شن بكر صوباشي حملة شعواء ضد المخالفين له، قتل أثناءها الكثيرين منهم ونهب أموالهم، وجرد الباقين من السلاح. بعد أن سيطر على الموقف العسكري، استحوذ بكر صوباشي على ما كان مخزوناً في بغداد من سلاح وعتاد "الجبة خانة". ثم كتب في سنة ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢م إلى والي ديار بكر حافظ أحمد باشا، وكلفه أن يكتب إلى السلطان ويطلب منه أن يصدر عفواً عن بكر صوباشي ويعينه والياً على بغداد. ولكن حكومة اسطنبول اتخذت موقفا مغايراً، إذ اعتبرت بكر صوباشي عاصياً يستحق العقاب. وعليه أصدر السلطان فرماناً عين بموجبه سليمان باشا والياً على بغداد، ثم صدر الأمر إلى حافظ أحمد باشا بالتوجه بعسكر ديار بكر إلى بغداد للقضاء على تمرد بكر صوباشي.

الوالي سليمان باشا

جهز سليمان باشا المعين لولاية بغداد، جيشاً كبيراً انضم إليه أمير أمراء الموصل ووالي كركوك وأمراء الكرد، وسار على رأسهم نحو بغداد. غير أن ذلك الجيش توقف في قرية (ينكيجة) ولم يقترب من بغداد. وهكذا استمرت الحال لعدة أشهر بدون التوصل إلى نتيجة. بعد ذلك تحرك جيش الوالي وسار نحو بعقوبة وبهرز وعسكر هناك، ثم أخذ عساكر الوالي يهاجمون القرى والبلدات وينهبونها، في وقت كانت فيه بغداد تعاني من قحط عظيم.

جهز بكر صوباشي جيشاً قوامه ثمانية آلاف رجل بقيادة كتخداه عمر أغا، وبعث به من بغداد للتصدي لعسكر الوالي سليمان باشا. عبر جيش الصوباشي نهر ديالى وتقابل مع جيش سليمان باشا في محل يقال له (قباب ليث). وفي ذلك الموقع نشب قتال شديد جرح أثناءه والي كركوك. وبعد ساعات انهارت معنويات جيش الوالي واستولى الرعب على رجاله. وحينما حلّ الظلام، هرب الوالي سليمان باشا ومن تبقى من رجاله وسار نحو الشام.

نزلت أخبار تلك الهزيمة كالصاعقة على حكومة اسطنبول، فصدرت في الحال، الأوامر إلى حافظ أحمد باشا أمير أمراء ديار بكر، لتجهيز جيش عثماني كبير للزحف نحو بغداد، وإسقاط حكومة المتمرد بكر صوباشي، وإنزال أشد العقوبات به ليكون عبرة للآخرين.

كان حافظ أحمد باشا من الوزراء المخضرمين العارفين ببواطن الأمور وبحقيقة ما كان يجري في اسطنبول. وكان يرى بحسه السياسي، أهمية الإنجازات التي حققها الشاه عباس الصفوي في النهوض بدولته، التي أصبحت عسكرياً تمثل تهديداً حقيقياً للعسكرية العثمانية. ولذا كان يرى خطورة الانزلاق إلى المواقف المتشددة، خوفاً من دفع بكر صوباشي وإجباره على الارتماء بأحضان الشاه عباس الصفوي، لطلب الحماية منه.

عرض حافظ أحمد باشا رأيه على الدولة، وطلب من اسطنبول قبول الأمر الواقع والاعتراف بما حدث في بغداد، لتفادي كارثة يصعب التكهن بنتائجها وأبعادها. واقترح الموافقة على تعيين بكر صوباشي لولاية بغداد. ولكن حكام اسطنبول لم يلتفتوا إلى آراء ومقترحات أمير أمراء ديار بكر، بل حملوا ذلك على سوء الضن به، واتهموه بالرشوة، وقالوا إنه قبض أموالاً من بكر صوباشي، ليقول ما قال.

اضطر حافظ أحمد باشا، بسبب ذلك الموقف المتشدد، الإذعان لأوامر الدولة، فقام بحشد جيوش عثمانية كبيرة وزحف نحو بغداد. وفي المعارك الأولى تمكنت تلك الجيوش من إنزال الهزيمة برجال بكر صوباشي، وقتل نحو ثلاثة آلاف وسبعمائة جندي منهم وأسر أكثر من ألفين وخمسمائة آخرين، تم قطع رؤوسهم جميعاً.

بغداد تحت الحصار

بعد تلك المعارك أحكمت الجيوش العثمانية الحصار على بغداد، وشددت الخناق على بكر صوباشي. وبمرور الأيام انتشرت المجاعة بين السكان وخيم الموت على الجميع. وأمام تفاقم الأحداث ولتفادي خطر الموت والإبادة، قرر بكر صوباشي سلوك الطريق الذي تكهن به السياسي المخضرم حافظ أحمد باشا، وبعث برسول إلى الشاه عباس الصفوي يطلب منه المعونة ويعرض عليه بالمقابل الطاعة، على أن يقره في حكومة بغداد. جاء في خلاصة الأثر:

كتب (بكر صوباشي) للشاه كتاباً يقول أسلمك بغداد بشرط أن تكون الخطبة والسكة باسمك فقط، فرضي الشاه بذلك.[1]

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٤ص١٧٣

يتضح من هذه الرسالة، أن بكر صوباشي الذي استبد بحكومة بغداد، قرر الخروج على حكومة اسطنبول، التي رفضت مباركة تمرده، ومنحه الغطاء الشرعي الذي كان بمثابة الاعتراف باستقلاله. ولذا رأى طلب الحماية من الشاه عباس مقابل ارتباط شكلي بدولته، لا يتعدى حدود ذكر اسم الشاه في خطبة الجمعة، وإصدار العملة باسمه، وهذه أمور كان متعارفاً عليها في تلك الأيام. ولما كانت الدولة الصفوية لا تلتزم النظام المركزي كما كان الحال في إدارة الدولة العثمانية، قبل الشاه عباس بمقترحات بكر صوباشي، التي كانت ستعيد العراق إلى حظيرة الدولة الصفوية ولو بتلك الطريقة الشكلية.

كان الشاه عباس في أنحاء قندهار، حينما تسلم كتاب بكر صوباشي، فخلع على الرسول وبالغ في إكرامه. وأصدر في الحال أمره بحشد جيوش صفوية كبيرة تسير نحو بغداد لفك الحصار عن بكر صوباشي، والاستيلاء عليها.

صدر الأمر إلى أمير همدان (صفي قلي خان) الذي كان من كبار زعماء التركمان الموالين للصفويين ليكون قائداً للحملة، وجعل معه حاكم اللر (حسين خان) وحاكم أردلان (أحمد خان) ورئيس قبيلة أفشار التركمانية التي ساهم رجالها في تأسيس الدولة الصفوية، وعدد أخر من القبائل التركمانية. حال وصول أوامر الشاه عباس، نهض زعماء تلك القبائل وساروا برجالهم مسرعين نحو بغداد. وحينما وصلوا خانقين ضربوا خيامهم هناك بانتظار مجيء القائد العام. كتب العزاوي نقلاً عن مصادر عثمانية:

وحينئذ وافى الخبر إلى حافظ أحمد باشا وهذا رأى أن الخطر قد حل به من جهة أن الجيش استولى عليه التعب من مشاق السفر والحروب، فإذا سمع بورود الجيوش الإيرانية تولد الوهن في قوته المعنوية. ولو خرجت عليهم الجيوش المحصورة أيضاً فلا يتيسر صد الاثنين، ولا قدرة حينئذ على مقاومتها... .[١]

---

(١) ن.م.

وحينئذ فكر في اتخاذ تدبير ناجع للنجاة من هذا المأزق الحرج، فرأى أن يؤيد بكر صوباشي ويقره في منصبه بإرسال فرمان إليه بمنصب بغداد مع الخلعة السلطانية الفاخرة... وأضاف إليه ولاية الرقة، ووجه لواء الحلة لإبنه...

في تلك الأثناء وصل صفي قولي خان إلى خانقين، وباشر بالزحف نحو بغداد، فاضطر حافظ أحمد باشا للانسحاب إلى موقع بعيد عن بغداد واستمر بمراقبة تطور الأحداث. أما بكر صوباشي، فبعد أن أستلم الفرمان السلطاني والخلعة، غير موقفه، وقرر قبول العرض الذي تقدم به حافظ أحمد باشا. ويبدو أنه رأى أن عرض حافظ باشا، سيمنحه حكماً في العراق، يكون اضمن، في ظل حكومة اسطنبول الضعيفة، التي كانت تعصف بها الأزمات، من أن يخضع لحكومة الشاه عباس.

وحين وصول الجيوش الصفوية أسوار بغداد، أوعز بكر صوباشي إلى أعيان المدينة ورجالاتها للخروج لاستقبالهم، وقام بضيافة تلك الجيوش ثلاثة أيام. قدم لهم أثناءها الهدايا الفاخرة مع بضعة أكياس من النقود. وبعث إلى صفي قلي خان كتاباً يشير فيه إلى تراجعه عما تم الاتفاق عليه مع الشاه عباس.

تشير الأخبار أن صفي قولي خان استشاط غضباً، وكتب إلى الشاه عباس بما حدث. وحال وصول تلك الأخبار إلى الشاه عباس، أمر بتجهيز جيش آخر الحق به أمراء خراسان وكرجستان وكيلان ومازندران وزحف به نحو بغداد.

قبل وصول الشاه عباس، اجتاز صفي قولي خان نهر دجلة إلى الجانب الغربي وزحف نحو الكرخ، وحين وصوله أرسل بكر صوباشي قوة من الانكشارية بقيادة نائبه (الكتخدا) عمر أغا عبروا جسر بغداد وهاجموا القوات الصفوية. وبعد معركة دامية استمرت عدة ساعات, تمكن فرسان التركمان الصفويون من أنزال هزيمة منكرة بالقوة الانكشارية، وأسر قائدها عمر أغا وعدد من كبار قادته. وهكذا سيطر الجيش الصفوي على الجانب الغربي من بغداد. بعد مرور حوالي أسبوعين من تلك المعركة، وصل الشاه عباس. وبوصوله أحكمت الجيوش الصفوية الحصار

حول بغداد من جانبيها الشرقي والغربي، ونُصبت حولها المدافع، التي أخذت تمطر المدينة بوابل من قنابلها.

أرسل بكر صوباشي رسولاً إلى حافظ أحمد باشا، ليشرح له واقع الحال ويطلب منه العون والمدد. ولكن حافظ أحمد باشا كان عاجزاً عن إمداد بكر صوباشي. ولذا كتب إلى الصدر الأعظم في اسطنبول، شرح له الوضع العسكري في العراق، وطلب منه إرسال الجيوش اللازمة لفك الحصار عن بغداد.

كانت اسطنبول في تلك الأيام غارقة في مشاكلها وأزماتها، ورجال الحكم منشغلون بمسألة عزل السلطان المختل العقل مصطفى الأول، وجلوس السلطان الصبي مراد الرابع، وفي زحمة تلك الأحداث لم يهتم أحد في اسطنبول، بما كان يجري في بغداد. وأمام ذلك الإهمال وعدم الشعور بالمسؤولية من قبل اسطنبول، خشى حافظ أحمد باشا على نفسه، فانسحب إلى ماردين.

اشتد الحصار على بغداد، وانتشرت المجاعة بين السكان وأخذت علائم الضعف تظهر على بكر صوباشي وعلى عساكره الذين تناقصت ذخائرهم ومعداتهم العسكرية. وبعد انتظار طويل، استولى اليأس عليهم وفقدوا الأمل بوصول الإمدادات الموعودة من اسطنبول. في تلك الأثناء اتصل ابن بكر صوباشي محمد، الذي كان مسؤولاً عن حراسة القلعة الداخلية، وأبدى للشاه عباس استعداده للتعاون وتسليم بغداد، على أن ينعم عليه الشاه ويوليه الأمر. وحينما جاءت موافقة الشاه، فتح ابن بكر صوباشي باب القلعة الخلفية المؤدية إلى شاطئ نهر دجلة، وسمح للقوات الصفوية بالدخول. وفي تلك الليلة دخل تحت جنح الظلام، نحو عشرة آلاف مقاتل. وعند الفجر ضربت الأبواق وأعلن استسلام بغداد.

بعد الاستيلاء على بغداد، قتل الشاه عباس بكر صوباشي وأخاه عمر أفندي. جاء في تاريخ العزاوي:

... وبعد أن البسوا الخلع إلى محمد بن بكر صوباشي وتوابعه وأكرموهم بإنعامات، أعلن للعموم بأن يبقى كل في مكانه وباستراحته وأن الشاه آمن الكل وانه لا ضرر على الشيعة والسنة وأن تفتح الأسواق كالمعتاد... ثم القوا القبض على بكر صوباشي وعلى أخيه عمر أفندي... .[١]

وجاء في خلاصة الأثر:

وبكر باشا هذا رومي الأصل سكن بغداد وصار من أكابر عسكرها، تغلب عليها وانبسطت يده على ممتلكاتها حتى صار إذا جاءت وزراؤها متولين عليها لا ينفّذ حكمهم، وهو الذي أدخل الشاه بغداد، وقتله الشاه وأخاه عمر وولده شر قتلة، وكان قتلهم سنة ١٠٣٢هـ (١٦٢٣م). [٢]

وتشير بعض المصادر إلى أن الشاه عباس كان قد عزم على قتل بعض رجال الدين من أهل السنة، وقد أدرج أسماء أولئك الرجال في قوائم خاصة للقضاء عليهم، ولكن نقيب الأشراف وكليدار الأمام الحسين السيد دراج، استشفع لهم وحال دون قتلهم. جاء في تاريخ العزاوي:[٣]

وكان في نية الشاه أن يقضي عليهم جميعاً، ولكن الكليدار للإمام الحسين (رض) نقيب الأشراف في بغداد السيد دراج، من رؤساء الشيعة وله جاه عند الشاه استشفع بالكثيرين، إذ أدخلهم في دفتره وبين أنهم من محبي أهل العبا فتمكن من إنقاذهم، وكان صاحب رحمة وشفقة... .[٤]

بعد استيلاء الشاه عباس على بغداد، شكا أهل الموصل أمرهم له من جراء ما كان ينالهم من ظلم الحاكم العثماني، فبعث إليهم قاسم خان، وهو من زعماء

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٤ص١٧٩

(٢) ن.م. ج٤ص١٨١

(٣) ن.م. ج٤ص١٨٠

(٤) السيد دراج هو جد السادة الأشراف آل النقيب في كربلاء، ويبدو أنه كان يجمع بين نقابة الأشراف وسدانة مقام الأمام الحسين في كربلاء، ولكن السدانة انتزعت منهم في فترة لاحقة

التركمان الذين ساهموا في فتح بغداد. خرج قاسم خان من بغداد إلى كركوك، وقبل وصوله هرب منها حاكمها العثماني وتوجه إلى ديار بكر، فدخلتها القوات الصفوية بدون حرب، ومن كركوك اتجهت نحو الموصل، التي لم تكن تحصيناتها محكمة، واستولت عليها من دون مقاومة.

الباب الثالث

العراق في العهد الصفوي الثاني

١٦٢٣م _ ١٦٣٨م

الفصل الأول

إيران والشاه عباس الصفوي

بعد وفاة الشاه طهماسب ارتقى العرش ابنه الثالث حيدر ميرزا، غير أنه قتل بعد فترة وجيزة. وبعد مقتله تولى ابن طهماسب الرابع إسماعيل، ولكن أيام حكمه لم تطل هو الأخر، وقد عرف عنه إنه كان فاسداً قضى أيامه منغمساً في شهواته، ولذا ثار عليه أهل خراسان، ونادوا بمحمد ميرزا وهو أكبر أولاد طهماسب سلطاناً عليهم.

كان محمد ميرزا، كفيف البصر ضعيف الرأي، وبصورة عامة غير مؤهل للحكم. ولذا أهمله طهماسب، وعينه والياً على خراسان. وحينما تولى الشاه إسماعيل بن طهماسب الحكم، أمر بقتل أخيه الأكبر محمد ميرزا وأولاده، غير أن الجلاد لم يشأ تنفيذ الأمر لحلول شهر رمضان. وقبل انصرام الشهر توفى الشاه إسماعيل، فنجا محمد ميرزا وأولاده من سيف الجلاد. وكان من بين الناجين طفل صغير أسمه عباس، قدر له أن يكون من أعظم ملوك إيران.

بعد وفاة الشاه إسماعيل، تولى العرش الشاه محمد ميرزا، المعروف بضعف الرأي. وفي أيامه انتشرت الفتن والاضطرابات، والانقسامات التي أضعفت البلاد. في سنة ١٥٧٧م، (في عهد السلطان مراد الثالث) أستغل العثمانيون حالة الضعف التي آلت إليها الدولة الصفوية، فشنوا ضدها حرباً مباغتة كان نتيجتها، سلسلة الحروب والأحداث، التي انتهت بعقد صلح سنة ١٥٨٥م. والذي تنازل الصفويون

بموجبه للدولة العثمانية، عن إقليم الكرج وشيروان ولورستان، وبعض مناطق أذربيجان بما في ذلك عاصمة الصفويين الأولى تبريز.

في نهاية تلك الفترة المضطربة، وفي سنة ١٥٨٦م شعر الشاه محمد ميرزا، بعجزه التام في مواجهة مشاكل البلاد، التي كانت تتفاقم بمرور الأيام. ففوض الأمر إلى ابنه الشاه عباس الأول، الذي اعتلى العرش في خراسان وهو في السابعة عشرة من عمره.

تسلم الشاه عباس مقاليد الحكم، في فترة تعاظمت فيها قوة قبائل الأزبك، التي اجتاحت حدود الدولة الصفوية من الشرق، وباتت تهددها بأشد الأخطار. فقد تمكنت تلك القبائل من الاستيلاء على بلدة هرات بعد حصار دام تسعة أشهر. ثم استولت على مدينة طوس المقدسة (خراسان)، التي تضم مرقد الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم. ومما يذكر أن الأزبك، قاموا بذبح أعداد كبيرة من سكان تلك المدينة المقدسة، ونهبوا كنوز مرقد الإمام الرضا، وكان من جملة ما نهبوه قطعة من الماس وصفت بأنها بحجم بيضة دجاجة. وبعد طوس استولى الأزبك على نيسابور وأسفرايين وطبس وغيرها من مناطق شمال شرقي إيران.

أدرك الشاه الشاب عباس الأول، أبعاد الخطر المتمثل بتعاظم قوة قبائل الأزبك التي اجتاحت أقاليمه الشرقية، فآثر أن يصالح العثمانيين لكي يتفرغ لمحاربة تلك القبائل. وقد تم له ذلك في سنة ١٥٩٠م، حيث عقد معاهدة صلح مع الدولة العثمانية. تعهد فيها أن يسلم للعثمانيين بعض الأقاليم الصفوية، وأن يمنع رعاياه من سب الخلفاء الثلاثة. وبعد أن سوى الشاه عباس أمره مع العثمانيين، زحف بالجيش الصفوي نحو مدينة مشهد، التي كانت تحت الاحتلال. وبعد معارك ضارية، تمكن من طرد قبائل الأزبك من تلك المدينة المقدسة. غير أن الحرب لم تنته عند ذلك الحد، بل واصل الشاه عباس حربه ضد تلك القبائل حتى تمكن من سحقها بالقرب من مدينة هرات، التي استولى عليها في سنة ١٥٩٧م.

أبدى الشاه عباس منذ بداية حكمه، اهتماماً بالغاً في إعادة تنظيم وتسليح القوات الصفوية. ويبدو أن أكثر ما كان يشغله من هذا الأمر، هو تمادي أمراء العسكر القزلباش، في التدخل في شؤون الدولة، التي قسموها إلى مناطق نفوذ فيما بينهم. تلك الظاهرة التي باتت تهدد وحدة البلاد. فنحن نعلم أن الدولة الصفوية قامت على قاعدة صوفية شيعية، عمادها القبائل التركمانية الموالية للبيت الصفوي. ومن رجال تلك القبائل تكونت كتائب القزلباش، التي قوضت كيان إمبراطورية الآق قوينلو. وكان طبيعياً أن يحمل البيت الصفوي معه إلى الحكم أمراء القزلباش، الذين حملوه إلى العرش. وفي خضم أحداث الثورة وتطور الدولة الفتية، صار أمراء القزلباش حكام وأرستقراطي العهد الجديد. ولابد أنهم انتهزوا حالة الفراغ والتخلخل السياسي الذي أعقب وفاة الشاه طهماسب، فتمادوا في التدخل في شؤون الدولة وأمور السياسة، بصورة كادت أن تعطل مسيرة الحياة في الدولة. وبسلوكهم هذا ظهروا وكأنهم يقتفون خطى المؤسسة العسكرية الانكشارية، التي تسلطت على الدولة العثمانية، وأخذت تعبث بمقدراتها حسب ما تشاء لها مصالحها الذاتية.

ويبدو أن الشاه عباس، الذي ترعرع في تلك الفترة العصيبة وعاش أحداثها، كان قد تعلم، بالرغم من حداثة سنه دروساً قاسية أساسها فشل والده وأعمامه في الإمساك بمقاليد الحكم، والحفاظ على وحدة البلاد. وكان واعياً للأخطار التي كانت تحدق بعرشه وبالدولة الصفوية، التي توقفت فيها عجلة الإصلاح.

في تلك الفترة أخذ أمراء القزلباش يشاغبون على الشاه عباس، ويعملون على عرقلة خططه في إصلاح الدولة وإعادة وحدتها. إذ رأوا أنها ستؤدي إلى تحجيم دورهم السياسي، وتحد من سلطاتهم المطلقة في البلاد. ولكن الشاه عباس خاطر في التصدي لهم، وأتخذ على عاتقه مهمة الضرب على أيديهم. وبالرغم من حداثة سنه، فقد أثبت الشاه عباس، أنه يمتلك من الشجاعة والدهاء ما يؤهله للتصدي لتلك الأخطار، وأن لديه القدرة على تغير مسيرتها قبل فوات الأوان.

تمسك الشاه عباس، بسياسة حازمة تجاه القزلباش، ففتك بأمرائهم وشتت شملهم، واستبدلهم بفرق من المقاتلين الموالين له، عرفوا بـ"شاهي سيون" أي محبي الشاه. والمعروف أن "شاهي سيون" هم مجموعات من القبائل التركمانية الشيعية الموالية للصفويين، هجرهم العثمانيون من ديارهم في أقاليم الأناضول إلى المناطق الصفوية، فدعاهم الشاه عباس، وكون منهم فرق عسكرية جديدة موالية له.

ومن مفارقات التاريخ، أن تتزامن تلك الأحداث مع ما حدث في الدولة العثمانية، في عهد السلطان الشاب عثمان الثاني، الذي حاول هو الآخر القضاء على العسكر الانكشاري، والنهوض بالدولة العثمانية مرة أخرى. ولكن خطته انكشفت، فأمسك الانكشارية بذلك السلطان المسكين، وسحبوه إلى القلعة وتمادوا في أهانته وإذلاله، ثم قتلوه شر قتله.

في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، زار إيران البريطانيان السير أنطوني شيرلي وأخوه السير روبرت، وكان في حاشيتهما مهندس خبير بصنع المدافع. فاستعان الشاه عباس بخبرته، وطلب منه صنع مدافع ثقيلة لم تكن تمتلك القوات الصفوية مثلها من قبل.

بعد أن تمكن الشاه عباس، من تنظيم وتسليح الجيوش الصفوية، وإعاده وحدة الدولة, انتهز فرصة ضعف الدولة العثمانية، في عهد السلطان أحمد الأول. فسار على رأس جيوشه لمحاربة العثمانيين. وبعد سنتين من القتال المرير والمعارك الطاحنة، تمكن من طرد العثمانيين من عاصمة الصفويين الأولى تبريز. ثم صار بعد ذلك يكسب النصر بعد النصر، حتى انه استخلص من العثمانيين، الأقاليم الصفوية التي سبق وأن استولوا عليها. وأمام تلك الهزائم، اضطر العثمانيون للدخول بمفاوضات مع الشاه عباس، انتهت بتوقيع معاهدة سنة ١٦١٢م، التي أشرنا أليها في فصل سابق.

وهكذا حقق الشاه عباس الصفوي انتصارات عسكرية، قلبت موازين القوى في الشرق، وكانت البداية لعصر جديد في إيران، تميز بالقوة والوحدة، التي

افتقرت أليها تلك البلاد المترامية الأطراف منذ عصور. ولذا فإن الإيرانيين يعدون عصر الشاه عباس الصفوي "العصر الذهبي" في تاريخهم الحديث .

العاصمة أصفهان والنهضة العمرانية

بعد مرور نصف قرن من قيام الدولة الصفوية، قرر الشاه طهماسب نقل العاصمة من تبريز إلى قزوين. وقد قلنا في حينه إن تلك الخطوة بالإضافة إلى أبعادها العسكرية، كانت في حقيقة الأمر البداية لخروج الدولة الصفوية من إطارها التركماني الضيق، إلى الإطار الإيراني الفسيح المفعم بالحضارة الفارسية العريقة. ومما يجب تقدير أهميته التاريخية، أن ذلك التحرك الصفوي حدث بعد عدة قرون من سقوط دولة السلاجقة، الذين نشروا الثقافة الفارسية في مجتمعات الترك في طول وعرض إمبراطوريتهم الواسعة. غير أن سلاطين السلاجقة وهم من الترك، حافظوا على ازدواجية فريدة طيلة أيام حكمهم، كان أساسها تمسك الحكام السلاجقة بالقوة العسكرية، وترك الإدارة المدنية إلى العناصر الفارسية.

وحينما أقام الصفويون دولتهم في أذربيجان، بعد عدة قرون من سقوط دولة السلاجقة، أدخلوا إلى تلك المسيرة الحضارية عاملاً دينياً بحكم خلفيتهم الصوفية، كانت له أبعاد سياسية واجتماعية، غيرت واقع المجتمع الإيراني بصورة لم تشهدها أقاليم تلك البلاد من قبل. إذ تمكن الصفويون من جمع سكان إيران الذين فرقتهم الصراعات الفئوية، تحت مظلة مذهب واحد هو التشيع الصفوي، وبمرور الأيام انصهرت تلك الطوائف، جيلاً بعد جيل في بوتقة ذلك التشيع، فظهر إلى الوجود مجتمع أكثر انسجاماً، يجمعه إطار وطني موحد، لم تشهد مثله إيران من قبل. وهناك حقيقة سبق أن نوهنا بها، وهي أن التهديد العسكري العثماني الذي تواصل ضد إيران في تلك العهود، لعب دوراً أساسياً في توحيد صفوف الإيرانيين ضد عدوهم المشترك، وساعد بطريقة وأخرى، الملوك الصفويين في بناء دولتهم المنشودة.

في ضمن ذلك الإطار جاء قرار الشاه عباس، بنقل العاصمة من قزوين إلى أصفهان. إذ كان بمثابة الإعلان بولادة إيران جديدة، بوجه وطني موحد، تحت مظلة التشيع الصفوي. ولم يكن عفوياً اختيار أصفهان، لتكون محوراً لتطور تلك الظاهرة الإيرانية الصفوية.

تقع أصفهان في قلب بلاد فارس وهي مدينة عريقة بتاريخها وغنية بمساهماتها في ميادين الفكر الإسلامي. وقد ارتبط اسمها بعدد كبير من العلماء والمفكرين المسلمين. ومن العلماء العرب الذين ارتبط اسمهم بهذه المدينة، أبو الفرج الأصفهاني، صاحب كتاب الأغاني، وكان أبو الفرج شافعي المذهب أموي النجار من سلالة مروان بن الحكم. ومن المعروف أن أصفهان كانت من مراكز أهل السنة، بالرغم من كثرة الشيعة فيها. وهذا ما شاهده ابن بطوطة حينما زار تلك المدينة في عهد السلطان المغولي محمد خدابندة، وقد رسم لنا صورة مجتمعها آنذاك، في كتاب رحلاته الشهير، الذي جاء ذكره في الجزء الأول من هذا الكتاب. ولكن سياسة فرض المذهب الواحد في إيران، التي اتبعها الصفويون منذ القرن السادس عشر الميلادي، أحدثت تغيراً جوهرياً في تركيبة المجتمع الإيراني في العديد من أقاليمه. في تلك الأثناء تحولت أصفهان، إلى أحد أهم مراكز التشيع في إيران. وهكذا وقع الاختيار على أصفهان لتكون عاصمة البلاد.

وفي مضمار بناء صرح إيران الحديثة عمل الشاه عباس، على فتح طرق المواصلات وتعبيدها لربط أصفهان بمختلف مدن وأقاليم إيران، وأقام عليها آلاف القناطر والخانات ومحطات الاستراحة للمسافرين وقوافل التجار. ويقال إن عدد ما بناه الشاه عباس من تلك الخانات تجاوز الألف، كان كل خان منها يتسع لمئات المسافرين والتجار، ينزلون فيها مع دوابهم وأمتعتهم وبضائعهم، بدون دفع أي أجر على ذلك. وقد ساهمت طرق المواصلات تلك في ربط أقاليم إيران المتباعدة، وساعدت على تقارب شعوبها. إن جهود الشاه عباس العمرانية لم تقتصر على فتح الطرق وبناء القناطر والخانات، بل تعدت ذلك إلى مشاريع عمرانية أوسع شملت

عاصمته الجديدة أصفهان، التي أصبحت رمزاً لإيران الحديثة. فقد بنا فيها العمارات الفخمة والمساجد الرائعة التي لازالت محط أنظار السياح والزائرين إلى يومنا هذا. وقد أصبحت أصفهان في عهد الشاه عباس، مضرب المثل في الازدهار العمراني والحضاري، ومبعث اعتزاز الإيرانيين بعاصمتهم الجديدة. فقالوا عنها "أصفهان نصف جهان" أي إنها نصف الدنيا، بما حوته من تراث وعمران.

أما الأمر الثاني في جهود الشاه عباس العمرانية هو اهتمامه بتعمير مرقد الأمام الرضا في طوس "خراسان" وطلاء قبته بالذهب. في سنة ١٦٠١م استطاع الشاه عباس أن يسترجع قطعة الماس الكبيرة التي سرقت من المرقد الرضوي، فأرسلها إلى الخارج وباعها، بفتوى من علماء الدين، ثم اشترى بثمنها أملاكاً أوقفها على المرقد. ثم توالت الإضافات على المرقد الرضوي، حتى أصبح اليوم أغنى جميع العتبات المقدسة وأزخرها بالفن من حيث العمارة والزينة والعلائق الثمينة.

الشاه عباس والشيخ البهائي

في عهد الشاه عباس نبغ في الدولة الصفوية عالم دين من طراز جديد، هو الشيخ محمد بهاء الدين العاملي المعروف بـ"الشيخ البهائي". وهو ابن الشيخ حسين ابن عبد الصمد الجباعي.

ولد الشيخ البهائي في بعلبك سنة ١٥٤٧م، وهاجر مع والده الشيخ حسين إلى إيران ولم يناهز الثالثة عشرة من عمره، واستقر معه في أصفهان. ثم انتقل إلى قزوين، حينما عين الشاه طهماسب والده شيخاً للإسلام فيها. وفي قزوين انفتحت أمام بهاء الدين الشاب دنيا جديدة. كانت قزوين في تلك الأيام عاصمة مزدهرة تضج بالحياة والحركة، وتزخر بأهل العلوم والفنون من أساتذة الطب والرياضيات والفلك والهندسة، مما أتاح للشيخ بهاء الدين فرصة الحصول على ثقافة واسعة، وبحسب تعبيره هو: دراسة غير العلوم "الشرعية" وفي هذا الجو العلمي الرحب، أصبح الشيخ بهاء الدين عالماً موسوعياً يماثل ابن سينا وغيره من

مشاهير المفكرين. غير أن الشيخ البهائي اشتهر بالرياضيات والهندسة، بينما اشتهر ابن سينا بالطب والفلسفة.

في حدود سنة ١٥٨٧م عين الشاه عباس الصفوي الشيخ بهاء الدين شيخاً للإسلام في عاصمته الجديدة أصفهان، وقد شغل الشيخ بهاء الدين ذلك المنصب حتى وفاته في سنة ١٦٢١م. واللافت إن مسيرة حياة الشيخ البهائي في إيران، اتخذت منحاً يختلف بعض الشيء، عما واجهه الشيخ الكركي أو والده الشيخ حسين. ولعل سبب ذلك يعود، إلى التحولات الاجتماعية والسياسية التي حدثت في إيران عبر قرن من الزمن، وإلى قوة الشاه عباس الذي تمكن من تبديد شمل أمراء عسكر القزلباش وتحجيم دورهم في الحياة العامة.

ويقال إن الشاه عباس الذي عرف بدهائه، تعمد أن تكون مراكز الدراسة الفقهية على مقربة منه في العاصمة أصفهان، لكي يسهل عليه مراقبتها والسيطرة على العاملين فيها. ومن المرجح أن ذلك كان من الأسباب المهمة، التي جعلت حركة الدراسة في أصفهان تتسم بفقدان الأصالة وعدم القدرة على التجديد. لأن أساتذتها مالوا إلى التقرب من مقام الشاه، وانهمكوا فيما يعود عليهم بالشهرة والنفع الذاتي. أما الشيخ البهائي فقد واصل العمل في العاصمة دون أن يسمح لذلك الوضع العام أن يحتويه، بالرغم مما كان يثير له من حرج.

كان يرى البهائي أن مقام شيخ الإسلام يحتم عليه أن يكون حامياً لحمى الشرع وأهله، وأن يكون قريباً من الفقراء والضعفاء من المسلمين إذ كان من المعروف عن الشيخ البهائي، أنه لم ينقطع عن زيارة الفقراء في أحيائهم، ومجالستهم في أكواخهم المتواضعة، وذلك للاطلاع على مشاكلهم وتفقد أحوالهم. ومما يروى أن الشاه عباس ضاق ذرعاً بسلوك الشيخ البهائي هذا، في عصر كان الحكم الصفوي يتجه إلى الأبهة والفخامة. ولكنه لم يشأ أن يصارح الشيخ البهائي مباشرة، فقال له الشاه ما معناه: "لقد سمعت بأن أحد كبار العلماء يجالس الفقراء والأراذل في أكواخهم، وهذا عمل غير لائق...!". فرد عليه الشيخ البهائي: إن ما

جاء إليك غير صحيح...، فأنا أذهب دائماً إلى تلك الأماكن لأتفقد أحوال سكانها، ولم يحدث أن رأيت أحداً من كبار العلماء هناك ... !.

لم يخف الشيخ البهائي تبرمه من مجريات الأمور في الدولة الصفوية، ومن الحياة في ظل الشاه عباس. فقد كتب في بعض كتبه يقول أنه لو لم يأت والده إلى بلاد العجم، لما ابتلى هو بصحبة السلطان. وكتب مرة أخرى يصف نفسه قائلاً:

إنه لو لم يأت والدي قدس الله روحه من بلاد العرب ويختلط بالملوك لكنت من أتقى الناس وأعبدهم وأزهدهم لكنه طاب ثراه أخرجني من تلك البلاد وأقام في هذه الديار فاختلطت بأهل الدنيا واكتسبت أخلاقهم الرديئة واتصفت بصفاتهم ثم لم يحصل لي بالاختلاط بأهل الدنيا إلا القيل والقال، والنزاع والجدال، وآل الأمر أن تصدى لمعارضتي كل جاهل وجسر على مباراتي كل خامل.[(١)]

يبدو أن الشيخ البهائي سئم حياة العاصمة أصفهان، في ظل السلطان الصفوي، وتاقت نفسه إلى حياة التصوف والزهد وطلب العلم، والتحرر من تلك الأجواء التي كانت تحيط به. فلبس لباس الدراويش، وأخذ يتجول متنكراً في مختلف البلدان الإسلامية، ومنها أقاليم الدولة العثمانية. وزار أثناء تجواله مصر والحجاز وبلاد الشام وأقاليم آسيا الصغرى "تركيا حالياً"، وسكن لفترات متفاوتة في القدس ودمشق والقاهرة. وقيل إن رحلته استغرقت بضع سنوات، ألف البهائي خلالها كتابه المشهور "الكشكول" وهو كتاب فريد من نوعه احتوى على شذرات من مواضيع فلسفية وصوفية وأدبية وفقهية، وعلى شيء من علوم الرياضيات وغيرها، وينسَب إلى البهائي نظرية في المعرفة تدل على حرية تفكيره وتسامحه الديني تقول:

"إن المكلف إذا بذل جهده في تحصيل الدليل فليس عليه شئ إذا كان مخطئاً في اعتقاده، ولا يخلد في النار وإن كان بخلاف الحق".

---

(١) علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ص٧٢

يرى الدكتور علي الوردي، إن هذه النظرية ذات أهمية علمية غير قليلة، وإن كانت تبدو للناظر السطحي بسيطة وأنها في الواقع، تنسجم مع أحدث ما توصلت إليه الأبحاث النفسية والاجتماعية. ويرى الوردي أن البهائي استمدها من تجواله الواسع بين الناس، ومخالطته لأصحاب العقائد المختلفة ويشير إلى أن الجاحظ، جاء بما يشبه هذه النظرية، ولكنها حوربت ثم ضاعت ولم يبق منها إلا مقتطفات جزئية.[١]

والظاهر أن هذا النهج العلمي المبني على الاجتهاد في فهم الدين، هو الذي أثار حول الشيخ البهائي، القيل والقال في تلك الأجواء الدينية التي سادت في مجتمع العاصمة الصفوية أصفهان.

منَ المعروف أن "كشكول" الشيخ البهائي راج في عدد من البلدان، منها مصر وإيران. ومن الملاحظ أن نسخته الإيرانية، تختلف بعض الشيء عن النسخة المصرية. إذ توجد في النسخة الإيرانية إضافات تلائم مزاج الدولة الصفوية، والعقائد التي استحدثتها. ومن المرجح أن ذلك لم يكن من فعل المؤلف، بل من فعل النساخ في العهد الصفوي.

---

(١) علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ص٧٤

الفصل الثاني

بغداد في العهد الصفوي

امتد الحكم الصفوي الثاني في العراق خمسة عشر عاماً (من سنة ١٦٢٣م حتى أواخر سنة ١٦٣٨م)، حاول العثمانيون أثناءها استرجاع بغداد عدة مرات. ففي سنة ١٦٢٤م جاءت جيوشهم وضربت الحصار على بغداد، ولكنهم جوبهوا بمقاومة صفوية شديدة، مما اضطرهم إلى رفع الحصار والعودة إلى الموصل. قال محمد فريد عن تلك الحملة العسكرية:

... فسار حافظ باشا الصدر الجديد إلى بغداد لاستردادها، وحاصرها في أوائل سنة ١٦٢٤م وضيق عليها الحصار، ولما استمر الحصار مدة بدون أن تنثني عزيمة المحصورين تذمر الانكشارية وأظهروا عدم الرغبة في الحرب بكيفية اضطرته لرفع الحصار عن المدينة والرجوع إلى الموصل. ومنها إلى ديار بكر حيث ثار الجند مرة ثانية فعزل السلطان حافظ باشا ... .[١]

وفي أثناء ذلك حاول الصفويون انتزاع البصرة من يد علي باشا أفراسياب، الذي رفض أن يعلن تبعيته للدولة الصفوية، فسارت إليها قوة عسكرية وضربت حولها الحصار، ولكنها أخفقت في الاستيلاء عليها لشدة المقاومة، التي دعمها الأسطول البرتغالي. وقد أشار المؤرخ البريطاني لونكريك إلى ذلك بقوله:

---

(١) محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٨١

... فطلب إلى أفراسياب أن يتخلى عن تبعيته التركية ويتقبل التبعية الإيرانية...فرفض ذلك أفراسياب وكان يدعمه البرتغال. فسيق إليه جيش من شيراز عن طريق ششتر. وفي قبان، تابعة البصرة، قصفت البواخر البرتغالية الجيش المهاجم فصدته.[١]

وقد استمر الحصار حتى وفاة الشاه عباس في سنة ١٦٢٨م، إذ رفعت تلك القوات الحصار عن البصرة وعادت إلى إيران.

في سنة ١٦٢٨م توفى الشاه عباس الصفوي وتولى بعده الشاه ميرزا صفي الأول. في تلك الفترة كانت الأمور في اسطنبول، تسير من سيئ إلى أسوأ جراء شغب العسكر الانكشاري الذي لم يعد بالإمكان السيطرة عليه. كتب محمد فريد عن ذلك فقال:

في هذه الأثناء كانت ثورات الجنود متتابعة بالأستانة (اسطنبول) وفي كل مرة يطلبون قتل من يشاؤن من رؤساء الحكومة المخالفين لهم في الرأي ولا يرى السلطان مندوحة من إجابة طلباتهم إسكاتاً لهم، وخوفاً من أن يصل إليه أذاهم. ثم توفى الشاه عباس وتولى ابنه شاه ميرزا وكان حديث السن فدخل العشم في أفئدة القواد العثمانيين وسار خسرو باشا من حينه إلى بلاد العجم رغماً عن تذمر جنوده... .[٢]

للخروج من دوامة شغب العسكر الانكشاري، جهزت الحكومة العثمانية في سنة ١٦٢٩م حملة عسكرية جديدة، للاستيلاء على بغداد. وكان خسرو باشا هو الصدر الأعظم في اسطنبول، فخرج على رأس تلك الحملة وسار إلى ديار بكر ومنها إلى الموصل، واتجه بعد ذلك جنوباً عبر نهر الزاب لمواصلة الزحف نحو بغداد. من جهته جهز الشاه صفي جيشاً بقيادة أمير الأمراء زينل خان ومعه أحمد

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص١٣١

(٢) محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٨٢

خان ابن هلو خان الأردلاني للتصدي للجيش العثماني، وحال وصول الصدر الأعظم مدينة بغداد في سنة ١٦٣٠م، ضرب الحصار حولها وباشر بقصفها بالمدافع. وهكذا قامت الحرب بين الدولتين مرة أخرى.

في هذه المرة نشبت معارك قاسية بين الطرفين أريقت فيها الكثير من الدماء، واستمر القتال على تلك الحال مدة أربعين يوماً تكبد العثمانيون أثناءها خسائر فادحة لم يتمكنوا من تعويضها، وذلك لانقطاع سبل الإمدادات بينهم واسطنبول التي كانت غارقة في أزماتها. جاء في تاريخ العزاوي:

لم يقدر السردار (الصدر الأعظم) على المطاولة لا سيما وقد كانت خسائره كبيرة وضائعاته عظيمة ... ولذا قرر لزوم الرجوع ... تركوا بغداد في ٢٧ صفر سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م.[(١)]

بالرغم من الانسحاب من بغداد، رأى الصدر الأعظم، أن التمسك بمدينة الحلة، يمكن أن يساعد الدولة على مواصلة الحرب والعودة للاستيلاء على بغداد في السنة التالية. ولهذا أرسل إلى الحلة قوة عسكرية كبيرة تربو على العشرين ألف مقاتل، كانت بقيادة أمير آمد خليل باشا، الذي أخذ معه وحدات من الانكشارية.

في تلك الأثناء شنت القوات الصفوية بقيادة توخته خان ومعه أحمد خان ابن أمير أردلان هجوماً كبيراً على شهرزور، تمكنوا أثناءه من تشتيت شمل القوة العثمانية وطردها من المنطقة. وإن المعلومات تشير إلى أن أمراء الكرد مالوا إلى الصفويين وتابعوهم في تلك الحرب.[(٢)]

أما الصدر الأعظم فقد سار من بغداد إلى الموصل، على أمل أن يقضي فيها فصل الشتاء، ثم يعاود الكرة للاستيلاء على بغداد. وحينما حل الربيع، رفض الجنود العودة إلى الحرب مرة ثانية، وأعلنوا العصيان. أشار محمد فريد إلى ذلك فقال:

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٤ص٢٠١

(٢) ن.م.

ولهجوم الشتاء رفع خسرو باشا عنها الحصار ورجع إلى مدينة الموصل لقضاء فصل الشتاء. وفي الربيع التالي أراد معاودة الكرة على مدينة بغداد فلم تمتثل الجنود أوامره، ولذلك اضطر إلى التقهقر إلى مدينة حلب خوفاً من وصول العدو إليه بالموصل، وهو غير واثق من جنوده.(١)

بعد فشل تلك الحملة العسكرية العثمانية، جهز الشاه صفي الأول حملة عسكرية كبيرة بلغت نحو أربعين ألف مقاتل، سار على رأسها نحو مدينة الحلة وضرب الحصار حولها.

بعدَ أكثر من أربعة أشهر من الحصار، دب اليأس في نفوس العثمانيين الذين انتظروا طويلاً ولم تردهم الإمدادات اللازمة من الحكومة المركزية، مما اضطر القائد العثماني تدبير خطة هروب لإنقاذ نفسه وجنوده. وفي اليوم المقرر، اندفع القائد العثماني بما لديه من فرسان وهجم بهم على جبهة محددة، مما سهل عليه اختراق الحصار والإفلات من قبضة الصفويين.

سار القائد العثماني بعد هروبه من الحلة نحو الموصل، أما باقي العساكر العثمانيين الذين لم يتيسر لهم الهروب، فقد طلبوا من الشاه الأمان. وكما يبدو فإن أغلب المستسلمين الذين لم تتوفر لهم وسائل الهروب، كانوا من سكان المناطق التركية في الأناضول، التي كان يطلق عليها آنذاك بلاد الروم. جاء في تاريخ العزاوي:

... وفي اليوم التالي نادى المنادي بالأمان فانقطع النهب وكفوا عن القتل والغارة وإن الجنود التي بقيت في المؤخرة طلبت الأمان. ثم عاد الشاه ومن معه من الجنود العثمانيين الذين طلبوا الأمان إلى بغداد ... سير الجنود الرومية إلى أوطانهم واطفهم وأذن لهم بالذهاب. ثم أمر أن يعمر مرقد الإمام علي (رض) فبوشر بالعمل في الحال.(٢)

---

(١) محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٨٢

(٢) عباس العزاوي تاريخ العراق بين احتلالين ج٤ص٢٠٢

في سنة ١٦٣١م توفى صفي قولي خان، الذي أوكل أليه الشاه عباس حكومة بغداد بعد الاستيلاء عليها في سنة ١٦٢٣م، ويقال إن الشاه أظهر حزناً عظيماً حينما جاءه الخبر، إذ من المعرف إن صفي قلي خان كان من أشد الزعماء التركمان ولاءً للعرش الصفوي، فقد وصفته بعض المصادر العثمانية بأنه كان متعصباً في مذهبه ومتصلباً في الإدارة. ومن آثاره التي شيدها في بغداد دار الحكومة التي كانت تعرف بـ (الدفترخانة).

بعد وفاة صفي قلي خان، عين الشاه مكانه زعيماً تركمانياً آخر هو بكتاش خان، الذي دامت ولايته لحين استيلاء السلطان العثماني مراد الرابع على بغداد، في أواخر سنة ١٦٣٨م.

أعمال الشاه عباس في النجف

خرج الشاه عباس من بغداد لزيارة العتبات المقدسة وتوجه نحو كربلاء لزيارة مرقد الإمام الحسين ثم سار على طريق الحلة إلى النجف الأشرف. ويقال إن الشاه ترجل حينما لاحت له قبة المرقد الشريف، فترجل معه جميع وزرائه وأمراء عساكره، ثم نزع التاج من على رأسه، ومشى حافي القدمين نحو مرقد الإمام وهو يحمل تاجه بين يديه.

بقي الشاه عباس في النجف عشرة أيام، كان يقضي أغلب أوقاته في الزيارة والدعاء، وفي أثناء ذلك، أدرج اسمه في سجل هيئة خدم المرقد الشريف، واختار وظيفة الكنس وإزالة الغبار عن المرقد.

أثناء وجود الشاه عباس في النجف، أمر بكري وتنظيف النهر الذي حفره جده الشاه إسماعيل الصفوي والذي عرف باسم "نهر الشاه"[١]. جرى الماء في ذلك

---

(١) ر الشاه: حفره عطا ملك الجويني في عهد المغول وجدد حفره الشاه اسماعيل (راجع الجزء الأول ص١٥٠ و ص٢٤٥).

النهر بعد انقطاع طويل حتى دخل مسجد الكوفة، ولما كان موقع النجف أعلى من أرض الكوفة، تم شق قناة تحت الأرض، لإيصال المياه إلى النجف. وكانت المياه تصب في بركة تحت الأرض، يمكن النزول إليها للاستسقاء.

من الجدير بالملاحظة، أن بقايا تلك البركة ظلت إلى خمسينات القرن العشرين، وكان يمكن مشاهدتها في سرداب يسمى "المهدران" يقع خارج سور النجف، على يمين الذاهب إلى الكوفة. ويقال إن عساكر الشاه عباس انضموا إلى العمال وساهموا في عمليات حفر وبناء تلك القناة.

ومن المعروف أن الشاه عباس حفر آباراً خاصة، في مواضع معينة من المدينة، كان بعضها في الصحن الشريف، وأوصل تلك الآبار عن طريق قناة حفرت تحت الأرض كانت تستمد مياهها من نهر الفرات، ولذا تميزت مياه تلك الآبار عن بقية الآبار النجفية بحلاوة ونقاوة مياهها، وكانت تعرف بالآبار "الشاه عباسية".

ومما يذكر أن ثوار النجف استعملوا ما تبقى من تلك القنوات التي كانت تمر تحت أرض النجف وإلى خارجها، في قتالهم ضد القوات البريطانية أثناء ثورة النجف، والتي حدثت قُبيل ثورة العشرين بفترة وجيزة.[١]

عمارة الصحن في النجف

لم تكن وضعية الصحن المحيط بمرقد الإمام علي بن أبي طالب كما نراها اليوم، بل كانت حتى القرن السادس عشر للميلاد، أصغر في مساحاتها وشكلها. وحينما زار الشاه عباس النجف، قرر توسيع وإعادة تعمير المرقد الشريف.

في تلك الأيام كان هناك ساحة مربعة الشكل أمام الرواق الحالي من جهة الشرق، تسمى "حوش الحضرة" بطول عشرين متراً تقريباً، وكان يحاذيها رواق

---

(١) حسن الأسدي – ثورة النجف، ص٣١٠

قديم شيده عمران بن شاهين الخفاجي، كان مفصولاً عن الرواق الحالي، ويبعد عنه بضعة أمتار .

وحينما قرر الشاه عباس توسيع ساحة الصحن من تلك الجهة، تم هدم قسم من رواق عمران بن شاهين، وإدخاله في الصحن، وبذلك تم توسيع ساحة الصحن من جهة الشمال. ثم جاء بعد الشاه عباس، الشاه صفي الأول فأزال الدور المجاورة للصحن من جهة الشرق والقبلة وأضافها إلى الصحن، وبذلك تم توسيع الصحن وتشييده من جهاته الثلاث، وأتخذ شكله العام الذي نراه اليوم.

رواق عمران بن شاهين

في القرن الرابع الهجري تأزمت أوضاع العراق، جراء تسلط أمراء عسكر المماليك الترك، على خلفاء بني العباس، وبمرور السنين، كانت الفوضى السياسية والإدارية تضاعف من معاناة السكان، وتسهم في إضعاف البلاد.

في تلك الأيام، انتهز السلطان معز الدولة البويهي، ضعف العراق عسكرياً، فزحف من إيران في سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م واستولى على بغداد. وبعد مرور سنتين من ذلك، سار السلطان البويهي على رأس جيشه وأخذ معه الخليفة العباسي المطيع لله نحو الجنوب، واستولى باسم الخليفة على البصرة. وهكذا أحكم سلاطين الديلم البويهيون، سيطرتهم على جميع مناطق العراق.

في غمرة تلك الأوضاع أعلن عمران بن شاهين الخفاجي[١] في سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م الثورة على حكومة معز الدولة. وسرعان ما امتد لهيب تلك

---

(١) خفاجة: من عشائر العراق القديمة، كان لها مكانة رفيعة بين العشائر العراقية ولها السلطة في مناطق واسعة في وسط وجنوب العراق. وهي اليوم تنتشر في مناطق عديدة خاصة في شطرة المنتفك، بين الناصرية والشطرة، وتقطن عشائر منهم في كربلاء والمسيب والحلة وبغداد وديالى. ويشار إلى أ م وردوا العراق إبان الفتح الإسلامي. وكانوا يسكنون في سواد الكوفة ومنهم أبو إربد الخفاجي في برية السماوة، الذي كان

الثورة، فشمل أغلب مناطق العشائر العراقية النهرية في وسط وجنوب العراق. بعد أن قوي أمر عمران ابن شاهين، أقام في قلب أهوار وبطائح تلك المناطق، إمارة عربية مستقلة عن حكومة بغداد، عرفت في التاريخ بدولة آل شاهين.

لقد بذل سلاطين الديلم جهوداً كبيرة للقضاء على دولة عمران بن شاهين الخفاجي، وذلك لاستعادة سيطرتهم على تلك المناطق الزراعية الحيوية في وسط وجنوب العراق. غير أن جميع محاولاتهم باءت بالفشل، بعد أن جوبهت بمقاومة شديدة من قبل تلك العشائر النهرية التي كانت تدافع عن أراضيها وديارها.

في سنة ٣٥٥هـ جهز معز الدولة البويهي حملة عسكرية كبيرة، للقضاء على دولة عمران بن شاهين. زحف السلطان البويهي على رأس جيوشه، نحو مدينة واسط، وهناك انتشرت الفرق العسكرية وطوقت البطائح والأهوار التي كان يعتصم بها عمران بن شاهين ورجاله.

شرع عساكر معز الدولة في سد الأنهار التي كانت تغذي تلك البطائح والأهوار لتجفيفها، وذلك تمهيداً لاقتحامها. وهكذا قامت الحرب بين عساكر الديلم ورجال العشائر العراقية. كانت معاناة عمران بن شاهين ورجاله، تتضاعف بمرور الزمن جراء تلك الحرب والحصار الذي ضربه عليهم عساكر معز الدولة.

في غمرة تلك المحنة، نذر عمران بن شاهين قربة إلى الله تعالى، أن يشيد للإمام علي بن أبي طالب في النجف، رواقاً يضاف إلى المرقد الشريف. على أن يفي بنذره بعد الخلاص من تلك الحرب التي فرضها سلطان الديلم على السكان.

استمرت المعارك بين رجال القبائل العربية وعساكر الديلم، حتى دخلت سنة ٣٥٦هـ، وفيها مرض معز الدولة واضطر أن يترك واسط ويعود إلى بغداد، حيث

يقول: يركب منا على الخيل أكثر من ثلاثين ألف فارس سوى الركبان والمشاة. وكانت خفاجة حليفة بني مزيد الذين أسسوا دولة بني أسد في الحلة ثم ورثوا بلادهم بعد أن قضى عسكر المماليك على دولة بني أسد.

ساءت حالته وتوفي فيها بعد فترة وجيزة. بعد وفاة معز الدولة، رفع العسكر البويهي الحصار عن منطقة الأهوار وانسحب إلى بغداد.

بعد أن فشل البويهيون في القضاء على دولة عمران بن شاهين الخفاجي، اضطروا إلى عقد الصلح معه والاعتراف بدولته. وبعد عودة السلم إلى تلك الربوع، شيد عمران بن شاهين في النجف، رواقه الشهير الذي أدخل الشاه عباس الصفوي قسماً منه في فناء الصحن. وأما ما تبقى من رواق عمران ابن شاهين، فقد صار مسجداً ملاصقاً للحرم الشريف له بابان، إحداهما عند الباب الطوسي، وباب أخرى كانت تؤدي إلى الصحن ولكنها اندرست، ويعد مسجد عمران بن شاهين، وهو القسم الباقي من ذلك الرواق، أقدم وأجل مساجد النجف وأبعدها صيتاً.

ومن الجدير بالملاحظة إن عمران ابن شاهين الخفاجي، استمر في حكم دولة عشائر العراق النهرية بصورة مستقلة عن سلطة البويهيين، حتى وفاته في سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م، وبعد وفاته تولى ابنه الحسن، ثم تولى بعده أخوه الحسين بن عمران الذي قتل في سنة ٣٧٣هـ. بعد مقتل الحسين بن عمران، دخلت عشائر خفاجة في صراعات داخلية انتهت بزوال دولتهم.

الباب الرابع

العراق في العهد العثماني الثاني

١٦٣٨م _ ١٧٠٤م

الفصل الأول

السلطان مراد الرابع

في شهر أيلول(سبتمبر) من سنة ١٦٢٣م، عزل أمراء العسكر الانكشاري السلطان المختل العقل مصطفى الأول وأعادوه إلى محبسه، أو ما كان يسمى بـ"القفص" داخل قصر الحريم، ثم أجلسوا على العرش، صبياً لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره، هو السلطان مراد الرابع بن السلطان أحمد الأول.

أجلس الانكشارية، السلطان مراد الرابع على عرش آل عثمان، ولم يكن قد مضى سوى عام ونصف على قتل أخيه الأكبر السلطان عثمان الثاني ابن السلطان أحمد الأول. قال صاحب تاريخ الدولة العلية:

... وولاه الانكشارية بعد عزل عمه السلطان مصطفى الأول ابن السلطان محمد الثالث مع حداثة سنه كي لا يكون معارضاً لهم في أعمالهم الاستبدادية ولا مضعفاً لنفوذهم الذي اكتسبوه بقتل سلطان وعزل غيره واستمروا مدة العشر سنين الأولى من حكمه على غيهم وطغيانهم ... .[(١)]

بعد اعتلائه العرش وحسب التقاليد الموروثة، قام السلطان مراد الرابع بزيارة تفقدية لخزينة الدولة، فوجدها خاوية بعد أن تعرضت لعمليات النهب والسلب المتواصلة من قبل الانكشارية والسباه. ويقال أن السلطان بكى وقال وهو يذرف الدمع:

---

(١) محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٨٠

إن شاء الله سأملأ هذه الخزينة بأموال أولئك الذين سرقوها، وسأشيد خمسين خزينة مثلها.[١]

وبالنظر لإفلاس خزينة الدولة، اضطر السلطان إلى أن يخرج من خزينته الخاصة، ٣٠٤٠ كيساً من النقود لتوزيعها على الانكشارية بمناسبة توليته، كما جرت العادة.

وقد ذكرت مصادر غربية، أن عجز الدولة المالي بلغ في تلك الفترة حداً اضطر فيه الوزراء مفاتحة سفراء عدد من الدول الأوروبية بحثاً عن قروض مالية تمكنهم من تسيير شؤون الحكومة، ولكن جهودهم لم تلق آذاناً صاغية من أية جهة.[٢]

وهكذا مرت على الدولة عشر سنوات، والسلطان الشاب مراد الرابع عاجز عن التصدي لعناصر الفساد والطغيان في الدولة. ويقال إن أمه "السلطانة الوالدة" اليونانية الأصل، ساعدته في اجتياز تلك الأيام العصيبة، إذ وقفت بجانبه وبذلت أقصى جهودها، لتحميه من بطش أمراء العسكر الذين فجعوها بولدها السلطان عثمان الثاني.

في ذلك الجو العاصف المحموم، وبالرغم من المصاعب والعقبات، رأت السلطانة الوالدة، أن من واجبها أن تتدخل وأن تساهم ولو بحذر، في إدارة شؤون الدولة. ولكن بالرغم من قدراتها وعزمها، فإنها كسيدة في وسط ذلك المجتمع المحافظ القديم، لم يكن بإمكانها معالجة فساد أجهزة الدولة الإدارية، أو التصدي للفوضى التي سادت بين صفوف الانكشارية والسباه.

كان من نتائج تلك الأوضاع، استمرار الثورات والحروب الأهلية في أقاليم الترك في مناطق الأناضول. أما في شبه جزيرة القرم شمال البحر الأسود، فقد ثار

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P٣٠١

(٢) ن.م.

التتار وأنزلوا بالجيوش العثمانية، هزائم منكرة تمكنوا أثناءها من أسر أعداد كبيرة من جنودهم، حتى أن أسرى العثمانيين كانوا يباعون في أسواق النخاسة بأبخس الأثمان. أما فرسان القوزاق فقد كانوا يغيرون على سواحل البحر الأسود والبوسفور، حتى باتوا يهددون العاصمة اسطنبول. أما في العراق فقد حدث في تلك الفترة، خروج بكر صوباشي على حكومة السلطان، فكانت النتيجة خروج العراق من قبضة العثمانيين، بعد استيلاء الشاه عباس الصفوي على بغداد.

عهد مراد الجديد

بعد مرور عشر سنوات على تسلم السلطان مراد العرش، تجمهر في عام ١٦٣٢م عسكر السباه في باحة القصر، وطالبوا السلطان تسليم سبعة عشر مسؤولاً من كبار رجال الدولة لقتلهم، وكان من بين المطلوبين، المفتي والصدر الأعظم حافظ باشا نسيب السلطان وأقرب الناس إليه.

بعد أن استمر ذلك التجمهر الغوغائي لثلاثة أيام متتالية، توترت الأوضاع في العاصمة اسطنبول، حيث أغلقت الأسواق واختفى الناس في بيوتهم من شدة الخوف.

في اليوم الثالث اندفع المتمردون ودخلوا باحة القصر "السراييغلو" وهناك شاهدوا الصدر الأعظم حافظ باشا، ممتطياً صهوة جواده وهو في طريقه إلى اجتماع في الديوان السلطاني، فرماه المتمردون بالحجارة وهجموا عليه وأنزلوه من على فرسه، ولكن حراسه تمكنوا من تخليصه من أيديهم والهروب به إلى داخل القصر. ثم أخذوه إلى باب خلفي يؤدي إلى شاطئ البوسفور حيث استقل مركباً نقله إلى الشاطئ الآخر. بعد هروب الصدر الأعظم، أقتحم المتمردون قاعة الديوان الرئيسية المخصصة لاجتماع مجلس الوزراء، وأصروا على حضور السلطان.

دخل السلطان مراد على المتمردين وسألهم عن مطاليبهم، فأحاط به المتمردون وطالبوه أن يجمع أعضاء الديوان، ويسلمهم "الخونة" لكي يقطعوا

رؤوسهم جزاء خيانتهم، وإلا فالويل والثبور...!. شعر السلطان مراد بخطورة الموقف، فأجابهم وهو يتمالك نفسه ما معناه:

إذا كنتم لا تريدون الإصغاء لسلطانكم فلماذا طلبتم حضوري إلى هنا؟!.. ثم استدار وانسحب إلى داخل القصر محاطاً بحرسه الخاص.

كان السلطان مراد طويل القامة عريض المنكبين يتمتع بقوة بدنية وصفت بأنها خارقة، ويقال إن حضوره كان مهيباً يثير الرهبة في أعدائه، ولابد أنه أثبت لعساكره الغاضبين في تلك المواجهة، أنه لم يعد ذلك السلطان القاصر الذي لا حول له ولا قوة، بل إن تجارب السنين صنعت منه رجلاً قوياً شديد المراس.

في تلك الساعات العصيبة، تقدم المدعو رجب باشا إلى السلطان مراد، وطلب منه أن ينحني للعاصفة، ويسلّم حافظ باشا للمتمردين بدلاً من أن يعرض حياته للخطر. شعرَ السلطان مراد بأبعاد تلك الحركة، وأن رجب باشا كان يقف خلفها، فلم ير بداً من أن يستدعي حافظ باشا لبحث الموضوع معه، ويقال إنه استقبله عند الباب الخلفي للقصر المطل على الشاطئ. وبعد التشاور معه، جلس السلطان مراد على عرشه وطلب أن يقابله وفد من السباه والانكشارية، وبحضورهم دخل حافظ باشا، وركع أمام السلطان وقبل الأرض بين يديه وقال له ما معناه:

أنا عبدك يا سيدي السلطان، ليذهب ألف رأس مثل رأسي فداء لعرشك، فإذا كان علي أن أموت، فإني أتضرع إليك أن لا يكون موتي بيدك الشريفة، بل سلمني إلى هؤلاء المخبولين العتاة لأقضي شهيداً، وليبقى دمي البريء في رقابهم. ثم رفع يديه إلى السماء بالدعاء عليهم وتقدم بثبات نحوهم، وحينما هجم رجال السباه والانكشارية على حافظ باشا، قاومهم بشدة، ولكنهم تكالبوا عليه ومزقوا جسمه بسيوفهم، وبعد أن سقط على الأرض تقدم أحد الانكشارية وحز رأسه.

استدار السلطان وسار بخطوات بطيئة نحو داخل القصر، وهو يذرف الدمع حزناً على وزيره وصديقه المخلص حافظ باشا، ثم توقف عند الباب، واستدار نحو

جمع الثائرين وصرخ فيهم قائلاً: إن شاء الله ستلقون جزاءكم أيها القتلة المارقون، فأنتم لا تخافون الله ولا تستحون من رسوله. غير أن الثوار هتفوا بوجه السلطان مطالبين برأس المفتي.

بعد أن قتل المتمردون الصدر الأعظم حافظ باشا، نصبوا مكانه رجب باشا. ولكن الفتنة لم تهدأ، فقد ثارت فيما بين العسكر، نقاشات عنيفة حول قتل السلطان مراد نفسه، كما قتل أخوه السلطان عثمان الثاني. وفي زحمة تلك المجادلات، حدثت انقسامات بين السباه والانكشارية، ثم حدثت انقسامات بين المتطرفين والمعتدلين وداخل كل جماعة منهم.

اتسعت الخلافات داخل كل جماعة وأخذ البعض منهم يتذمر ويبدي عدم رضاه عما جرى، ويعبر عن ندمه لمقتل الوزير بتلك الطريقة البشعة، وتهديد السلطان نفسه. وبالتدريج بدأوا ينفضون عن رؤوس تلك الفتنة، ويتحولون إلى جانب السلطان.

اقتنع السلطان مراد بعد تلك الأحداث بوجوب سلوك طريق العنف والمخاطرة. ولابد أن مصير أخيه السلطان عثمان الثاني أخذ يتراءى له في تلك الساعات العصيبة، ولذا قرر السلطان مراد الرابع أن يختار طريق العنف، على طريقة بادر بقتل أعدائك قبل أن تُقتَل. وكشف عن مشاعر القسوة الدموية، التي تجذّرت في أعماقه، وهو ينمو ويكبر في تلك الحقبة السوداء.

بعد أيام وبينما كان رجب باشا الصدر الأعظم الجديد في طريقه إلى منزله، جاءه رسول من السلطان يطلب منه الحضور، وحينما ورد رجب باشا القصر، أدخلوه إلى غرفة حاشدة بالعبيد السود الذين قادوه إلى ردهة داخلية حيث جلس السلطان، وحينما دخل رجب باشا، صرخ به السلطان قائلاً: اقترب أيها المتآمر الجبان وقل وصيتك أيها الكافر المرتد، ثم صرخ: اقطعوا رأس هذا الخائن. فتناولته سيوف الجلادين.

هكذا قتل السلطان مراد رجب باشا، ثم أمر بإلقاء جثته خارج القصر، حيث تجمهر عدد من أنصاره في انتظار ما كان يحدث، وما أن شاهد المتجمهرون، جثة الصدر الأعظم رجب باشا، تلقى على قارعة الطريق، حتى دب الرعب في نفوسهم ولاذوا بالفرار.

إن ما حدث لرجب باشا، يظهر أن السلطان مراد كان على قناعة بأنه كان وراء تلك الفتنة التي انتهت بمقتل حافظ باشا، لأن رجب باشا كان يطمع بالحصول على منصب الصدارة، بالرغم من علمه بأن حافظ باشا كان نسيب السلطان وصديقه المقرب. ولذا قرر السلطان مراد أن يبدأ مسيرة حكمه الدموي بقتل رجب باشا بتلك الصورة.

مضى السلطان مراد بخطى ثابتة على طريق التنكيل بالمشاغبين ومثيري الفتن من العسكريين، الذين دفعوا بالدولة إلى حافة الهاوية. وفي أحد قصوره عقد السلطان اجتماعا، دعا إليه عدد من أمراء الانكشارية. وحينما دخلوا عليه وجدوه جالساً على العرش محاطاً بثلة قوية من حرسه الخاص. ويجلس بين يديه عدد من كبار الدولة، بينهم المفتي وبعض أمراء الانكشارية الذين انحازوا إلى جانبه أثناء الفتنة.

تكلم السلطان في المجتمعين، وقرأ عليهم من آيات القرآن الكريم التي تأمر بإطاعة أولي الأمر واتقاء الفتنة. وطلب منهم إعلان الولاء للعرش والامتناع عن تحريض السباه ضد مقام السلطان ولي نعمتهم. فهتف الانكشارية بصوت واحد أنهم عبيد السلطان، وهنا قدم السلطان لهم نسخة من القرآن الكريم، وطلب منهم أن يقسموا عليه يمين الولاء له. فتقدموا وأقسموا يمين الولاء للسلطان. عندئذ أمر مراد بإحضار أمراء السباه، وحينما مثلوا أمامه خاطبهم السلطان قائلاً:

كل فرد منكم يريد أن يصبح باشا، وينال منصباً كبيراً...!، وقد تجاوزت أعدادكم الأربعين ألف، فمن أين نأتي لكم بكل هذه المناصب..؟. إنكم ترفضون الإصغاء لنصائح العقلاء والشيوخ ذوي التجربة. وتصرون على مخالفة ذوي

الأمر. ويتمادون في العصيان والاعتداء على حقوق الناس، حتى أصبح أسم السباه مرادفاً للتمرد والفساد.

في ردهم على ذلك، أكد أمراء السباه ولاءهم للعرش، واستعدادهم لتنفيذ أوامر السلطان، ولكنهم قالوا إنهم عاجزون عن ضبط جنودهم. فصاح فيهم السلطان، اقسموا يمين الولاء كما فعل أمراء الانكشارية، وسلموا لنا رؤوس الفتنة.

بعد ذلك، أحضر السلطان القضاة وقال لهم ما معناه: إنكم متهمون بالرشوة وقبض الأموال وإصدار أحكام جائرة لسلب أموال الرعية. فأجابه القضاة بأنهم عاجزون عن التصدي للظلم، في ظل تسلط أمراء السباه على الأمور في مناطقهم، فهم الذين يستحوذون على الأموال والمزروعات كما يشاءون وحسب هواهم. ثم وقف أحد رجال القضاء من المناطق الأوربية "الروملي" وقال للسلطان ما معناه: لقد حاولت التصدي لمثل تلك المخالفات، فهاجموا دار المحكمة ونهبوها، ثم نهبوا منزلي، وما أن أكمل كلامه، حتى نهض أحد القضاة من المناطق العربية، واستل سيفه وهتف: أيها السلطان لا يمكن معالجة مثل هذه المخالفات إلا بحد السيف، ثم أقسم جميع القضاة يمين الولاء، ووقعوا على وثيقة تلزمهم بالتمسك بالشريعة وبالقوانين لإعادة النظام.

كان ذلك الاجتماع بمثابة البداية، لما أصبح يسمى بـ"العصر الدموي للسلطان مراد الرابع"، الذي لم يتورع عن اقتراف أبشع المجازر، في مضمار معالجة مشاكل الدولة. إذ تشير الأخبار إن جواسيس السلطان انتشروا في مختلف أنحاء العاصمة اسطنبول، لتقصي أخبار مثيري الشغب، وكشف مخابئهم، وفي نفس الوقت كلف السلطان مراد مجموعات من الجلادين الأشداء، وأمرهم بالبحث عن المشاغبين ومثيري الفتن، والقبض عليهم وقطع رؤوسهم حيث ما وجدوا. ثم كانوا يرمون جثثهم في مياه البوسفور. ويقال إن الناس كانوا يتجمهرون على الشواطئ، لمشاهدة تلك الجثث الطافية على المياه.

هكذا أعاد السلطان مراد الرابع وبطريقته الدموية، النظام والسكينة للعاصمة اسطنبول. وإن المعلومات تشير إلى أن هذا السلطان تمادى في القتل وسفك الدماء، حتى أنه أخذ يتحكم بحياة الناس وعاداتهم الاجتماعية، بحجة حفظ الأمن والسكينة. فقد أمر بغلق المقاهي ومحلات شرب الخمور، ومنع الناس من التجمع في المساء حتى لشرب القهوة والتدخين. وكان يتجول في الطرقات والحارات ليلاً، ويساهم في قتل المخالفين بسيفه. ويقال إنه شاهد في إحدى الليالي، بعض النسوة قرب الشاطئ تجمعن للاحتفال، فأمر بالقبض عليهن وإغراقهن في مياه البوسفور.

أخذ عدد ضحايا السلطان مراد يتزايد بمرور الأيام، حتى قيل إن أعدادهم في السنوات الخمس الأولى بعد مقتل حافظ باشا، ناهز الخمسة وعشرين ألفاً. ساهم السلطان مراد في قتل العديد منهم بسيفه، وحينما عاد النظام، ازدادت واردات الحكومة واستعادت الخزينة عافيتها.

من اللافت للنظر إن ذلك السلوك الدموي، أثر على تصرفات السلطان مراد الرابع. فقد لاحظ بعض الباحثين أن السلطان مراد الرابع التجأ في تلك الفترة إلى تعاطي الخمور ومعاشرة النساء وأسرف في ذلك، كمن يريد التهرب من ذاته. وبهذا الصدد قال الباحث البريطاني لونكريك:

... على أنه كان أيضاً مغروراً لا قيمة للحياة عنده، وسفاكاً يقتل من شعبه عشرات الألوف في كل مرة، وسرعان ما أضفت إلى مثل هذا الطبع والاستعداد عادات الدعارة وإدمان المسكر ... فلم يتساهل في أية جريمة غير جرائمه ... وكان أسوأ العسف الذي قام به هذا الطاغية وحده أهون شراً على الإمبراطورية، من الفوضوية العسكرية التي قضى عليها ... وحينئذ استتب النظام في المعسكرات، ثم جبيت الواردات.[(١)]

أما الكاتب والرحالة التركي أوليا جلبي، والذي يعد من أشد الموالين للدولة العثمانية وللسلطان مراد فقد قال عنه:

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٩٢

فاق السلطان مراد جميع سلاطين آل عثمان في تعطشه للدماء.[(١)]

الحملة العسكرية على العراق

في ربيع سنة ١٦٣٥م خرج السلطان مراد على رأس أول حملة عسكرية له نحو الشرق، وذلك للاستيلاء على يريفان التي كانت من أملاك الصفويين. وبعد الاستيلاء عليها، بعث برسولين إلى اسطنبول أحدهم يحمل أمر السلطان لإقامة احتفالات كبيرة بتلك المناسبة، والثاني يحمل أمراً بقتل أخويه الأمير بايزيد والأمير سليمان. قال صاحب تاريخ الدولة العلية:

... ثم سار السلطان بنفسه الشريفة إلى بلاد العجم لاسترجاع فتوحات السلطان الغازي سليمان القانوني ففتح مدينة أريوان (yerevan) وأرسل السلطان رسولين إلى الأستانة (اسطنبول) لتزيين المدينة مدة سبعة أيام وقتل أخويه بايزيد وسليمان لبلوغه عنهما ما كدر خاطره واتباعاً للعادة المذمومة...[(٢)]

بعد الاستيلاء على يريفان، سار السلطان مراد نحو مدينة تبريز عاصمة الصفويين الأولى واستولى عليها في ١٠ أيلول (سبتمبر) سنة ١٦٣٥م، ثم عاد إلى اسطنبول. ولكن المعارك استمرت بين العثمانيين والصفويين مدة من الزمن انتهت بانتصار الجيوش الصفوية في معركة مهربان سنة ١٦٣٦م، حيث تمكنوا من استرجاع مدينة يريفان من العثمانيين

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٥ص٥٤

(٢) محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٨٤

يريفان: هي اليوم عاصمة جمهورية أرمينيا التي كانت إحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق

الاستيلاء على بغداد

بعد أن تمكن الصفويون من استعادة تبريز وإقليم يريفان اتجهت أنظار العسكرية العثمانية نحو بغداد. وفي ٩ آذار من سنة ١٦٣٨م، أخرج السلطان مراد "الطوغ الهمايوني" وهو اللواء السلطاني ذو السبعة جواليش[١] ونصبه على مرتفعات أسكدار (أي الجانب الآسيوي من البوسفور). وكان ذلك تقليداً، يعني أن السلطان عازم على الخروج على رأس حملة عسكرية كبرى. وفي هذه المرة كان الهدف الاستيلاء على بغداد.

بعد إكمال جميع الاستعدادات العسكرية، بدأ في الثامن من أيار (مايو) الزحف نحو بغداد، وقد قسمت القيادة مراحل الطريق، إلى مائة وخمسة عشر مرحلة، وفي حلب التي تعد في منتصف الطريق، استراح العسكر مدة أسبوعين. في تلك الأثناء التحق بالجيوش العثمانية، الجيش القادم من مصر بقيادة رضوان بك.

من حلب سارت الجيوش إلى بيرة جك[٢] على نهر الفرات، حيث عبرت الجيوش إلى الجانب الشرقي. وفي بيرة جك صنع المهندسون خمسة مدافع ضخمة، جرى تحميلها مع مدافع أخرى وما تحتاج إليه من ذخائر، على سفن انحدرت بها جنوباً مع الفرات، على أن يتم إنزالها في وسط العراق قرب بغداد. في أثناء تلك

(١) الجاليش: كلمة تركية تعني ‍ اية ذيل الحصان وهي خصلة من الشعر كانت تعلق في أعلى راية رئيس القبيلة وكان ذلك من تقاليد الفروسية القديمة عند قبائل الترك إذ كان الرئيس يضع في أعلى رايته تلك الخصلة من الشعر رمزاً لقيادته للفرسان وسلطته العليا في القبيلة. وقد تطورت تلك التقاليد في الدولة العثمانية فأصبح عدد الجواليش التي تعلق في أعلى راية القيادة تشير إلى رتبة القائد. فحينما يخرج للحرب قائد برتبة وزير يعقد له لواء بثلاثة جواليش. وحينما استحدث منصب الصدر الأعظم أصبح يعقد له في الحرب لواء بخمسة جواليش. أما للسلطان فكان يرفع الطوغ الهمايوني بسبعة جواليش.

(٢) بيرة جك: تقع داخل الأراضي التركية وبعد المرور ‍ ا يجتاز الفرات الحدود ويدخل الأراضي السورية.

المسيرة، توفي الصدر الأعظم بيرم باشا، فتولى منصب الصدارة طيار محمد باشا. ومن ديار بكر، تم إرسال وحدات جيش الطليعة والوحدات الأمامية الأخرى إلى الموصل. ومن الموصل جرى تحميل مدافع أخرى على الأكلاك في نهر دجلة لتنحدر جنوباً نحو بغداد. ثم باشرت الجيوش زحفها نحو بغداد، فدخلت كركوك ومنها انحدرت واجتازت جبال حمرين حتى الخالص.

في أثناء تلك الحملة العثمانية، كان حاكم بغداد الصفوي، الزعيم التركماني بكتاش خان، وكان يشغل ذلك المنصب منذ سنة ١٦٣١م. ويقال إن الحامية الصفوية لم تكن تمتلك ما يلزمها من المدفعية. ولكن بالرغم من ذلك فإن دفاعات المدينة كانت قوية، تعتمد بصورة أساسية على حملة البنادق الذين تم توزيعهم على الأبراج والمواقع الحساسة حول السور. ويقال إنهم كانوا على درجة عالية من التنظيم والتدريب. ومن المرجح إن جنود وضباط بكتاش خان، كانوا من أفراد عشيرته والعشائر التركمانية الموالية له، وإن تلك الوحدات التي وصفت بأنها جيدة التدريب كانت من الجماعات الموالية للعرش الصفوي، ولذا اختارها الشاه لتكون ضمن الوحدات المدافعة عن بغداد. يقول العزاوي:

... فاختار من جيشه نخبتهم وجعل القيادة لأكبر أمرائه، وكان من رؤسائهم (خاف خان) رئيس الرماة المشاة وكان حارب السلطان في أنحاء روان ... وكذا كان أغا صادق ابن مير فتاح فجاء باثني عشر ألفاً من الرماة بالبنادق فوافى هو وأمراء آخرون للحاق ببكتاش خان.[1]

بعد وصول الجيوش العثمانية تم توزيعها حول أسوار بغداد، وأقيم للسلطان معسكر في موضع يقابل القلعة في الجهة الشمالية من السور، وفي الجهة الشمالية الشرقية أقيم معسكر آخر لأغا الانكشارية مع أمير أمراء عسكر "الروملي". وأقيم معسكر ثالث أمام باب الطلّسم على الطرف الجنوبي الشرقي من السور، رابط فيه قائد المراكب البحرية والنهرية الملقب "قبطان باشا" ومعه قائدان من الانكشارية،

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٤ص٢١٧

وباشا الأناضول، وباشا سيواس. أما السلطان مراد فقد نصبت خيمته السلطانية "الأطاغ" على شاطئ نهر دجلة قرب مرقد الإمام أبي حنيفة النعمان. ويقال إن السلطان مراد لم يذهب لزيارة المرقد إذ قال: إنني أخجل من زيارته قبل أن تفتح بغداد.

وهكذا حوصرت بغداد أربعين يوماً، جرت أثناءها معارك طاحنة بين الطرفين، ويقال إن السلطان مراد كان يساهم بنفسه في أعمال الحصار الشاقة، ويوزع بيديه الأسلحة والعتاد على المقاتلين ويشجعهم على البذل في سبيل الفتح. وفي اليوم الثاني من الحصار، وردت للعثمانيين المدافع التي جاءت عن طريق الفرات، فتم تسليم عشرة منها للصدر الأعظم، وستة إلى قبودان باشا، وأربعة إلى حسين باشا، وتم في نفس الليلة نصب تلك المدافع حول المدينة من جهاتها الثلاث، فأخذت تصب حممها على المدافعين. ثم وردت بعد ذلك ستة مدافع أخرى أعطيت ثلاثة منها إلى والي ديار بكر، وحينئذ تقدم مع سبعة من الجوربجية[١] إلى عدد من المتاريس وتمكن من إبطال مدافعها.

في تلك الأثناء أمر السلطان، سلحدار باشا أن يعبر إلى الجانب الغربي لنهر دجلة (الكرخ) مع ثلاثة عشر مدفعاً نُصبت من جهة "قلعة الطيور"، وبعد أن أخذت مواضعها بدأت بقصف داخل بغداد القديمة (الرصافة)، فتسببت بخراب العديد من أبنيتها وأحدثت إرباكاً شديداً للمدافعين الذين تكبدوا خسائر فادحة. وقد تمكن ابن

---

(١) ذكر العزاوي إن للجوربجية كسوة خاصة، وهم كالبلوكباشية، ودرجتهم يوزباشي، أي آمر ألف عسكري. وأشار إلى تفاصيل أخرى عنهم يمكن الرجوع إليها في كتابه (تشكيلات وقيافات عسكرية ص٥٤) وقال أن الجوربجية أسرة معروفة في بغداد وهم من بقايا تلك التشكيلات العسكرية التي جاءت مع السلطان مراد الرابع.

أنظر عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٤ص٢٢١

أبي ريشة القبض على "علي خان" وهو من أمراء حسين خان أمير اللّر الفيلية وجاء به إلى العثمانيين فقتلوه.

قطع العثمانيون نحو ألف نخلة عملوا منها منصات عالية للمدافع، وفي تلك الأثناء وصلت المدافع الثقيلة التي تم تحميلها على الماء، والتي كان يعول عليها في هدم سور بغداد، وبعد أن نُصبت في أماكنها المعينة، أخذت تلك المدافع الكبيرة تقصف السور والأبراج بشدة، وبعد القصف الشديد تمكنت من أن تحدث في أواخر شهر كانون الأول (ديسمبر) ثغرة واسعة في الجهة الشرقية من السور بلغ طولها نحو ثمانين ياردة. عندئذ تقدم العثمانيون وشنوا هجوماً كبيراً محاولين شق طريقهم إلى داخل بغداد. ولكن المقاتلين الصفويين تصدوا لهم، ونشب قتال شديد بين الطرفين دام طوال يومين كاملين، دون أن تظهر أية علامة تدل على النصر، بالرغم من كثرة عدد الضحايا.

أثار ذلك الوضع غضب السلطان مراد، الذي وجه توبيخاً شديداً إلى الصدر الأعظم طيار محمد باشا واصفاً إياه بالجبن. وفي اليوم الثالث، تقدم الصدر الأعظم على رأس جنوده، وسلّ سيفه واندفع في هجوم كاسح نحو الثغرة وسط هتافات "الله... الله"، وفي أثناء ذلك التقدم سقط طيار محمد باشا بعد أن أصيب بقذيفة مدفع. ولكن جنوده استمروا في الهجوم وتمكنوا من اجتياز تلك الثغرة وانكشفت بغداد أمامهم.

بعد ذلك الاختراق لسور بغداد، أرسل قائد الحامية الصفوية بكتاش خان يعلن استسلامه، ثم جاء بنفسه إلى السلطان مراد ليسلم المدينة، فاقتيد بين صفين من الحرس الأشداء إلى الخيمة السلطانية. وحينما مثل أمام السلطان، عفا عنه وأنعم عليه بالهدايا الثمينة. ويقال إن بكتاش خان بعث بعد صدور العفو إلى ضباطه وقادة الوحدات يطلب منهم ترك مواقعهم الدفاعية والخروج من بغداد، والتوجه إلى حيثما شاءوا. وفي نفس الوقت ناشد القيادة العثمانية أن تتوخى الحذر من وجود بعض الألغام التي لم تزل مدفونة خشية انفجارها.

مذابح في بغداد

مع اقتراب الجيوش العثمانية وحتى قبل سقوط بغداد، لمس السكان ما كان يبيته لهم السلطان مراد الرابع الذي قال عنه الكاتب التركي أوليا جلبي: إنه فاق جميع سلاطين آل عثمان في تعطشه للدماء...، إذ جاء السلطان مراد إلى بغداد وهو يحمل رؤيا سياسية عسكرية تستهدف إلحاق هذه البلاد الغنية بمواردها وبصورة دائمة، بالإمبراطورية العثمانية. ومن أقدار العراق أن يأخذ سلطان دموي، كمراد الرابع على عاتقه تحقيق تلك الأهداف العثمانية.

فقد باشر العسكر العثماني عمليات إبادة جماعية، شملت المدنيين من زوار العتبات المقدسة من رعايا الدولة الصفوية بحجة أنهم من "القزلباش"، وكأنهم أرادوا بتلك المذابح استئصال كل ما يمت بصلة بالصفويين، وذلك لإبعاد شبح الماضي بتجاربه المريرة التي انتهت بخروج العراق من قبضة المؤسسة العسكرية العثمانية. كتب العزاوي نقلاً عن تاريخ نعيما يصف لنا جانباً من تلك المذابح فقال:

إن الدولة أرادت أن تقطع دابر القزلباشية إذ علمت أن قد جاء أكثر من ثلاثمائة منهم من النجف إلى الكاظمية فأمر بقتلهم وذلك قبل الفتح وإعطاء الأمان، وكذا قتل نحو ألف، ثم قتل نحو أربعمائة...

وقتل الواردون (كذا) من القزلباشية من النجف أيضاً، لما علم من جاسوس منهم القي القبض عليه، جاء وكان حاملاً كتاباً فيه أنه إذا استولى العثمانيون على بغداد فأخبرونا، لنترك أوطاننا ونذهب إلى ديار العجم...وبهذه التهمة قتلوا.[(١)]

هذا ما حدث قبل سقوط بغداد، أما ما حدث بعد ذلك، فإن جميع المصادر تؤكد على أنه كان أشد وأدهى. فبعد إعلان بكتاش خان استسلام الحامية الصفوية

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٤ص٢٣٤

وصدور عفو السلطان، تنفس سكان بغداد الصعداء وحسبوا أن راية السلام سترفرف على مدينة السلام، ولكن أمراً ما حدث على حين غرة قلب تلك الصورة. وقد أشار علي الوردي إلى ذلك فقال:

... ولكن حادثاً حدث لا يعرف كنهه على وجه الدقة حول بغداد فجأة من طور التفاؤل إلى نقيضه، وشهدت بغداد إذ ذاك مذبحة لا تقل في بشاعتها عن أفظع مذابح التاريخ.(١)

أما لونكريك فقد ذكر أن مير فتاح وهو أحد القادة الصفويين، رفض هو وضباطه الإذعان والجلاء ولذا فإن إطلاق النار لم يخمد. ثم يشير إلى أن الفوضى سادت حينما تقاطرت جماعات أخرى من الصفويين واندفعت زرافات إلى خارج السور، في الوقت الذي كان البعض يطلق النار على غير هدى، وهذا بعث على مقابلة الشر بالشر، ولذلك لم تمنع كل الجهود الانتشار السريع لعمليات القتل والنهب، وقد أزهقت في معارك الشوارع أرواح عديدة، لكبار الضباط على مرأى من الصدر الأعظم. وقال:

... وكان غير قليل من جنود العثمانيين يلتهبون بالانتقام، هذا لأخ وذاك لابن مفقود... ونصبت المدافع التي كانت تصب حممها من الأبراج، حتى ذبح عشرون ألفاً من الحامية. وفي الأخير هدأت المدينة وهي مضرجة بالدماء ومخضبة بها... .(٢)

والغريب في الأمر إنه لم تكد تمر سوى بضعة أيام على ذلك الهدوء، الذي بدأت فيه بغداد تستعيد حيويتها، حتى حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد انفجر مخزن للبارود، دمر مساحات واسعة وتسبب في قتل أعداد كبيرة من الناس والجنود. ويقال إن ذلك الانفجار قتل ثمانمائة من الانكشارية، مما أثار غضب السلطان مراد فأمر بالذبح العام، وحسب المصادر العثمانية، فإن عدد القتلى في المذبحة الثانية بلغ أكثر من ثلاثين ألفاً. مما يعزز ما أشارت إليه مصادر أخرى، ذكرت أن عمليات القتل لم تقتصر في تلك المذبحة على المقاتلين الصفويين، بل

---

(١) علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الأول ص٨٣

(٢) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٩٧

شملت في هذه المرة سكان بغداد. وهذا ما أكده المؤرخ البريطاني إدورد كريسي.[(١)]

أما الكاتب لونكريك، فقد أضاف بأن السلطان مراد أمر بذبح جميع الإيرانيين أينما وجدوا، وقال إن الكثير منهم كان قد التجأ إلى المعسكر العثماني فقتل الجميع. وكان من بين من قتل ثلاثمائة زائر قادمين من النجف، عبروا في تلك الأيام لزيارة الكاظمين. وجئ بألف من الأسرى بين يدي السلطان فأمر بقطع رؤوسهم أمامه. وقال إنه لم يترك أي إيراني حياً لا في المعسكر ولا في حواليه ولا في المدينة نفسها. وبالنظر لكثرة أعداد المقتولين، فإن لونكريك افترض أن المذابح تلك شملت العرب من سكان بغداد، وأضاف أن العديد من رؤساء المدينة وأعيانها المشكوك في ولائهم للعثمانيين، قد شملتهم تلك المذبحة. واختتم كلامه بقوله:

... وبهذا روت هذه المذبحة الأخيرة عطش السلطان الفاتح للدماء.[(٢)]

إن المعلومات التي أوردها أولئك الكتاب تلقي الضوء على أمور عديدة، نستشف منها أن تلك المذبحة لم تقتصر على رجال الحامية الصفوية، بل شملت عوائلهم وأفراد عشائرهم المتواجدين في منطقة بغداد. ونحن نعلم أن ولاة بغداد في العهد الصفوي كانوا من أمراء التركمان الأذريين، وكان من المعتاد في تلك الأيام أن يكون اعتماد أمثال أولئك الأمراء في حروبهم على أفراد عشائرهم، التي كانت تنتقل معهم للاستقرار في مناطق حكمهم. وغني عن القول إن المقاتلين الصفويين في بغداد، كانوا من رجال القبائل التركمانية وعشائر اللر الموالين للدولة الصفوية، ولم يكونوا من الفرس "العجم"، كما يدعي العثمانيون. وإن المعلومات التاريخية تؤكد أن الدولة الصفوية لم تستخدم الفرس في قواتها المسلحة، وإن الصفويين

---

(١) علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١ص٨٤

(٢) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٩٨

اعتمدوا في ثورتهم التي قامت في أذربيجان على رجال القبائل التركمانية الذين انخرطوا في فرق "القزلباش". وحتى بعد أن نكل الشاه عباس بأمراء القزلباش، فأنهه أبدلهم برجال قبائل تركمانية أخرى، أستقدمهم من مناطق الأناضول، والذين عرفوا بـ"شاهي سيون". وعلى سبيل المقارنة فإن الصفويين اتبعوا سياسة الحكام السلاجقة، الذين اعتمدوا في حروبهم على المقاتلين الترك، وليس على المماليك أمثال الانكشارية، أما بالنسبة للضحايا من السكان العرب، فإن المصادر تشير إلى أن عملية ذبحهم لم تكن عفوية. إذ أشار الباحث لونكريك إلى تلك المسألة، حينما قال بأن تلك المذابح شملت عدداً من رؤساء بغداد المشكوك في ولائهم للعثمانيين.

الفصل الثاني

حكومة العسكر الانكشاري وعرب العراق

بعد الاستيلاء على بغداد ذهب السلطان مراد لزيارة مرقد الإمام أبي حنيفة وقال: الآن حقت الزيارة، فقرأ الختم الشريف وتُليت الأدعية وذُبحت القرابين. وفي اليوم نفسه بوشر بتشييد القلعة. ثم جرى منح عدد من المناصب، منها منصب آيالة شهرزور (منطقة السليمانية) الذي منح إلى والي قسطموني السابق محمد باشا. وفي ٢٠ شباط (فبراير) أُنجز تعمير القلعة وقد وضع عند بابها المدفع الشهير "طوب أبو خزامة".

الوالي كوجك حسن باشا

بعد الاستيلاء على بغداد عين السلطان، أغا الانكشارية كوجك حسن باشا لمنصب الولاية، وهو إنكشاري ألباني الأصل من "الأرناؤط" اشتهر بالشجاعة والعدل. وجرى تعيين مصطفى أفندي التذكرجي قاضياً لبغداد وذلك لأن العثمانيين قتلوا قاضي بغداد السابق.

وفي ١٨ كانون ثاني (يناير) ١٦٣٩م أي بعد مرور حوالي ثلاثة أسابيع على سقوط بغداد تقرر عودة السلطان إلى اسطنبول. وقبل رحيله تقدم لزيارة الإمام الأعظم. وأمر بتعمير مرقدي الإمام أبي حنيفة، والشيخ عبد القادر الكيلاني، وذلك بنظارة شيخ الإسلام يحيى أفندي. ثم عبر السلطان مع حاشيته إلى جانب الكرخ ومضى ركبه إلى الكاظمية لزيارة مرقد الإمام موسى الكاظم.

بعد مغادرة السلطان مراد ظل في بغداد الصدر الأعظم قره مصطفى، الذي باشر في تأسيس الإدارة العثمانية الجديدة. وفي ١٠ ذي القعدة (١٦ آذار) أي بعد مرور شهرين، عاد الصدر الأعظم إلى اسطنبول وترك في بغداد قوات عسكرية كبيرة قوامها:

١ـ ٨٠٠٠ من العسكر الانكشاري بمعداتهم ومدافعهم بما في ذلك المدفع الكبير الذي سماه البغداديون "طوب أبو خزامة".

٢ـ ١٢٠٠٠ عسكري من مختلف الأصناف بما في ذلك عدد من وحدات الانكشارية وقد سمي ذلك الجيش "قول بغداد" أي جيش بغداد.

٣ـ ١٠٠٠ من فرسان السباه.

الوالي درويش محمد باشا

يبدو أن الصدر الأعظم قره مصطفى، كان يرى إن كوجك حسن باشا المشهور باعتداله وكياسته لا يصلح لوضع أسس الحكم العثماني الجديد في العراق. ولذا أمر في ٢ محرم سنة ١٠٤٩هـ/٥ أيار (مايو) سنة ١٦٣٩م بنقله، وعهد بولاية بغداد إلى درويش محمد باشا الذي كان يرى فيه الشخصية القاسية الملائمة لفرض أهداف الحكم الجديد. ودرويش باشا إنكشاري شركسي الأصل، تولى في الشام سنة ١٠٤٥هـ، وقيل عن حكمه في الشام :

... كان ظالماً جباراً فتك بأهلها وتجاوز في ظلمه الحد... .[١]

غير أن أعمال وجرائم درويش محمد باشا بعد توليه منصبه في ولاية بغداد تجاوز كل ما نسب إليه من جرائم في السابق. إذ انهمك في أعمال القتل والنهب والسلب واغتصاب أموال الناس. قال المؤرخ البريطاني لونكريك عن هذا الوالي:

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٥ص٢٣

... وكان هذا الرجل عجيباً في طوله وقامته، كما كان شارباه العظيمين متدليين إلى ما يقارب المحزم. وكان إشباعه لرغبته في الترف باختلاس الأموال أقل من إشباعه لها بالمضاربة في بيع الحبوب والحيوانات بمقياس واسع، وكان منصبه كحاكم يساعده في الحصول على أرباح طائلة بهذه الطريقة.[1]

الوالي وسادن مقام الإمام الحسين

كان السيد دراج يتولى في تلك الأيام منصبي نقابة الأشراف في بغداد، وسدانة حضرة الإمام الحسين بن علي في كربلاء. وقد نال حظوة كبيرة لدى الشاه عباس بعد استيلائه على بغداد سنة ١٦٢٣م، ولكن بعد استيلاء السلطان مراد الرابع على العراق، قُدر لهذا السيد الجليل أن يكون من أول ضحايا العهد العثماني الجديد.

فقد دشن الوالي درويش محمد باشا سياسته العدوانية ضد أهل العراق بقتل نقيب الأشراف وسادن مقام الإمام الحسين بن علي في كربلاء السيد دراج، ونهب أمواله. والسيد دراج هو الذي توسط لدى الشاه عباس، وأنقذ من الموت خلقاً كثيراً من علماء أهل السنة وغيرهم. قال العزاوي عن مقتل نقيب الأشراف وسادن الإمام الحسين السيد دراج:

وهذا العمل المشكور كله لم يمنع الوالي من الوقيعة به، بعلة إنه كان شيعياً معروفاً بتشيعه، فلم يتحمل شهرته ومكانته فاتخذ ذلك وسيلة للقضاء عليه واستولى على أمواله الوافرة ... ولم تردعه هذه الخدمة النبيلة ولا المكانة المقبولة. أراد هذا الوالي أن يستقل بنفوذ العراق وحده وأن تكون بغداد والأنحاء العراقية خالصة للدولة العثمانية.[2]

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص١٠٧

(٢) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٤ص٢٤١

حكومة بغداد وسلطة الخزاعل

كان مقتل نقيب السادات وسادن حضرة الإمام الحسين بن علي السيد دراج، جزءاً من حملة عثمانية استهدفت التنكيل بشعب العراق وفرض الهيمنة العسكرية المطلقة عليه. وعلى هذا الأساس شن الوالي الانكشاري درويش محمد باشا حملته العسكرية ضد سلطة قبيلة خزاعة "الخزاعل". وكان الخزاعل ينتشرون في تلك الأيام على ضفاف الفرع الشرقي لنهر الفرات شمال السماوة.

قال عنهم إبراهيم فصيح الحيدري:

من العشائر العظيمة في العراق المترفضة الخزاعل، قد ترفضوا منذ أكثر من مائة وخمسين سنة (كذا)، وهي عشيرة عظيمة من بني خزاعة فحرفت وسميت خزاعل. وهم من بني عمرو بن ربيعة من القحطانية ... كانت مواطنهم مكة ومر الظهران وما بينهما، وكانوا خلفاء لقريش.[(١)]

يقول الخزاعل إنهم من بقايا خزاعة العراق، ومنهم عمرو بن الحمق الذي صحب رسول الله (ص) وشهد مع علي بن أبي طالب جميع حروبه. قال عنهم رسول الله بعد أن علم أن قريش غدرت برجل مسلم من خزاعة:

"لا نصرني الله إن لم أنصر خزاعة".[(٢)] ومنهم كذلك سليمان بن صرد، قائد حركة التوابين الذين انتفضوا في الكوفة بعيد وقعة كربلاء، ونكلوا بقتلة الحسين بن علي.

كان الخزاعل في أول أمرهم يتنقلون غرب الفرات. وقد جاء ذكرهم في عشائر البسام الذي قال عنهم:

....نازلون غربي السماوة، والقول فيهم إنهم السحاب إذا انهالت، والأسود إذا صالت، كرامهم شجعان وشجعانهم أكرم من كان.... وهناك نصوص تشير إلى وجودهم في بادية السماوة من القرن الثامن الهجري، أي القرن الرابع عشر الميلادي.[(١)]

---

(١) إبراهيم فصيح الحيدري البغدادي – عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد ص١١٤

(٢) حمود الساعدي – دراسات عن عشائر العراق الخزاعل، ص٦

وفي عصور لاحقة، بدأ استقرار الخزاعل شمال السماوة، في المناطق الممتدة على الفرع الشرقي للفرات الذي كان يمر بالرماحية القديمة. وبمرور الزمن أقاموا سلطة عشائرية في الفرات الأوسط، جمعت العشائر العربية في تلك المناطق.

كان رئيس الخزاعل في تلك الأيام مهنا بن علي. وتفيد المعلومات أن مهنا بن علي عاش في العهد الصفوي والعهد العثماني الثاني، وأن الشاه عباس الصفوي أقام بعد استيلائه على العراق، علاقات جيدة مع الخزاعل. وجعل مهنا بن علي رئيساً لإدارة عشائر الفرات في المنطقة الممتدة من هيت شمالاً إلى العرجة جنوباً.[٢]

وبذلك يكون الشاه عباس قد اتبع السياسة التي سار عليها جده الشاه إسماعيل الأول بعد استيلائه على العراق، والذي أقر حكومة المنتفك آنذاك في البصرة، وحكومة السيد محمد كمونة في بغداد والنجف، ومنح عرب العراق السلطة لإدارة شؤونهم.[٣] وكما أقر الشاه إسماعيل الأول في حينه حكومة السيد محمد كمونة وحكومة المنتفك في البصرة، فإن الشاه عباس الأول وبعد استيلائه على العراق، أقر سلطة الخزاعل التي أقاموها في منطقة الفرات الأوسط. وقد استمرت رآسة مهنا بن علي في منطقة الفرات الأوسط طيلة أعوام العهد الصفوي الثاني في العراق.

كان مهنا بن علي ينزل على الفرع الشرقي من الفرات شمال السماوة، حيث مضيفه الشهير الذي كان يستقبل فيه وفود العشائر وذوي الحاجات، ومن هناك كان يدير شؤون عشائر الفرات الأوسط ويتصرف كرئيس وحاكم عام في تلك المناطق.

---

(١) عباس العزاوي - عشائر العراق، ج٣ص٢٤٦

(٢) العرجة: بليدة اندرست تقع خرائبها اليوم على بضعة كيلومترات شمال مدينة الناصرية.

(٣) أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب، الفصل الخامس من الباب الرابع – حكومة السيد محمد كمونة

ولا تزال آثار مضيف مهنا بن علي وداره باقية وتعرف محلياً باسم "دكّة الهيس". وقد أشتهر مهنا بلقب "الهيس"، وهو طعام مركب من تمر وسمن وسويق أو سمسم، كان يقدمه للواردين على مضيفه. ويبدو أن مهنا بن علي استمر في رأسته وفي إدارة سلطة الخزاعل حتى بعد استيلاء جيوش السلطان مراد الرابع على العراق.

إن استمرار سلطة الخزاعل برآسة مهنا بن علي، كان أمراً مرفوضاً ومخالفاً لمفاهيم الحكم العثماني القائم على الهيمنة العسكرية المركزية المطلقة، ولسياسة إخضاع المناطق الزراعية في كافة الولايات العثمانية لهيمنة الإقطاع العسكري حسب نظام التيمار، وكان هذا يعني انتزاع الأراضي الزراعية من أيديهم وتسليمها لأمراء الإقطاع العسكري. وفي هذه الحالة أمراء العسكر الإنكشاري في بغداد. وحسب تلك المفاهيم العسكرية العثمانية في ملكية الأرض وإدارة الولايات العثمانية، أصبح رئيس الخزاعل عاصياً وخارجاً على قوانين الدولة. لأنه كان يتمتع بسلطة إدارة شؤون المناطق الزراعية في الفرات الأوسط بصورة شبه مستقلة عن حكومة الوالي في بغداد،. وعلى هذا الأساس كان لابد من القضاء على سلطة الخزاعل، وانتزاع الأراضي الزراعية في الفرات الأوسط من أيديهم، في تلك الفترة المبكرة للحكم العثماني الجديد، حيث كانت فيها الجيوش العثمانية في العراق في أوج قوتها. ولعل هذا يفسر لنا الأسباب الحقيقية لقرار الصدر الأعظم قرة مصطفى، بعزل الوالي كوجك حسن باشا وتعين الوالي السفاح درويش محمد، باعتبار أنه الرجل الأنسب لإنجاز مثل تلك المخططات العثمانية، التي كان لابد أن تبدأ بالقضاء على حكومة الخزاعل في الفرات الأوسط.

وبهذا الصدد لابد أن نلقي الضوء هنا على بعض أبعاد تلك السلطة العشائرية والذي يخص ملكية الأرض وإدارتها. في إطار الزراعة الحوضية على فروع دجلة والفرات طورت العشائر النهرية نظاماً لملكية الأرض يتلاءم مع طبيعة وخصوصيات الزراعة الحوضية ومتطلباتها بما في ذك تطهير السواقي

والجداول وإزاحة المواد الغرينية المترسبة في قاع الأنهار وصيانة السدود على جانبي تلك الأنهار لدرء أخطار الفيضانات.

وكانت العشائر في ظل تلك الظروف تتمسك بنظام الملكية الجماعية للأرض من قبل العشيرة التي كانت تضطلع بمسؤولية الزراعة وما يرتبط بها من خدمات وواجبات عامة. وفي ضمن إطار العشيرة الواحدة كان الأفراد والجماعات يتقاسمون الأرض بما يتلاءم مع زراعتها وحمايتها وتولي بقية الخدمات والواجبات نحوها. وكان حجم العشيرة في الغالب يتناسب مع مساحة المقاطعة المزروعة والواقعة على حوض أحد تلك الأنهار أو الفروع.

وكما أسلفنا فإن طبيعة دجلة والفرات كانت تفرض تعاون مجموع العشائر المستوطنة ضمن حوض أحد تلك الأنهار وذلك لإدامة الزراعة ضمن إطار ذلك الحوض النهري. إضافة إلى ذلك كان يتوجب على تلك العشائر أن تتعاون مع العشائر المستوطنة في أحواض زراعية مجاورة أي على فروع أخرى من النهر.

وفي إطار تلك المتطلبات قامت عبر تاريخ عرب العراق كيانات وإمارات كان وجودها أمراً حتمياً لتنظيم حياة تلك المجتمعات الزراعية في وادي الرافدين. وعلى هذا الأساس واستجابةً لتلك المتطلبات قامت دولة بني أسد في الحلة ودولة المشعشعين في أهوار الجنوب وإمارة المنتفك في الفرات الأسفل وسلطة الخزاعل في الفرات الأوسط.

ومن الجدير بالملاحظة أن العشائر النهرية في الفرات الأوسط مرت بظروف عسيرة بعد القضاء على دولة بني أسد ولكن بالرغم من ذلك استمرت بتمسكها بالأرض وبتلك النظم الزراعية التي طورتها بما يتلاءم مع طبيعة الزراعة الحوضية في مناطقها. وبعد مرور فترة طويلة من الزمن ظهرت إلى الوجود سلطة الخزاعل التي بلغت مرحلة متقدمة في أيام رئاسة مهنا بن علي.

كان مهنا بن علي أيام رئاسته يضطلع بمسؤولية السيطرة على المناطق الزراعية الواقعة ضمن سلطة الخزاعل في الفرات الأوسط ويقرر مكان ومساحة

الأراضي التي كانت تمنح لكل عشيرة. وفي الغالب كان ذلك يتناسب مع حجم العشيرة وقوتها وكانت العشيرة حسب التقاليد الزراعية "تلتزم" تلك المقاطعة من رئيس الخزاعل وتحدد الواجبات التي تؤديها والأموال الواجب دفعها إلى رئيس الخزاعل الذي كان عادةً يجمع تلك الأموال ليغطي بها ميزانية تلك السلطة العشائرية العامة كما يفعل رئيس الدولة.

جهز درويش محمد جيشاً كبيراً وأرسله بقيادة الكتخدا علي أغا، بهدف تدمير الخزاعل وإنهاء سلطتهم ودورهم القيادي بين قبائل الفرات الأوسط، باعتبار أنه يشكل خطراً على السلطة العثمانية الجديدة في بغداد. زحف علي أغا بجيشه نحو هيت واستولى عليها بدون مقاومة، ثم انحدر مع الفرات نحو ديار الخزاعل. اشتبك العسكر العثماني برجال الخزاعل وباقي عشائر المنطقة التي هبت لنصرتهم، وقامت بين الطرفين معركة دامية سحق فيها علي أغا مقاومة الخزاعل. وبعد انتهاء المعارك تعرض السكان في تلك الديار لمذابح واسعة. بعد ذلك سار واستولى على السماوة والعرجة. وبهذا الصدد قال لونكريك:

وقد حدث في أيامه الأولى أن قام مهنا شيخ الخزاعل في منطقة السماوة فنشر الفوضوية في كل فج إلى ما وراء الجزائر وذلك بسلطة الشاه التي كان يدعي بها. فبعث له درويش محمد كهيته علي أغا، ففرق جموعه من الثائرين...وقتل منهم خلقاً كثيراً، ثم بعث إلى بغداد، بستمائة رأس من رؤوسهم... . (١)

وتشير المعلومات إلى إن الكتخدا لم يكتف بقطع رؤوس رجال القبائل، بل قام بنهب كل ما عثر عليه بديارهم من المواشي والإبل والأغنام، وعاد بها إلى بغداد. وقد أشار صاحب تاريخ نعيما إلى ذلك فقال:

... إن الكتخدا ضرب العصاة من العربان وجاء إلى بغداد بغنائم عظيمة... . (٢)

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص١٠٧

(٢) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٥ص٢١

ولابد أن إشارة لونكريك إلى الأموال الطائلة التي جمعها هذا الوالي الانكشاري، وبراعته بالمضاربة في بيع الحبوب والحيوانات، كانت تنصب على الغنائم التي كانت تُنهب من ديار القبائل العربية، ومن أعيان العراق أمثال نقيب الأشراف السيد دراج. ويرى لونكريك، أن أعمال السلب والنهب التي فُرضت على عرب العراق، استمرت طيلة السنين التي قضاها درويش محمد باشا في بغداد، وقد علق على ذلك بقوله:

ونحن غير مخطئين إذا تصورنا إن حوادث مثل هذه كانت عديدة خلال السنوات الثلاث التي قضاها درويش محمد في الباشوية... .[(١)]

بعد استيلاء العسكر الانكشاري على منطقة الفرات الأوسط، انسحب رئيس الخزاعل مهنا بن علي، مع عدد من رجاله وأفراد عائلته إلى مناطق أهوار جنوب العراق. وحل هناك ضيفاً على حاكم الحويزة، أمير دولة المشعشعين المولى منصور بن مطلب الموسوي. وقد أكرم المولى منصور وفادة رئيس الخزاعل ورجاله، وأنزلهم على شاطئ أحد فروع نهر الكرخة، مقابل القلعة. وبنى لهم البيوت والخيام، وقد أقام مهنا بن علي ورجال الخزاعل بضيافة أمير دولة المشعشعين سنة كاملة.

معاهدة سنة ١٦٣٩م للسلام

أثناء عودة الصدر الأعظم من بغداد في طريقه إلى اسطنبول، جاءه في قزلرباط (السعديات) سفير من قبل الشاه صفي الأول وعرض عليه رغبة الدولة الصفوية في إيقاف مسلسل الحروب والركون إلى السلم. وبعد مفاوضات دامت عشرة أشهر تم في سنة ١٠٤٩هـ/أيلول ١٦٣٩م التوقيع على معاهدة للصلح بين الدولتين الصفوية والعثمانية، بشروط تشبه شروط معاهدة أرضروم التي وقعت في

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص١٠٧

سنة ١٥٥٥م في عهد السلطان سليمان الأول، والتي تخلى فيها السلطان العثماني، عن أي إدعاء في مدينة تبريز وبقية أقاليم التركمان الأذريين (أذربيجان). وبالمقابل تخلت الدولة الصفوية عن أي إدعاء في العراق.

وبموجب هذه المعاهدة الجديدة احتفظت الدولة العثمانية بالعراق. وبالمقابل احتفظت الدولة الصفوية بإقليم يريفان (جمهورية أرمينيا حالياً). وتم الاتفاق على:

١ ـ أن تكون مدن جصان، وبدرة، ومندلي، ودرتنك، ودرنة في ولاية بغداد خاضعة للدولة العثمانية. وكذلك السهول الممتدة بين مندلي ودرتنك.

٢ ـ ويكون الجبل المحاذي لهذه المناطق خاضعاً للدولة الصفوية، على أن تهدم قلعة زنجير الواقعة في قمة ذلك الجبل.

٣ ـ وتكون القرى الممتدة شرقاً خاضعة لسلطة الدولة الصفوية، والمناطق الممتدة غرباً خاضعة للسلطة العثمانية.

٤ ـ تحتفظ الدولة الصفوية بقلعة هورامان والقرى المحيطة بها، على أن يؤلف الممر الضيق الذي يؤدي إلى وادي شهرزور خط الحدود. وتكون قلعة قزلجة (بنجوين) خاضعة للدولة الصفوية.

٥ ـ تبقى قبائل ضياء الدين وهاروني من عشيرة الجاف، في جانب الدولة العثمانية. وعشائر بيره، ودردولي في جانب الدولة الصفوية.

٦ ـ تمتنع الدولة الصفوية من التحرش بقلاع آخسيجه وقارص ووان وشهرزور وبغداد والبصرة، وغيرها من المناطق والأراضي والقلاع والتلال والجبال الواقعة على مقربة منها. وتكف عن ارتكاب أي أعمال تتنافى وبنود المعاهدة.

٧ ـ تحترم حكومة السلطان العثماني بنود معاهدة السلم هذه ولا تتحرش بالمناطق الواقعة تحت سيادة الدولة الصفوية.

ومن الجدير بالملاحظة أن المصادر تسمي تلك المعاهدة التاريخية بمعاهدة "زهاب" أو "زهاو" نسبة إلى المنطقة التي تم التوقيع فيها، بينما ترد أحياناً في بعض المصادر باسم معاهدة قصر شيرين.

بعد توقيع تلك المعاهدة، حمل مبعوث عثماني نسخة منها، إلى الشاه صفي الأول، وحمل مبعوث إيراني نسخة مماثلة، إلى السلطان مراد الرابع للتصديق عليها.

يتفق الخبراء على أن معاهدة زهاب، كانت أكثر المعاهدات كمالاً حتى ذلك التاريخ، ولذلك ظلت لسنين طويلة، مرجعاً أساسياً للخبراء في تشخيص وتثبيت نقاط الحدود. وهكذا أدى إبرام معاهدة زهاب الموقعة في سنة ١٦٣٩م، إلى قيام حالة سلم واستقرار بين الدولتين العثمانية والصفوية قرابة ثمانية عقود من الزمن.

الفصل الثالث

حكومات اسطنبول حتى نهاية القرن السابع عشر

في ١٨ كانون الثاني (يناير) سنة ١٦٣٩م، غادر السلطان مراد الرابع بغداد، وخرج موكبه من باب السور التي كانت تسمى "آق قابو" وتعني بالتركية الباب الأبيض، وبعد خروج الموكب السلطاني، أمر مراد الرابع أن تسد تلك الباب. فبنيت فتحتها بالآجر، وأصبحت تعرف بعد ذلك بـ "باب الطلّسم". وفي اسطنبول جرت للسلطان استقبالات منقطعة النظير.

بعد عودته من حملته العسكرية التي استولى فيها على بغداد، شيد السلطان مراد الرابع في حدائق القصور السلطانية، وفي موقع جميل يطل على مياه البوسفور والقرن الذهبي، قصراً بالغ الفخامة والجمال، أطلق عليه اسم "بغداد كوشكي" أي قصر بغداد. ومن المعروف أن مراد الرابع أنفق على ذلك القصر، من الأموال التي استحوذ عليها أثناء حملته العسكرية على بغداد. ولازال ذلك القصر محط أنظار السياح والزوار، للقصور السلطانية في اسطنبول، في"طبو قابو" (Topkapi).

وفاة السلطان مراد الرابع

لم يتمتع السلطان مراد طويلا بقصره الجديد الذي سماه بغداد كوشكي، فمن المعروف إنه أسرف بعد عودته إلى اسطنبول في تعاطي الخمور، مما أثر على صحته بالرغم من شبابه وقوته البدنية. وبعد مرور حوالي أربعة أشهر على توقيع

معاهدة زهاب، أصيب السلطان مراد بحمى شديدة دامت عدة أيام. ويقال إن الشمس كسفت أثناء اشتداد المرض عليه، فانتابه الرعب مما تسبب في انهيار حالته الصحية. وبينما كان يصارع الموت، أمر وهو في النزع الأخير أن يقتل أخوه الوحيد إبراهيم، ولكن السلطانة الوالدة تدخلت في الأمر ومنعت ذلك. لأن ولدها إبراهيم كان الوريث الشرعي الوحيد الباقي من آل عثمان. ولكن السلطان مراد طلب أن يرى جثة أخيه ليتأكد أن أمره قد نفّذ، ثم هم بالجلوس، ولكن قواه انهارت ولفظ أنفاسه بعد فترة وجيزة.

توفي مراد الرابع في شباط سنة ١٦٤٠م وله من العمر ٣١ سنة. واعتلى عرش آل عثمان من بعده، أخوه الأصغر إبراهيم الذي أنقذته السلطانة الوالدة من الموت بأعجوبة.

السلطان إبراهيم الأول

ولد السلطان إبراهيم في سنة ١٦١٥م، وتولى العرش وله من العمر ٢٥ عاماً، وعاش طفولته في أجواء يخيم عليها الرعب وتسودها الفتن والاضطرابات، التي ذهب ضحيتها السلطان عثمان الثاني. وفي صباه وشبابه، ترعرع في ظل أخيه السلطان مراد الرابع، الذي شملت مذابحه أثنين من أخوته هما بايزيد وسليمان.

يبدو أن نشأة السلطان إبراهيم في تلك الأجواء، التي خيم عليها الرعب والموت، وسادت فيها القسوة والاستهتار بحياة الإنسان، كونت منه رجلاً يجمع في أعماقه، روح الخوف والضعف الممزوج بالقسوة. ويبدو أن الأوضاع العامة والخوف من بطش أخيه السلطان مراد، أديا به إلى الانزواء في القصور السلطانية، والانغماس في ملذاته بين الجواري والمحظيات، والابتعاد عن الحياة العامة، وعن كل ما يمكن أن يثير شكوك أخيه السلطان، وبسبب ضعفه تسلطت عليه نساء القصر وعشيقات السوء واللذة، فضاعت شخصيته وارتبكت تصرفاته.

ومن الجدير بالملاحظة أن السلطان إبراهيم لم يثب إلى رشده بعد اعتلائه العرش، بل أمعن في فسقه وفجوره إلى حد إثارة الشكوك في سلامة قواه العقلية، الأمر الذي نتج عنه انحدار عرش آل عثمان في أيامه، إلى مستويات من الضعف والانحلال، لم يشاهد مثلها من قبل.

حينما اعتلى السلطان إبراهيم العرش، كان الصدر الأعظم قره مصطفى، الذي تسلم منصبه عشية الاستيلاء على بغداد، والذي أشرف على معاهدة الصلح مع الدولة الصفوية، ومن المعروف أن الصدر الأعظم بذل منذ البداية جهوداً كبيرة، لإصلاح الأوضاع الفاسدة، التي كانت سائدة في القصور السلطانية. وحاول الحد من الرشاوى التي كانت تدفع للحريم وعشيقات السلطان لقاء بيع المناصب. ولكن جهوده كانت في الغالب، تضيع في خضم ذلك الجو الفاسد الذي كان يحيط بالسلطان.

ويقال إن استهتار السلطان إبراهيم بلغ حداً، انه كان يصفّ المئات من جواريه الحسان عصر كل يوم في حديقة قصره المطل على بحر مرمرة، للرقص بين يديه عاريات، وحينما قيل له، إن أصحاب القوارب المارة في البحر يتفرجون على ذلك المشهد الخليع أمر بمنع سير السفن والزوارق عند الأصيل!.

وأن بحثه عن اللذة، أمتد إلى حمامات اسطنبول، حيث كان للسلطان عيوناً ترصد الحسناوات من النساء، اللاتي كن يجلبن إلى مخدعه مهما بلغ الثمن. وقد تواترت أخبار عشيقاته المفضلات، حتى كانت الواحدة منهن تدخل أرقى المتاجر ومحلات بيع الحلي والمجوهرات، وتأخذ ما يحلو لها دون أن تدفع الثمن. أما العشيقات اللاتي لا يروق لهن الخروج في وضح النهار، فإن السلطان كان يأمر أصحاب المتاجر، باستقبالهن بصورة خاصة أثناء الليل.

ويقال إنه عمل عربة خاصة لإحدى عشيقاته، رصعها بالأحجار الكريمة. وإن عشيقة أخرى طلبت منه أن يزين لحيته بالأحجار الكريمة وحينما فعل ذلك

ثارت حوله موجة من الغضب، خاصة بين كبار رجال الدولة ورجال الدين، الذين اعتبروا ذلك فأل نحس وشؤم لتشبه خليفة المسلمين، بالفراعنة والطغاة من الحكام.

في أحد الأيام تلقى الصدر الأعظم قره مصطفى أمراً من السلطان بالمثول بين يديه، مما أضطره أن يلغي اجتماعاً مهماً لمجلس الوزراء. وحينما مثل أمامه، سأله السلطان عن سبب تأخر وصول حطب التدفئة لقصر إحدى محظياته. أعتذر الصدر الأعظم عن ذلك التأخير، وأكد للسلطان بأنه سيبعث بالحطب إلى قصر المحظية على وجه السرعة. ولكن قبل الانصراف توجه إلى السلطان وخاطبه قائلاً:

يا جلالة البادشاه، هل كان ضرورياً أن تجبرني على إلغاء اجتماع مهم لمجلس الوزراء يعقد باسمك، لتسائلني عن تأخر حزمة من الحطب!. لماذا تسائلني عن الحطب ولا تسائلني عن أوضاع رعاياك من عامة الشعب؟، أو عن حدود دولتنا العلية وحالة خزينتها. ويقال إن المفتي حذر الصدر الأعظم، وأشار عليه أن يلطّف من أقواله أمام السلطان. ولكن قره مصطفى أجابه: علي أن أقول الحقيقة خدمة للسلطان، وإنني أفضل الموت على حجب الحقائق عنه.

يبدو أن قول الحقيقة، عرض الصدر الأعظم لدسائس ومؤامرات الطامعين والباحثين عن المناصب، الذين تمكنوا في نهاية الأمر من إقناع السلطان بالقضاء على الصدر الأعظم قره مصطفى، وبعد قتله، أحل السلطان مكانه رجل عرف بفساده يدعى سلطان زاده باشا.

يبدو إن الصدر الأعظم الجديد، كان يبالغ في التملق للسلطان إلى حد أن السلطان سأله يوماً، "لاحظت أنك تؤيد وتبارك كل أقوالي وأفعالي" فرد عليه سلطان زاده باشا: أنت يا مولاي خليفة الرسول وظل الله في الأرض، وكلما تتفوه

به نفسك الشريفة، لابد أن يكون إلهاماً من السماء، وأنا العبد المطيع والمنفذ لرغباتكم وذلك حتى إذا استعصى علي فهم كنه تلك الرغبات !.[1]

كانت الجيوش العثمانية في تلك الفترة تخوض حروباً طاحنة لاستعادة مدينة "آزوف Azof" في بلاد القرم شمال البحر الأسود، التي استولى عليها القوزاق التابعين لقيصر موسكوفي. وبعد معارك طاحنة تمكن العثمانيون من الاستيلاء عليها ثم حرقها. وبعد الاستيلاء على آزوف جهز العثمانيون حملة بحرية كبيرة تمكنت من الاستيلاء على جزيرة كريت التابعة لجمهورية البندقية وكان ذلك في سنة ١٦٤٥م.

أما على الصعيد الداخلي، فإن أوضاع البلاد كانت تسير من سيئ إلى أسوأ، بسبب تمادي السلطان وبطانة السوء المحيطة به بفسادهم الذي بلغ حدوداً لا تطاق. مع تعالي موجة السخط والغضب بسبب تدهور الأوضاع، اجتمعت كلمة أمراء العسكر ورجال الدين الذين قرروا التدخل، لوضع حد لما كان يحدث في البلاد بسبب سوء تصرف السلطان إبراهيم والصدر الأعظم.

وفي أحد الأيام اجتمع أمراء الانكشارية والسباه وأحاطوا بالقصر، وطالبوا السلطان بطرد الصدر الأعظم الذي هرب وتوارى عن الأنظار. وحينما أرسل السلطان أحد رجال القصر ليأمرهم بالانصراف، صرخ فيه كبير الانكشارية "سوف لا ننصرف قبل أن تنفذ مطالبنا" وهي:[2]

أن يكف السلطان وحريم القصر عن المتاجرة بالمناصب الحكومية، وعن قبض الرشاوى من الطامعين بتلك المناصب.

١ ـ إبعاد عشيقات ومحظيات السلطان عن الحياة العامة.

٢ ـ قطع رأس الصدر الأعظم.

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٣١٤

(٢) ن.م.، ص٣١٦

في تلك الأيام كان السلطان مشغولاً بزفاف إحدى بناته على ابن الصدر الأعظم، الذي كان الانكشارية يطالبون بقطع رأسه. وفي اليوم التالي عثروا عليه وقتلوه، بعد ذلك طلبوا من السلطان الحضور لمواجهتهم، وحينما رفض السلطان ذهب وفد من أمراء العسكر ورجال الدين وعلى رأسهم المفتي عبد الرحمن أفندي لمقابلة السلطانة الوالدة، التي كانت تعيش في قصر مستقل لأن السلطان كان قد أبعدها من القصور الملكية، بسبب مؤامرات ودسائس عشيقاته.

استقبلت السلطانة الوالدة رجال الوفد، فأخبروها بأنهم قرروا عزل ولدها السلطان إبراهيم، واستبداله بحفيدها الطفل محمد ابن السلطان. وأخبروها بأن المفتي أصدر الفتوى اللازمة لذلك.

في تلك اللحظات العصيبة، اضطرت السلطانة الوالدة التي عانت الكثير من سوء تصرف ولدها السلطان إبراهيم، أن تقف بجانبه وتدافع عنه، فأجابتهم بأن السلطان كان ضحية وزراء السوء، وطلبت منهم عدم عزله بل وضعه تحت وصاية العلماء من رجال الدين والصدر الأعظم الجديد. ولكن مفتي الأناضول، رد عليها بالقول:

إن مشاكل السلطان تفاقمت، وجاوزت كل الحدود، ولابد من وضع نهاية لها، فالسلطان تمادى في قبض الرشاوى، وبيع المناصب، وانحرف عن جادة الصواب، وخرج على القانون والشريعة. ثم قال لها:

في هذه الأيام يصعب على الناس سماع صوت المؤذن من منارة جامع آيا صوفيا، لارتفاع قرع الطبول والآلات الموسيقية، وزعيق المغنين داخل القصر.

بعد برهة عادت السلطانة الوالدة وسألتهم: كيف يمكن أن يجلس على العرش صبي لم يبلغ السابعة من عمره؟، فأجابها المفتي:

لا يجوز شرعاً أن يجلس على العرش رجل ناقص العقل، ولكن يجوز أن يحل محله قاصر متوازن العقل، على أن يفوض الأمر إلى الصدر الأعظم، الذي

سيكون بإمكانه إرجاع الأمور إلى نصابها. فالدولة في عهد هذا السلطان تفشى فيها الفساد وأصابها الخراب وجللها العار. بعد برهة صمت، قالت السلطانة الوالدة:

إذا كانت هذه مشيئة الله، فسآتي بحفيدي الطفل محمد وأضع العمامة على رأسه. عندئذ ضج الجميع بالهتاف.

قبل أن تُحضر السلطانة الوالدة حفيدها محمد ليبايعه رجال الدولة، طلبت منهم أن لا يدخلوا عليه مرة واحدة لكي لا يرتعب منهم. ولذا دخل عليه أمراء العسكر والوزراء والأعيان بالتناوب وبايعوه. ثم ذهب الصدر الأعظم والمفتي وبقية رجال الدين وقابلوا السلطان إبراهيم. فخاطبه المفتي بقوله:

أيها السلطان عليك أن تتنازل عن العرش، فصرخ فيهم السلطان إبراهيم قائلاً: أنا لست سلطانكم أيها الخونة ... وهنا رد عليه مفتي الأناضول، أنت لم تعد سلطاناً منذ أن سلكت طريق الضلال، ودست على الحرمات، ونشرت الظلم والفساد. إنك لا تستحق هذا العرش الذي جلبت له العار. بعد ذلك اقتاد رجال أشداء السلطان إلى داخل القصر وحبسوه في أحد أركانه.

بعد عشرة أيام من اعتلاء السلطان الطفل محمد الرابع عرش آل عثمان، أبدى أمراء السباه عدم ارتياحهم من الوضع الجديد، وطالبوا بعودة السلطان إبراهيم الأول. وقد أحدث ذلك بلبلة في العاصمة، خشي قادة الانقلاب سوء العاقبة. ولقطع دابر الفتنة، قرروا قتل السلطان إبراهيم.

لتبرير قتل السلطان المخلوع، أوعز أمراء العسكر للمفتي أن يصدر فتوى تبرر عملية قتل السلطان إبراهيم. وقد أصدر المفتي الفتوى المطلوبة، استناداً إلى حديث ينسب إلى الرسول(ص) يقول:

"إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الثاني منهما".

بعد صدور تلك الفتوى، ذهب جماعة من أمراء العسكر، مستصحبين معهم الصدر الأعظم الجديد والمفتي، وجلاد متمرس يدعى "قره علي" وقتلوا السلطان إبراهيم الأول خنقا، كما جرت العادة في قتل السلاطين والأمراء.

وهكذا شاءت أقدار العراق، الذي تضرجت أرضه بالدماء مرة أخرى، في عهد السلطان مراد الرابع، وعاش شعبه قرابة عقد من الزمن، في ظل حكم سلطان فاسد مستهتر كالسلطان إبراهيم، أن يستقبل عهداً جديداً، بارتقاء عرش آل عثمان صبي لم يبلغ السابعة من عمره، هو السلطان محمد الرابع.

السلطان محمد الرابع

باعتلاء السلطان محمد الرابع عرش آل عثمان سنة ١٦٤٨م، دخلت الدولة العثمانية عهداً جديداً من الفوضى وسوء الأوضاع، امتد لأربعة عقود أخرى. ذلك العهد الذي قال عنه صاحب تاريخ الدولة العلية:

... ولصغر سنه وقعت المملكة في الفوضى وصارت الجنود لا ترحم صغيراً ولا توقر كبيراً وسعوا في الأرض فساداً ورجعت الحالة إلى ما وصلت إليه قبل تولي السلطان مراد الرابع بل إلى أتعس منها...وبعد ذلك توالت الثورات تارة من الانكشارية، وطوراً من السباه، وآونة من الأهالي لما يثقل عليهم نير استبداد الجنود. وتعاقب عزل وتنصيب الصدور بسرعة غريبة لم تسبق في الدولة، ولا في أيام حكم السلطان سليم تبعاً للأهواء والغايات. واختل النظام أو بعبارة صريحة صار عدم النظام نظاماً للدولة.(١)

في خضم تلك الحقبة السوداء من تاريخ الدولة العثمانية، توالت الاضطرابات والهزائم على الدولة. وحدثت أولى الهزائم في جزيرة كريت، التي كانت الجيوش العثمانية تحاصر عاصمتها كنديا. إذ تشير الأخبار إلى أن روح التمرد والفوضى التي عمت في اسطنبول، سرت إلى الوحدات العسكرية في تلك الجزيرة، مما أضطر القائد العسكري أن يرفع الحصار عن المدينة. بعد ذلك واجه

(١) محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٨٩-ص٢٩٠

الأسطول العثماني هزيمة منكرة أمام أسطول البندقية قرب سواحل مدينة إزمير العثمانية.

أما في أقاليم الأناضول، فقد ثار في سنة ١٦٤٩م رجل يدعى "قاطرجي أوغلي" (تعني بالتركية ابن سائق البغال) وقد امتدت نيران تلك الثورة إلى مناطق أخرى، بعد أن انضم إليها، ثائر آخر يدعى "كورجي يني". وقد تمكن الثوار بعد معارك دموية طاحنة، من إنزال هزيمة منكرة بالجيوش العثمانية، التي كانت بقيادة والي الأناضول أحمد باشا.

بعد ذلك الانتصار واصلت جيوش الثوار زحفها نحو العاصمة اسطنبول بهدف الاستيلاء عليها. ولكن أثناء زحف الثائرين، لجأت حكومة اسطنبول إلى الخديعة والمناورة، للخروج من تلك المحنة. إذ دخلت في مفاوضات سرية، تمكنت أثناءها من استمالة قاطرجي والتصالح معه، وتعيينه والياً على إقليم القرمان.

بعد أن نجحت القيادة العسكرية العثمانية في شق صف الثوار وإضعاف جبهتهم، توقف زحف الثائرين نحو اسطنبول التي كادت أن تسقط بأيديهم. وهذا بدوره مكن القيادة العسكرية العثمانية من لم قواها وتوجيه جيوشها نحو قوات كورجي يني وهزيمته. وبهذا الصدد قال محمد فريد:

...ولولا وقوع الشقاق بينهما لخيف على العاصمة من وقوعها في قبضتهما... . (١)

اسطنبول تحت الحصار

بينما كانت المعارك على أشدها داخل الأراضي العثمانية، هاجم أسطول جمهورية البندقية الأسطول العثماني عند مدخل الدردنيل، ونجح في تدميره. بعد تدمير الأسطول العثماني، استولى البنادقة على جزيرتي ليمنوس "Lemenos"

---

(١) ن.م. ص٢٨٩

وتنيدوس "Tenedos"[1] الإستراتيجيتين، وتمكنوا من إيقاف حركة المواصلات البحرية التي تربط اسطنبول بحرياً بالعالم الخارجي. وهكذا حاصر البنادقة العاصمة اسطنبول، وقطعوا وصول السفن الحاملة للبضائع والطعام إليها. ونتيجة لذلك الحصار ارتفعت أسعار القمح والمواد الغذائية الأخرى في اسطنبول.

تبين من تلك الأحداث، أن الدولة العثمانية التي فقدت أسطولها في مياه البحر المتوسط، لم تعد الدولة البحرية العظمى في المنطقة. وإن ذلك الحصار البحري أثار المزيد من الشكوك حول قدرة الدولة العثمانية على حماية العاصمة اسطنبول.

بمرور السنين كانت مشاكل الدولة تتفاقم، وتسير الأوضاع فيها من سيئ إلى أسوأ، وقد استمر الحال كذلك حتى سنة ١٦٥٦م، حينما تولى الصدارة في اسطنبول وزير عجوز يدعى محمد باشا "كوبريلي"[2].

الصدر الأعظم محمد كوبريلي

بدأ محمد كوبريلي حياته في مطابخ القصر السلطاني، وتدرج في وظائف أخرى ارتقى فيها حتى نال منصب حاكم إحدى الولايات. وقد أبدى كوبرولي جدارة وكفاءة عالية في جميع أعماله، وحقق نجاحات وإنجازات مهمة في الولايات التي تولى إدارتها. ويبدو أن قدراته وإنجازاته جلبت انتباه السلطانة الوالدة، التي توسمت به القدرة على إدارة دفة الدولة بحزم وحكمة، عسى أن يتمكن من إنقاذها من الأخطار التي أحدقت بها، وإنقاذ عرش ولدها السلطان. وعلى هذا الأساس

---

(١) ليمنوس و تنيدوس: جزيرتان عند مدخل الدردنيل أمام بر الأناضول. تشكلان معاً قلاعاً لحماية الدردنيل.

(٢) الكوبرو: هو الجسر بالتركية، وينتمي محمد باشا كوبرولي إلى عائلة فقيرة ألبانية الأصل استقرت في شمال الأناضول في بلدة تدعى كوبرو.

تحركت السلطانة الوالدة، ورتبت اجتماعاً سرياً مع محمد باشا كوبرولي. وبعد التباحث في الأمر معه، عرضت عليه مهمة تولي منصب الصدارة، وأكدت له وقوفها بجانبه، وتقديم كل عون لازم لدعم خطواته في الإصلاح.

كان محمد كوبريلي قد بلغ الواحد والسبعين من عمره، ولابد إنه شعر بأن توليه منصب الصدارة، في تلك الأيام العصيبة، سيكون أخطر وأصعب من أي مشوار خاضه، طيلة حياته السياسية. ولقبول منصب الصدارة عرض كوبريلي على السلطانة الوالدة خمسة شروط محددة هي:

١ ـ أن تتم الموافقة على جميع القرارات التي سيتخذها بدون مناقشة.

٢ ـ أن تطلق يده في إعادة النظر في تعيينات جميع مناصب الدولة وتعديلها.لا يجوز لأي وزير أو أي متنفذ في أي موقع في الدولة، أن ينافسه في الإدارة.

٣ ـ أن توجه جميع تقارير الدولة إلى مكتبه وتسلم إليه.

٤ ـ أن يمنحه السلطان ثقته ويرفض الاستماع لأي اعتراض على أعماله.

وبالتالي فإن كوبريلي طلب سلطات واسعة ومطلقة، لم يتسن لأي سلطان عثماني أن مارسها من قبل.

وافقت السلطانة الوالدة، على جميع طلبات كوبرولي، وأقسمت له بالنيابة عن ولدها السلطان، أن جميع شروطه ستنفذ، وستنال موافقة السلطان. بعد ذلك الاجتماع، رتبت السلطانة الوالدة لكوبريلي، جلسة خاصة مع السلطان، الذي أكد له موافقته على شروطه، وعلى كل ما تم الاتفاق عليه مع السلطانة الوالدة.[1]

لم يسبق لأي وزير عثماني أن نال منصب الصدارة ومسك بمثل تلك الصلاحيات الواسعة التي كانت بمثابة سلطة مطلقة لحكم البلاد. وعليه فإن استلام

---

(١) Lord Kinross - The Ottoman Centuries P٣٣١-P٣٣٢

محمد كوبريلي باشا منصب الصدارة، كان نقطة تحول مهمة في تاريخ الدولة العثمانية التي كانت تنحدر نحو الهاوية بسرعة مخيفة.

منذ الأيام الأولى لتسلم محمد كوبريلي باشا زمام الأمر في الدولة، باشر في تنفيذ سياسة حديدية، كانت تجمع بين الحزم والحكمة السياسية المبنية على تجارب الماضي المريرة المدركة لتحديات المستقبل. وفي المراحل الأولى نظم كوبريلي حملات واسعة للقضاء على المشاغبين ورؤوس الفتنة في الأوساط العسكرية. وقد تركزت تلك الحملات على العسكريين من الانكشارية والسباه، الذين قتل منهم أعداداً كبيرة. ثم توسعت عمليات القتل فشملت رجال الإدارة الفاسدين، والمنتشرين في مختلف دوائر الدولة.

وللتعويض عن تلك العناصر، فتح باب التجنيد، وقبل أعداداً كبيرة من المجندين في صفوف الجيش، جلبهم من مناطق البلقان وخاصة ألبانيا موطنه الأصلي. لم تقتصر تلك العملية على التجنيد العسكري، بل تعدتها إلى وظائف الدولة الإدارية. فبعد عمليات التصفية والتخلص من العناصر الفاسدة، جلب كوبريلي أعداداً أخرى من الإداريين والموظفين الجدد من ألبانيا وبلغاريا ومناطق البلقان الأخرى، وذلك لسد الشواغر الحاصلة في مختلف الإدارات المدنية.

في السنة التالية جهز كوبريلي أسطولاً عثمانياً كبيراً، وبعث به لمحاربة أسطول البندقية. وبعد معارك شديدة استمرت فترة طويلة، انتصر العثمانيون وتمكنوا من استرداد الثغور والجزر التي كان قد استولى عليها البنادقة. وبذلك تمكنوا من رفع الحصار عن مياه الدردنيل، وحرروا خطوط مواصلاتهم البحرية.

وزارة أحمد كوبريلي

بعد مرور خمس سنوات من الحكم، توفي الوزير محمد كوبريلي، فعهد السلطان بالصدارة، إلى ولده أحمد كوبريلي، الذي لم يكن قد تجاوز السادسة والعشرين من عمره، وقد كانت تلك ظاهرة سياسية جديدة في الدولة العثمانية، إذ

لم يسبق في الدولة، أن ورث الابن أباه في منصب الصدارة. بعد توليه تمسك هذا الوزير الشاب بسياسة والده، وسار عليها بنفس الحزم والكفاءة.

في الفترة ما بين سنتي ١٦٥٦م و ١٦٧٦م، انشغلت الدولة العثمانية بسلسلة من النزاعات السياسية والعسكرية، مع عدد من القوى الأوربية، منها مملكة بولونيا، ومملكة السويد، وإمارة ترانسلفانيا، ومع أمراء الفلاغ والبغدان. إضافة إلى مملكة فرنسا، وجمهورية البندقية، ومملكة الروس بعد حكم دام خمسة عشر عاما. توفي في سنة ١٦٧٦م، الوزير أحمد كوبريلي. وبعد وفاته عهد السلطان، بمنصب الصدارة إلى قرة مصطفى.

وزارة قرة مصطفى

كان قره مصطفى يختلف من عدة وجوه عن سابقيه. إذ تشير الأخبار بأنه كان رجلاً معتداً بنفسه، ذو طموحات إمبراطورية لا حدود لها. غير أن الأيام أثبتت أن كفاءاته لم تكن ترقى إلى مستوى تلك الطموحات. ففي الخمس سنوات الأولى من إدارته، اشتبكت القوات العثمانية مع القوات الروسية عدة مرات، تمكن الروس أثناءها إنزال هزائم منكرة بالجيوش العثمانية وتكبيدها خسائر فادحة بالأرواح والعتاد. ونتيجة لتلك الانتصارات الروسية، أضطر العثمانيون إلى الانسحاب من أوكرانية والتوقيع في سنة ١٦٨١م، على معاهدة سلم مع الروس، تخلوا بموجبها عن أي إدعاء في أوكرانيا. وتعهد الطرفان بعدم، تشييد أي قلاع عسكرية بين نهري الباك والدينستر. وهكذا مهدت الدولة العثمانية الطريق لتوسعات لاحقة، للدولة الروسية النامية، على حساب الإمبراطورية العثمانية.

يقال أن قره مصطفى لم يكن يهتم بتلك الهزائم السياسية والعسكرية التي حدثت على الجبهة الروسية، لأن أحلامه وطموحاته كانت موجهة إلى قلب أوربا، بعد أن عقد العزم على الاستيلاء على فينّا. العاصمة الأوربية التي استعصت على جيوش السلطان الفاتح سليمان الأول.

في سنة ١٦٨٣م زحفت الجيوش العثمانية بقيادة الصدر الأعظم قره مصطفى، بهدف الاستيلاء على فينّا. وفي المراحل الأولى، تمكنت جيوش قره مصطفى الاستيلاء على القلاع الأمامية، ثم ضربت الحصار حول المدينة لمدة شهرين، تمكنت أثناءها من هدم أقسام من سورها بواسطة المدافع والألغام، استعداداً لاقتحامها.

في تلك الأثناء وردت جيوش أوربية كبيرة جاءت لنجدة إمبراطور النمسا، استجابة لنداء البابا الذي كان يقود محاولات أوربا المسيحية الرامية إلى إيقاف تقدم العثمانيين نحو قلب أوربا. وحال وصول تلك الجيوش إلى ساحة الحرب اشتبكت بمعارك ضارية مع العثمانيين، وبعد قتال شديد، تمكنت جيوش من بولونيا، وأخرى من المقاطعات الألمانية، إنزال هزيمة منكرة بالجيوش العثمانية التي انهارت مقاومتها، وهرب أفرادها مخلفين وراءهم كافة أسلحتهم ومؤنهم ومدافعهم الثقيلة.

بعد ذلك الانهيار العسكري، واصل الأوربيون مطاردة فلول الجيوش العثمانية المتقهقرة، منزلين بها خسائر فادحة. كتب محمد فريد عن نتائج تلك الهزيمة الشائنة، التي كان لها وقع أليم في اسطنبول. فقال:

وانهزم قره مصطفى باشا وجيوشه أمامهم تاركاً كافة المدافع والذخائر والمؤن. فكان يوماً مشهوداً يجعل الولدان شيباً ... ولما وصل خبر هذا الخذلان الذي لم يسبق لجيوش الدولة العثمانية، أمر السلطان محمد الرابع بقتل الصدر قره مصطفى باشا وأرسل أحد رجال حاشيته فقتله وأرسل برأسه إلى القسطنطينية وعين مكانه إبراهيم باشا سنة ١٠٩٥هـ (١٦٨٣م)... .[١]

في سنة ١٦٨٥م تمكنت الجيوش النمساوية من إنزال هزائم جديدة بالجيوش العثمانية، استولت على أثرها على عدد من القلاع والحصون العثمانية في أوربا. بعد تلك الهزائم المتعاقبة، تم عزل الصدر الأعظم إبراهيم باشا ونفيه إلى جزيرة

(١) محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٣٠١

رودس. وعهد بمنصب الصدارة إلى سر عسكر "قائد جيش" سليمان باشا. ولكن هزائم العثمانيين استمرت، فقد استولت جيوش أوربية بقيادة الدوق ديلورين على مدينة "بود" وقضت على حاكمها عبدي باشا، وعلى أربعة آلاف مقاتل من جنوده.

حاول العثمانيون التعويض عن هزائمهم تلك، فجهز الصدر الأعظم جيشاً كبيراً قوامه ٦٠ ألف مقاتل يعززهم سبعون مدفعاً، وهاجم في سنة ١٦٨٧م الجيوش الأوربية في سهل "مهاكز"، وبعد معارك ضارية دارت الدوائر مرة أخرى على العثمانيين الذين هربوا من ساحة المعركة، مخلفين وراءهم أسلحتهم ومدافعهم وجميع ذخائرهم. وبذلك تمكنت الجيوش الأوربية من الاستيلاء على إقليم ترانسلفانيا وعلى عدد من القلاع في إقليم كرواتيا.

في اسطنبول وبعد ورود أخبار تلك الهزائم المشينة التي جلبت العار للجميع، هاج الانكشارية والسباه، وأرسلوا الرسل إلى من تبقى من العساكر العائدين من الجبهة، طالبين منهم أن يعلنوا العصيان ويقتلوا قائدهم. غير أن القائد سليمان باشا تمكن من الهرب والوصول إلى بلغراد. ثم أرسل الانكشارية والسباه، وفداً إلى السلطان طلب منه قتل الصدر الأعظم.

عزل السلطان محمد الرابع

للحد من الغضب العارم، الذي انفجر في أوساط العسكر، اضطر السلطان محمد أن يأمر بقتل الصدر الأعظم، ولكن الاضطرابات استمرت وتوسعت، حتى باتت تشكل تهديداً خطيراً لمؤسسة الحكم في اسطنبول. ولمعالجة ذلك الوضع الخطير، اجتمع أمراء العسكر وقرروا عزل السلطان محمد الرابع. وكما جرت العادة في الدولة العثمانية أوعز أمراء العسكر إلى رجال الدين بإصدار فتوى تبرر عزل السلطان. وبعد استخلاص الفتوى المطلوبة عزل أمراء العسكر، في أواخر سنة ١٦٨٧م، السلطان محمد الرابع ثم أجلسوا على العرش أخاه السلطان سليمان الثاني.

السلطان سليمان الثاني

هو ابن السلطان إبراهيم الأول. أجلسه الانكشارية على العرش، فكان عليه أن يتغاضى عن عصيانهم ومخالفاتهم بما في ذلك عزل أخيه السلطان. وكما جرت العادة كان عليه أن يدفع للانكشارية الأموال ويغدق عليهم بالعطايا.

في ظل ذلك الوضع السياسي، تمرد الانكشارية مرة أخرى وأقدموا على قتل قادتهم، ثم حاصروا الصدر الأعظم الجديد سيواس باشا في السراي وقتلوه، ثم انتهكوا حرمة زوجاته وأهل بيته. وهكذا غرقت اسطنبول مرة أخرى في بحر من الدماء والفوضى.

انتهزت القوى الأوربية تلك الاضطرابات، فتحركت جيوشها واستولت على حصون ومواقع عثمانية جديدة. فقد احتل النمساويون عدداً من القلاع العثمانية، أما جيوش البندقية، فقد تمكنت من الاستيلاء على مدينة "ليبة" في بلاد اليونان والسيطرة على سواحل دالماسيا. وفي سنة ١٦٨٨م سقطت بأيدي النمساويين عدة مدن عثمانية منها سمندرية وكولومباز وبلغراد. ثم فقدت الدولة العثمانية في سنة ١٦٨٩م مدينتي نيش وودين في بلاد الصرب. وأمام تلك المصائب والانهيارات عزل السلطان، الصدر الأعظم والتجأ مرة أخرى إلى عائلة كوبريلي.

الوزير مصطفى كوبريلي

في هذه المرة وجه السلطان منصب الصدارة إلى مصطفى باشا كوبريلي، الابن الثاني لمحمد باشا كوبريلي. وبعد تسلمه زمام الأمر تمكن كوبريلي، من إعادة النظام والاستقرار إلى الدولة. ولما عاد النظام، تمكن الوزير كوبريلي من استعادة بعض ما فقدته الدولة من المدن والقلاع.

في صيف سنة ١٦٩١م توفي السلطان سليمان الثاني وتولى بعده أخيه السلطان أحمد الثاني. وفي عهده استولى البنادقة في سنة ١٦٩٤م على جزيرة

ساكز. وبعد مرور سنة من ذلك، توفي السلطان أحمد الثاني وتولى بعده السلطان مصطفى الثاني بن السلطان محمد الرابع.

السلطان مصطفى الثاني

بعد توليه العرش خرج السلطان مصطفى في سنة ١٦٩٥م، على رأس حملة عسكرية لمهاجمة بولونيا، ثم سار لمحاربة قيصر روسيا بطرس الأكبر، الذي كانت جيوشه تحاصر مدينة آزاك في بلاد القرم. وقد استعان السلطان في تلك الحرب، بقبائل القوزاق التي كانت تسيطر على بلاد القرم، وتحول دون حصول روسيا على موطئ قدم على البحر الأسود.

في سنة ١٦٩٧م تعرضت الجيوش العثمانية لهجوم مفاجئ من قبل الجيوش النمساوية أثناء عبورها أحد الأنهار في بلاد المجر، في ذلك الهجوم تمكن النمساويون من القضاء على أعداد كبيرة من العساكر العثمانية بما فيهم الصدر الأعظم، وقد نجا السلطان من الموت بأعجوبة، إذ كان قد عبر النهر قبل وصول الجيش النمساوي. وبعد تلك الكارثة، ظلت الجيوش النمساوية تطارد العثمانيين حتى تمكنت من الاستيلاء على بلاد البوسنة.

في تلك الأثناء تمكن بطرس الأكبر من الاستيلاء على ميناء آزاك، وبذلك تمكنت روسيا من الوصول إلى مياه البحر الأسود.

معاهدة كارلوفيتش "Carlovitz"

مع نهاية القرن السابع عشر، كانت الدول الأوربية قد قطعت أشواطاً طويلة على طريق التقدم عبر سلسلة من الإنجازات في ميادين الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، الذي بدوره مكّنها من مضاعفة ضغوطها، وتحدي الإمبراطورية العثمانية العجوز التي كانت تمتلك أعظم قوة عسكرية في العالم.

وبعد أن تمكنت تلك القوى الأوربية الصاعدة، من تحويل موازين القوى الاقتصادية والعسكرية لصالحها، أصبح بإمكانها فرض واقع جديد وتوازنات جديدة على الساحة الأوربية. وكانت حصيلة ذلك معاهدة كارلوفيتش[١] التي تم توقيعها في ٢٦ كانون ثاني "يناير" سنة ١٦٩٩م، تلك المعاهدة التي تعد نقطة تحول، في تاريخ العلاقات العثمانية الأوربية. فقد تضافرت في تلك الفترة جهود القوى الأوربية، واتفقت على التضييق على الدولة العثمانية، وجرها إلى منحدر التنازلات عن امتيازاتها، والتخلي بالتدريج، عن ممتلكاتها الإمبراطورية خاصة في أوربا. ذلك الوضع الذي أطلق عليه الكتاب الغربيون مصطلح "المسألة الشرقية".

وبموجب معاهدة كارلوفيتش:

١ ـ تنازلت الدولة العثمانية عن بلاد المجر بأجمعها، وإقليم ترانسيلفانيا لدولة النمسا.

٢ ـ تنازلت عن مدينة آزاك لروسيا، وبذلك حصلت روسيا على موطئ قدم لها على البحر الأسود. وبذلك فقدت الدولة العثمانية هيمنتها العسكرية والاقتصادية على تلك المنطقة الحيوية.

٣ ـ تنازلت لمملكة بولونيا، عن مدينة كامينك وإقليمي بودوليا وأوكرووين.

٤ ـ تنازلت للبندقية، عن جزيرة مورا وإقليم دالماسيا على البحر الأدرياتيكي.

٥ ـ اتفقت مع النمسا على هدنة مدتها ٢٥ سنة، امتنعت بموجبها الدولة النمساوية عن دفع أية جزية للعثمانيين، بما في ذلك المبالغ التي كانت تدفع باسم الهدايا.

وبهذه المعاهدة، ودعت الدولة العثمانية القرن السابع عشر، واستقبلت القرن الثامن عشر الذي دخلت فيه مرحلة جديدة من تاريخها.

---

(١) كارلوفيتش: مدينة يوغوسلافية واقعة على نهر الدانوب إلى الجنوب الغربي من مدينة زغرب.

الباب الخامس

الإدارة العثمانية حتى ولاية حسن باشا

الفصل الأول

المجتمع العثماني الجديد في بغداد

بعد الاستيلاء على العراق، أقامت الدولة العثمانية إدارة حكومية جديدة في بغداد، لا تختلف في تشكيلاتها وعناصرها عن المؤسسة الإدارية في اسطنبول. وبمرور الزمن ظهرت في البلاد، طبقة عسكرية وإدارية جديدة غريبة عن المجتمع العراقي.

كان أفراد تلك الطبقة الحاكمة، يجمعون بين الخبرة العسكرية، والمهارات الإدارية المتنوعة، التي تؤهلهم الإمساك بمختلف الوظائف الحكومية والتصرف بشؤون البلاد. وبصورة عامة كان جميع أفراد تلك الطبقة الحاكمة الجديدة مماليك من أصول أوربية تلقوا تعليمهم وتدريبهم أما في مدرسة السراي أو في معاهد مشابهة في اسطنبول. ولما كانت التركية، هي لغة التخاطب بالنسبة لأفراد تلك الطبقة الحاكمة، إضافة إلى كونها، اللغة الرسمية في دوائر الدولة، فإن أفراد تلك الطبقة الحاكمة ظلوا معزولين عن المجتمع العراقي. وبمرور الزمن وتعاقب الأجيال، كونوا داخل ذلك المجتمع مجتمعاً حاكماً أرستقراطياً منغلقاً على نفسه، تفصله عن باقي أفراد الشعب حواجز اللغة والعادات والتاريخ والمصالح.

ومن الجدير بالملاحظة، أن أبناء تلك العوائل العثمانية، كانوا يبعثون إلى اسطنبول لتلقي علومهم وتدريبهم، في المدارس الحكومية التي تعلّم فيها آباؤهم، والتي كانت توصد أبوابها في وجه أبناء البلاد الأصليين. وبعد تخرجهم كانوا ينخرطون في مختلف الوظائف.

إن ذلك الواقع الذي فرضته مصالح تلك الطبقة الحاكمة، يفسر حقيقة تاريخية على غاية من الأهمية، تكشف لنا الأسباب الجوهرية وراء عدم قيام نظام تعليمي في العراق، في تلك العهود العثمانية.

ولما كان الانكشارية، يمثلون القوة العسكرية العظمى في الدولة، وذراع الحكومة المركزية في مختلف الولايات. فإن وجودهم في الولاية، كان يحاط بامتيازات خاصة. إذ كان الانكشارية لا يخضعون لسلطة الوالي المحلي، بل كانوا يرتبطون مباشرة بالقيادة المركزية في اسطنبول، التي كانت تتولى أمور إعاشتهم. وكان من ثوابت السياسة العثمانية أن يمسك الانكشارية بالمدافع والعدد الثقيلة، والأسلحة الأساسية في الولاية.

أما الجيش المحلي الذي كان تحت إمرة الوالي، فكان خليطاً من القوات النظامية وشبه النظامية المزودة بأسلحة بسيطة. وذلك لكي لا يكون نداً من الناحية العسكرية، للجيش الانكشاري في الولاية. وكانت مخصصات وإعاشة ذلك الجيش، أي ما كان يسمى (العلوفة)، تعتمد على موارد الميزانية المحلية في الولاية.

لابد أن نذكر حقيقة تاريخية أخرى، هي أن الدولة العثمانية لم تكن تسمح لعرب العراق، بالانخراط في صفوف العسكر المحلي، الذي ظلت وحداته النظامية وشبه النظامية عبر العهود العثمانية تتألف من جماعات غير عربية. هكذا كانت طبيعة الحكم العثماني في العراق بمفاهيمه السياسية والعسكرية والإدارية.

وكما ألمحنا في فصل سابق، فإن قوانين السلطان سليمان الإصلاحية شملت القضاة وبقية رجال المؤسسة الدينية الذين منحتهم الدولة امتيازات إضافية بما في ذلك إعفاؤهم من الضرائب الحكومية وحماية ممتلكاتهم من المصادرة. وفي العراق وضمن إطار تلك القوانين، باشرت الدولة العثمانية في إقامة مؤسسة دينية تعتمد مصادر رزقها على الحكومة.

ومن الجدير بالملاحظة أن الدولة العثمانية تركت قوة عسكرية كبيرة في العراق. فالجيش المحلي "قول بغداد" بلغ نحو عشرين ألف رجل، هذا عدا فرسان

السباه والعسكر الانكشاري الذي بلغ نحو ثمانية آلاف رجل بكامل عددهم وأسلحتهم الثقيلة. ولا يخفى أن إرسال ذلك العدد الكبير من العسكر الانكشاري إلى بغداد، كان الهدف منه:

أولاً ـ إبعاد العناصر العسكرية المشاغبة عن العاصمة اسطنبول.

وثانياً ـ التأكيد على إلحاق بلاد الرافدين بالإمبراطورية العثمانية بصورة أبدية.

وهنا ظهرت أهمية القوانين التي سنت في عهد السلطان سليمان، بالنسبة لمسألة استقرار رجال الإنكشارية على أرض العراق، وإقامة مجتمعهم الخاص في ظل الامتيازات التي أهلتهم أن يكونوا الطبقة الحاكمة في مجتمع السلطة العثمانية. وبمرور الأيام اتسع دور وتأثير تلك الجماعات الانكشارية في مسيرة الأحداث في العراق. وبالرغم من الهزات العنيفة، والانتكاسات التي تعرض لها الحكم العثماني في العراق، سواء في النصف الثاني من القرن السابع عشر أو الحقب التي تلت ذلك، فإن وجود تلك الجماعات أستمر في العراق. ومن المعروف أن عدداً من البيوتات القديمة الموجودة حالياً في بغداد وفي مناطق أخرى من العراق، هي من بقايا ذلك المجتمع الانكشاري الذي أقامه السلطان مراد الرابع.

إن حكام بغداد الجدد تمسكوا طيلة وجودهم بثوابت السياسة العثمانية، التي كانت تؤكد على إبعاد أهل البلاد عن مؤسسة السلطة. وحينما نتابع عملية تطور ذلك المجتمع العثماني الاستيطاني في العراق، يتضح لنا أن الحكام العثمانيين في العراق، عملوا ما بوسعهم في سبيل استبعاد سكان البلاد الأصليين من العرب، والكرد، والتركمان وغيرهم، عن مكونات ذلك المجتمع الحاكم.

وهنا لابد أن نشير إلى حقيقة تاريخية سبق أن نوهنا بها، عن أوضاع تركمان العراق، لأنهم يتكلمون اللغة التركية. وبهذا الخصوص لابد أن نشير إلى أن تركمان العراق بأكثريتهم الساحقة هم من بقايا التركمان الذين أقاموا دولتي

"القره قوينلو"، و"الآق قوينلو" في أقاليم ما كان يعرف بدولة سلاجقة إيران[1]. وأن لهجتهم في التخاطب هي أقرب إلى اللهجة التركية الأذرية[2]، منها إلى اللهجة التركية في أقاليم الأناضول "تركيا حالياً". ثم أن مناطق تركمان العراق دخلت ضمن مناطق الدولة الصفوية، التي قامت على أنقاض إمبراطوريتي القرة قوينلو والآق قوينلو. وإن أغلب قبائلهم كانت تدين بالولاء للدولة الصفوية، ومن المحتمل أن انضمت جماعات منهم، إلى القوات الصفوية التي دافعت عن بغداد ضد جيش السلطان مراد الرابع. ولذا يمكن القول بأن الظروف التي حاقت بالتركمان في العراق طيلة تلك العصور، لم تكن تختلف جوهرياً عن الظروف التي حاقت ببقية السكان.

ولعل هذا يفسر اختلاط عدد من قبائل التركمان المحلية بجيرانهم من العرب أو الكرد وتعايشهم معهم، وبالتالي انصهار جماعات منهم في بوتقة تلك المجتمعات المحلية. وعلى سبيل المثال لا الحصر، قبيلة البيات التي تعد من كبريات قبائل التركمان في العراق امتزجت بعض أفخاذها بمجتمعات العرب والكرد. وبمرور الزمن ظهرت جماعات من البيات في العراق، تتخاطب باللغة العربية وتلبس الزي العربي، وجماعات أخرى من البيات تتخاطب باللغة الكردية.

الانكشارية والإقطاع الزراعي

في سنة ١٦٠٧م امتلك الوالي الانكشاري محمود باشا جغالة زاده، مقاطعة زراعية كبيرة جنوب بغداد عرفت بـ "المحمودية". إن استحواذ ذلك الوالي الانكشاري، على تلك المقاطعة الزراعية الكبيرة القريبة من بغداد، وإطلاق اسمه

---

(١) أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب، الباب الرابع ص١٩٥-٢٠٦. كذلك ص٢٢٧-٢٣٣

(٢) اللهجة الأذرية هي السائدة في إقليم أذربيجان الإيراني وفي جمهورية أذربيجان المستقلة (السوفيتية سابقاً) الواقعة على بحر قزوين.

عليها يلقي الضوء على ظاهرة تاريخية تستحق البحث. فهي من جهة تكشف توجهات أمراء العسكر الانكشاري، ورغبتهم في امتلاك إقطاعيات زراعية كبيرة في وادي الرافدين. ومن جهة أخرى تعطينا مثلاً حياً لأهمية القوانين التي أدخلتها الدولة العثمانية، في عهد السلطان سليمان الأول. إذ أن تلك القوانين سمحت للانكشارية بالزواج والإقامة خارج الثكنات، وسمحت لهم بامتلاك الأراضي الزراعية وممارسة التجارة والأعمال الأخرى. غير أن تلك التجربة انتكست بعد تمرد بكر صوباشي، واستيلاء الشاه عباس الصفوي على العراق.

ولكن بعد مرور حوالي خمسة عشر عاماً على الحكم الصفوي في بغداد، زحفت الجيوش العثمانية بقيادة السلطان مراد الرابع واستولت مرة ثانية على العراق. وفي هذه المرة أقامت الدولة قاعدة عسكرية كبيرة في بغداد، كان عمادها العسكر الانكشاري. وباستقرار الانكشارية، ولد المجتمع العثماني الجديد في العراق. الأمر الذي استتبع عنه إحياء المشروع العثماني الاستيطاني، الذي كان يطمح إلى الاستحواذ على الأراضي الزراعية في العراق وتمليكها للانكشارية، وفي حالة إنجاز ذلك المشروع، تكون الدولة قد أصابت عصفورين بحجر .!. فمن جهة تكون قد تخلصت من عناصر الشغب والاضطرابات في اسطنبول، ومن الجهة الأخرى تكون قد أوجدت طبقة عسكرية إقطاعية جديدة سترتبط مصالحها بالحكومة المركزية في اسطنبول، وتكون سندها العسكري في العراق.

وحينما نستعرض أحداث العهد العثماني الثاني، تتبين لنا ملامح تلك السياسة العثمانية الجديدة في العراق. ولا نحسب أن المذابح التي نفذها الانكشارية، وسياسة العنف التي ساروا عليها بعد الاستيلاء على بغداد، كانت خارج ذلك المنظور العثماني. ومما يعزز هذا الرأي، حادثة مقتل نقيب السادات السيد دراج، سادن الإمام الحسين، وكذلك الحملة العسكرية ضد الخزاعل.

من كل هذا نستنتج أن العثمانيين سلكوا في عهدهم الثاني في العراق سياسة عسكرية، كان هدفها سحق مقاومة العشائر العراقية، والاستحواذ على أراضيهم

الزراعية لتمليكها لأمراء المجتمع العثماني الجديد. وبالتالي تحويل أفراد تلك العشائر إلى فلاحين مستعبدين يعملون في إقطاعيات الحكام الجدد من الأمراء الانكشارية الذين تم توطينهم في العراق.

ولابد أن أمراء الانكشارية كانوا يتطلعون إلى إقامة مجتمع عثماني حاكم في العراق، يجمع بين السطوة العسكرية والثراء الإقطاعي، كما كان الحال في عدد من الأقاليم العثمانية الأخرى.

ولكن خصوصيات العراق بطبيعة أنهاره، واستعصاء أهواره وبطائحه وبواديه الشاسعة، منحت عرب العراق القدرة على الدفاع والتمسك بالأرض، بالرغم من الصعاب والأهوال التي واجهوها عبر السنين.

وفي ضمن هذا الإطار، نستطيع القول إن الأحداث التاريخية التي وقعت في العراق في العصور العثمانية، كانت في جوهرها صراعاً بين عرب العراق والمؤسسة العسكرية العثمانية، حول السيادة على أرض وادي الرافدين.

بغداد تحت سلطة العسكر

بعد وفاة السلطان مراد الرابع دخلت الدولة العثمانية، مرحلة جديدة من الضعف والانحطاط، وكان طبيعياً أن تنعكس آثار ذلك الوضع على العراق. ونحن نعلم أن السلطان مراد ترك في بغداد قوات عسكرية كبيرة من الانكشارية. ورأينا نتائج وجود تلك الأعداد الكبيرة من العسكر الانكشاري في بغداد، والطريقة التي تم فيها استخدامهم في الحملات العسكرية التي كان هدفها تغير واقع الحياة في العراق.

ولكن لم تكد تمر فترة طويلة على وجود العسكر الانكشاري والسباه في بغداد، حتى سرت عدوى الفتن والاضطرابات إلى ذلك المجتمع العثماني الذي أقاموه ليتولى حكم البلاد. وبسبب تلك الفتن والاضطرابات والفوضى التي سادت

في الإدارة، ارتبكت المعلومات عن عدد من الولاة الذين تولّوا في بغداد لفترات متفاوتة، إذ لا يعرف عنهم إلا القليل.

إبراهيم باشا

في خريف سنة ١٦٤٦م، تم تعيين إبراهيم باشا لولاية بغداد. وفي عهد هذا الوالي، أخذت الاضطرابات والفتن أبعاداً جديدة.

كان إبراهيم باشا من حاشية الصدر الأعظم صالح باشا، وهذا عينه لولاية بغداد. وفي خضم الفوضى والاضطرابات المستمرة في اسطنبول قتل الانكشارية صالح باشا. وبعد مقتله عينت الدولة أخاه مرتضى باشا لولاية بغداد ربما لإبعاده عن اسطنبول، ولكن مؤامرات الانكشارية لاحقت مرتضى باشا فقتل هو الأخر في ديار بكر.

كانت تلك الأحداث كفيلة في إثارة مخاوف والي بغداد إبراهيم باشا من الانكشارية، مما دفعه إلى الانحياز إلى جانب رجال الجيش المحلي "قول بغداد" الخصوم التقليديين للعسكر الانكشاري. ويقال إنه ضيق الخناق على الانكشارية، وعمل على إضعافهم بعد أن اقتنع بأن حكومة اسطنبول قد تخلت عنه، وإنها تتآمر ضده. ويبدو أن مثل تلك الأفكار دعته إلى إثارة جيش بغداد وتحريضه على الثورة للإمساك بمقاليد الأمور في العراق. ويقال إن أمراء جيش بغداد المحلي تجاوبوا معه ودعموا تحركاته. وهكذا قبض إبراهيم باشا على الأمور وزاد في مضايقة أمراء العسكر الانكشاري.

وبينما هو غافل عما كان يجري حوله، وصل من اسطنبول "متسلم"[١] أعلن عزل الوالي إبراهيم باشا، وتعيين الوزير موسى باشا محله في بغداد. ولكن أمراء

(١) المتسلم: بالمفهوم الإداري العثماني هو من تبعثه الدولة لاستلام مقاليد الولاية من الوالي المعزول أو المنقول ريثما يصل الوالي الجديد.

الجيش المحلي "قول بغداد" رفضوا ذلك الأمر، وأجبروا المتسلم على مغادرة بغداد وطلبوا منه العودة إلى اسطنبول لإلغاء قرار عزل الوالي.

بعد خروج المتسلم من بغداد، تجمع الانكشارية في الميدان والقلعة، فكان ذلك إنذاراً بإشعال نار الفتنة. ويبدو أن إبراهيم باشا خشي عواقب تأزم العلاقة بين بغداد واسطنبول، فادعى أنه لم يكن يعلم بأمر إخراج المتسلم من بغداد. في تلك الأثناء جرت وساطة بين الوالي وأمراء الانكشارية، مما دعاه للذهاب إلى القلعة لبحث الأمر مع أمرائهم عسى أن يجد مخرجاً لنفسه من تلك الورطة. ولكن بعد دخوله القلعة، أحاط به رجال الانكشارية وألقوا القبض عليه.

بعد القبض على إبراهيم باشا، بعث الانكشارية من أعاد المتسلم إلى بغداد ليقوم مقام الوالي الجديد. ولكن الأمور لم تهدأ، لأن أمراء جيش بغداد أصروا على تمسكهم بإبراهيم باشا والمطالبة بإطلاق سراحه. وهكذا استمرت الأجواء المتوترة تنذر بالخطر. في تلك الأثناء ورد إلى بغداد "الميراخور"(١) الصغير للسلطان، وهذا أمر بقتل الوالي إبراهيم باشا.

موسى باشا

كان موسى باشا من خصيان البلاط المقربين من السلطان إبراهيم الأول، وكان مفرطاً بالبدانة، ولذا لقب "موسى باشا السمين". وبسبب بدانته كان يصعب عليه التنقل، ولذا ترك أمور الولاية بيد الغير. وهذا زاد من تسلط الانكشارية على الوالي وعلى مقاليد الأمور في بغداد.

---

(١) الميراخور: تعني ضابط الإسطبل وهو أحد الألقاب العسكرية الرفيعة لأمراء الانكشارية مثل جوربجي وبستنجي... إلخ. كما مر شرحه في الجزء الأول في بحث الجيش الانكشاري.

وبتأثير من الانكشارية، طرد موسى باشا رجال الجيش المحلي "قول بغداد" وأجبرهم على النزوح من بغداد. وبعد خروجهم أخذ الانكشارية يطاردونهم ويقتلون من يقبضون عليه، ولم ينج منهم إلا من هرب وعبر الحدود إلى إيران.

في داخل بغداد شن الانكشارية حملة شعواء، بحثاً عن المختفين من رجال الجيش المحلي. وكان الوالي يأمر بقتل من يعثر عليه. في أثناء تلك الحملة، تمادى الانكشارية وتوسعوا في عمليات القتل حتى شملت أعداداً كبيرة من الأبرياء الذين لم يكن لهم ضلع في تلك الاضطرابات. قال العزاوي:

... وعلى كل تركت البقية الباقية ديارها وأسرعت بالهزيمة إلى بلاد العجم، فعاشت في غربة أو هلكت في طريق هذا التشتت وتبعثرت أحوالها ... صار القوم يشتبهون في كل واحد من الآهلين فلم يأمنوا على حياتهم، يخشون الغوائل ويتوقعون الأخطار فكان الاضطراب مستولياً على بغداد ... .[1]

وتبين فيما بعد أن موسى باشا كان في تلك الأثناء منهمكاً في نهب أموال الناس بمختلف الطرق، وأنه قتل ما يربو على المائتين من التجار والمتمولين واستحوذ على أموالهم.

كانت أعمال المطاردة والقتل على الشبهات، تزداد بتوالي الأيام، حتى بلغت حداً أخذ ينذر بالخطر ويهدد بانهيار سلطة الحكومة في بغداد. ولإنقاذ الموقف عزلت حكومة السلطان، الوالي موسى باشا وأصدرت الأوامر إلى أمير أمراء ديار بكر، والوزير أحمد باشا، وجعفر باشا، للخروج على رأس جيوشهم والذهاب إلى بغداد للسيطرة على الأمور وإعادة النظام.

بعد وصول تلك الجيوش العثمانية إلى بغداد، تم القبض على الوالي موسى باشا وتسفيره إلى اسطنبول. ويقال إن موسى باشا بذل في اسطنبول جهوداً كبيرة، وقدم لكبار المسؤولين هناك هدايا ثمينة وأموالاً طائلة، من تلك التي نهبها من

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج٥ص٣٧

بغداد. غير أن أمواله وهداياه لم تشفع له لفداحة جرائمه. وفي نهاية المطاف أصدر السلطان أمراً بقتله، فقطعت رأسه في قلعة "يدي قلّة".

أحمد باشا

ينتمي هذا الوالي إلى الأبازة في بلاد القفقاس، وكان والده من أمراء البحرية. دخل السراي وتدرج في الخدمة إلى أن ولي منصب ضابط السلاح (سلحدار). بقى في بغداد سنة واحدة وبعدها نال منصب الصدارة. وفي اسطنبول وبعد استلامه منصب الصدارة، قام بتغيير نظام جباية الضرائب في الإمبراطورية، وطبق طريقة الجباية المقطوعة أي "الالتزام".

ويقال إن النتائج الأولية لجباية الضرائب حسب طريقة الالتزام، كانت في البداية مجدية، وأدت إلى زيادة واردات الخزينة، ولكن بمرور الأيام تحول الالتزام إلى أداة للظلم والتعسف ضد السكان، فقد سخّر رجال الإدارة وعلى العسكر ذلك النظام الضريبي، واستغلوه في ابتزاز السكان ونهب أمولهم. وهذا بدوره، قلص الإنتاج وتسبب في نضوب واردات الحكومة.

بعد أحمد باشا تولى أرسلان باشا، لستة أشهر فقط، ثم تلاه حسين باشا، وبعد حسين باشا تولى في صيف ١٦٥١م قرة مصطفى. وهذا ألغى تلك التدابير المالية التي أضرت بميزانية الحكومة.

مرتضى باشا

تولى في بغداد سنة ١٦٥٢م بعد أن حكم في دمشق وأرضروم. قال عنه المؤرخ لونكريك[1]: بأنه من الشخصيات العثمانية البارزة في ذلك القرن. ويقال إنه

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص١١٠

كان يختلط بالفقراء ويعطف عليهم، ولكنه كان ذا مزاج عنيف، يميل إلى البذخ والنزق بدون وازع أخلاقي، فمن جهة كان يقيم الاحتفالات الدينية ويوزع العطايا، ومن الجهة الأخرى كان يأتي ألواناً مخزية من الفحشاء. وكان يسمع شكوى الناس، ولكنه أحياناً كان يقتل الموظفين على الشبهة.

عاش هذا الوالي في بلاط السلطان، واشتهر بمعاشرة النساء من بنات الهوى، ويقال إن الفحشاء راجت في عهده وإنه سلك طريق الظلم والقسوة، وبالغ في تحميل الفقراء أعباءً لا يطيقونها.

في سنة ١٦٥٣م وفي عهد الوالي مرتضى باشا، ثارت في البصرة فتن واضطرابات بين الوالي حسين آفراسياب وعميه أحمد بك وفتحي بك آفراسياب وقد أنظم إليهم أمير الأحساء محمد باشا، وقد اغتنمت الدولة تلك الفرصة واتخذت من تلك الأحداث ذريعة للتدخل.

الفصل الثاني

الإدارة العثمانية في البصرة

في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، استشرى الفساد الإداري والسياسي في الدولة العثمانية، وانحدرت الأوضاع العامة فيها إلى مستويات متدنية لم تبلغها من قبل، وكان طبيعياً أن يشمل ذلك الفساد رجال الإدارة العثمانية في مختلف أنحاء الإمبراطورية ومنها ولاية البصرة، التي كان واليها يدعى علي باشا.

كان علي باشا نموذجاً لذلك الطراز من رجال الإدارة العثمانية الفاسدين، الذين فقدوا السيطرة على مجريات الأمور. ولذلك قاطعه الناس وأحجموا عن مراجعته، وهذا بدوره أدى إلى نضوب مداخله وعجزه عن مواجهة المشاكل السياسية والمالية في الولاية. في غمرة تلك الأوضاع، قرر علي باشا الهرب، فباع البصرة بدراهم معدودات إلى كاتب العسكر المدعو أفراسياب، واختفى عن الأنظار. يحدثنا العزاوي عن أحداث سنة ١٥٩٦م فيقول:

... مر بنا ذكر ولاة كانوا حكموا البصرة، أكثرهم لا نعلم عنهم شيئاً مهماً. ومن هؤلاء الولاة (علي باشا) حكمها إلى سنة ١٠٠٥هـ وان وقائعها خلال الحكم العثماني منقطعة فلم تصل إلينا تامة ...وغاية ما نعلمه أنها بيد المتغلبة وليس للوالي أمر أو نهي إلى أن انتُزعت تماماً... . (١)

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٤ ص١٣٨

حكومة أفراسياب في البصرة

هكذا آل أمر البصرة بعد مرور نصف قرن على الحكم العثماني المباشر، فقد انهارت الإدارة وهرب الوالي، وتسلط على البصرة شخص يدعى أفراسياب أشترى السلطة بالمال. أما حكومة اسطنبول فلم يبق لها هناك سوى ذكر أسم السلطان في صلاة الجمعة. قال عباس العزاوي:

يقال إن أفراسياب كان كاتباً للجند المحافظ في البصرة، وإن الأهلين قاطعوا واليهم، وأضربوا عن الاختلاط به أو الرجوع إليه، وبسبب ذلك قلت مداخله وعجز عن القيام بأرزاق الجند وأقواتهم، فلم ير بدا أن يبيع البلادة من أفراسياب بثمانية أكياس رومية، وكان الكيس ثلاثة آلاف محمدية، على أن لا يقطع اسم السلطان من الخطبة. فرضي بذلك أفراسياب واشترى البصرة وذهب حاكمها إلى اسطنبول.[(١)]

أدعى أفراسياب أنه عراقي الأصل من منطقة الدير في شمال البصرة. ولكن عبد علي الحويزي نسبه، في كتابه "قطر الغمام" إلى الروم، وقال عنه: إنه من آل سلجوق، وإن نسبته إلى الدير كون أن أخواله من هناك.

يبدو إن عوامل عديدة داخلية وخارجية، ساعدت أفراسياب على إقامة إدارة مستقلة عن حكومة اسطنبول، أحكمت قبضتها على البصرة، وتمكنت من بسط نفوذها على مناطق زراعية واسعة في جنوب العراق، شملت قبان والدورق وجزر شط العرب.

في تلك الفترة كانت حكومة المشعشعين تسيطر على منطقة شط العرب والجزائر، مستغلة ضعف الوالي العثماني في البصرة. وكان المشعشعون يجمعون الرسوم من تلك المناطق الزراعية لحساب حكومتهم العربية. ولذا فإن نمو نفوذ أفراسياب واتساع رقعة سلطته، كان على حساب نفوذهم في تلك المنطقة. كتب عباس العزاوي عن إدارة أفراسياب واتساع نفوذه فقال:

---

(١) ن.م. ج٤ص١٣٩

والمعروف عن هذا المؤسس أنه راعى الآهلين في الأمور النافعة ونشر العدل والعلم فقوى سلطانه وزادت شوكته فحبب نفسه من الآهلين، وفتح القبان. وكان يحكمه رجل يقال له (بكداش أغا) فانتزعه منه، وقضى على نفوذ حاكم الدورق وهو بدر ابن مبارك وحاكم الحويزة السيد مبارك ... وتمكن من فتح أكثر الجزائر، وكذا امتنع عن إعطاء الجوائز إلى السيد مبارك وهي رسوم كان يأخذها، وكذا رده عما كان يأخذه من شط العرب من القسم الشرقي منه. واستمرت حكومته لمدة سبع سنوات... .[1]

أفراسياب والخليج

في السنين الأخيرة من حكم أفراسياب، حدثت تطورات وأحداث كبيرة في الخليج كان لها انعكاسات مهمة على المنطقة. إذ كان البرتغاليون يسيطرون على التجارة ويحتلّون جزراً وموانئ عديدة، ويملكون قلاعاً منيعة في تلك المنطقة الحيوية. ولكن منذ سنة ١٥٨٠م، بدأ النفوذ البرتغالي يتقاص في الخليج، إذ أخذ وصول الإمدادات إلى حامياتهم يقل بالتدريج، وهذا بدوره ساعد التجار العرب والإيرانيين على توسيع تجارتهم، وزيادة رحلاتهم التجارية، مما شجع القوى المحلية على الوقوف بوجه أولئك البرتغال، والحد من تسلطهم على مياه الخليج.

في تلك الفترة أوفد البريطانيون بعثات كان هدفها استكشاف طريق الفرات ودراسة صلاحيته كممر مائي يمكن أن يوصل موانئ شرق البحر المتوسط بمياه الخليج، ولكن يبدو أن النتائج لم تكن مشجعة مما شجع البريطانيين، في سنة ١٦٠٠م على تأسيس شركة الهند الشرقية ومن الجدير بالملاحظة أن تأسيس الشركة تزامن مع دخول الهولنديين المياه الهندية.

---

(١) ن.م. ج٤ص١٤٠

مع حلول القرن السابع عشر وفي الربع الأول منه تلقى البرتغاليون ضربات موجعة زعزعت كيانهم في المنطقة. فمن المعروف أن الشاه عباس الصفوي لم يذعن للبرتغاليين، ولم يعترف باحتلالهم للموانئ الإيرانية على الساحل الشرقي للخليج. وفي سنة ١٦٠٢م تمكنت الجيوش الصفوية من إخراج البرتغاليين من عدة موانئ إيرانية، وبعد تلك الانتصارات استمر الشاه عباس في تعزيز مواقعه في المنطقة. وفي سنة ١٦٠٨م تمكنت قواته من تضييق الخناق على قلعة هرمز الشهيرة التي كانت بيد البرتغال.

علي باشا أفراسياب

في حدود سنة ١٦٠٣م / ١٠١٢هـ توفى أفراسياب، فتولى الأمر من بعده ولده علي باشا.

في عهد علي باشا أفراسياب تمكنت الأساطيل البرتغالية من الاستيلاء على بندر عباس، الميناء الذي شيده الشاه عباس الصفوي ليضاهي وينافس هرمز التي كانت بيد البرتغال. غير أن سلطة البرتغال لم تدم طويلاً فقد تمكنت القوات الصفوية في سنة ١٦١٤م من طرد البرتغال من بندر عباس وتحرير المنطقة من نفوذهم.

إن تطور الأحداث في تلك الفترة، يشير إلى أن تلك التحولات التي كانت بمثابة الضربة القاضية لنفوذ البرتغال في الخليج، كان وراءها النفوذ البريطاني، الذي كان يتصاعد في تلك الفترة. ففي سنة ١٦١٦م رست في جشك أول باخرة تابعة لشركة الهند الشرقية، وفي السنة التالية جاءت إلى الميناء باخرة أخرى. وقد كان لرسو هاتين الباخرتين في ميناء جشك الإيراني نتائج سياسية وتجارية مهمة. ففي تلك الأيام التي بلغت فيها الدولة الصفوية أوج قوتها، كان الصراع السياسي والتجاري بين إيران والبرتغال يتفاقم، وكانت قواتهم في اصطدام دائم. غير أن الصفويين كانوا يفتقرون إلى أسطول بحري قوي، بإمكانه تحدى أساطيل البرتغال.

ويبدو أن ذلك الوضع مهد السبيل للبريطانيين، وسهل عليهم التقرب من الشاه الصفوي، وعرض مساعدتهم له بحرياً. في ذلك الجو من تبادل المصالح، جرت مفاوضات بين بريطانيا والدولة الصفوية، انتهت بصدور فرمان من حكومة الشاه، يقضي بتقديم التسهيلات اللازمة للسفن التجارية البريطانية التي ازداد توارده على ميناء جشك، وفي تلك الأثناء تمكنت شركة الهند الشرقية البريطانية من تأمين حصة لها في تجارة الحرير. إن تلك التطورات أضعفت هرمز التي كانت بيد البرتغال، ووضعتها على طريق الاضمحلال.

في أول سنة ١٦٢٢م تمكن الأسطول البريطاني من الاستيلاء على حصن قشم المنيع، الذي كان بيد البرتغال، ولابد أن تلك العملية جرت ضمن اتفاق أبرم بين حاكم إقليم فارس، ووكيل شركة الهند الشرقية. إذ بعد أسابيع من ذلك، شنت القوات الصفوية هجوماً على هرمز، وتمكنت من الاستيلاء على المدينة، ثم بدأت بمحاصرة الحصن ونسف أسواره بالألغام. في تلك الأثناء جرى إغراق البواخر البرتغالية الراسية في الميناء، بينما كانت البواخر البريطانية تقوم بنقل الوحدات العسكرية الصفوية إلى الجزيرة، لتعزيز القوات التي كانت تحاصر ذلك الحصن، وبعد حصار دام ثلاثة أشهر، استسلم البرتغاليون وتم نقلهم إلى مسقط.

مقابل تلك المساعدات حظي البريطانيون برعاية الشاه عباس الصفوي، الذي سمح لهم بالنزول في بندر عباس ولكن بشرط أن لا يبنوا أي حصن في تلك المنطقة. في تلك الفترة، تمكن الهولنديون من توسيع نشاطاتهم التجارية في مياه الخليج وبذلك أصبحوا القوة الأوربية الثالثة في ذلك التنافس التجاري.

بالرغم من أن البرتغال لم يعد لهم حصون على السواحل الإيرانية، فإن نشاطهم التجاري لم يتوقف. فبعد تلك الانتكاسات، تمكنوا من أن يثبتوا أقدامهم في مسقط، مما ساعدهم على شن الغارات البحرية على منافسيهم. إن تحركات البرتغال وزيادة غاراتهم، ساعدت على قيام تعاون بريطاني هولندي ضدهم. وفي سنة ١٦٢٥م جرت بين تلك القوى الأوربية عدة معارك بحرية تكبدت فيها جميع

تلك الأطراف خسائر فادحة. ولتعزيز وضعهم التجاري عقد البرتغاليون في تلك السنة معاهدة صلح مع إيران تنازلوا بموجبها عن جميع مطالبهم في منازلهم القديمة في الأراضي الإيرانية.

قبل طرد البرتغاليين من هرمز، كانت علاقاتهم بأفراسياب في البصرة ضعيفة نسبياً. ولكن بعد سنة ١٦٢٢م، نمت اتصالاتهم بالبصرة. ولابد أن علي أفراسياب كان يعمل على تعزيز موقعه، فأخذ يتقرب إليهم ويمنحهم الحماية. ونتيجة لتطور تلك العلاقة الحميمة بينهما، وقف البرتغاليون إلى جانبه، أثناء حصار الجيوش الصفوية للبصرة. فقد قصفت البواخر البرتغالية الجيش الصفوي، وساعدت أفراسياب في الصمود أمام القوات الصفوية. واستمرت تلك العلاقات الحميمة بين الطرفين لسنوات عديدة. فقد أعار البرتغاليون علي باشا أفراسياب خمس سفن مسلحة، لتساهم في رد هجوم متوقع للقوات الصفوية على البصرة في سنة ١٦٢٥م، ولكن ذلك الهجوم لم يقع.[١]

علي أفراسياب وحكومة بغداد

في سنة ١٦٣٩م في عهد الوالي درويش محمد، توفي رئيس المنتفك الذي كان يتخذ من العرجة[٢] مقراً له. ويبدو أن علي أفراسياب رأى أن الفرصة مؤاتية للاستحواذ على المزيد من المناطق الزراعية في جنوب العراق، فأخذ يستعد عسكرياً للاستيلاء على العرجة.

كانت رئاسة المنتفك، تجمع في تلك الأيام، عشائر جنوب العراق التي حكمت البصرة حتى سنة ١٥٤٦م. وبعد الانسحاب من البصرة أصبحت العرجة

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص١٢٦

(٢) العرجة: تقع على بعد بضعة كيلومترات شمال الناصرية، وتحاذي أراضي آل شبل الذين التحقوا بالخزاعل، ولذا فإن موقعها يمثل التقاء الحدود الشمالية لسلطة المنتفك بالإمتدادات الجنوبية لسلطة الخزاعل.

مقراً لرئاسة تلك القبائل الجنوبية. وعلى ما يبدو، فإن تلك القبائل الجنوبية استفادت من محاصرة الجيوش الصفوية لحكومة أفراسياب. إذ تمكنت أثناء ذلك الحصار، من استعادة نفوذها على المناطق الزراعية التي استحوذ عليها آل أفراسياب منذ قيام إمارتهم.

حينما علم والي بغداد درويش محمد، باستعدادات أفراسياب العسكرية، وبنواياه التوسعية، جهز جيشاً قوياً وبعث به نحو الجنوب للاستيلاء على العرجة. وأرسل مع الجيش فريقاً من الموظفين على رأسهم محافظ "دوز دار" ليتولوا إدارة المنطقة بعد ضمها إلى سلطة حكومة بغداد. وهكذا بسط والي بغداد سلطته على المنتفك.

البصرة وحسين أفراسياب

في سنة ١٦٥١م توفي علي أفراسياب، بعد أن حكم البصرة قرابة نصف قرن. وبعد وفاته تولى الأمر ولده حسين آل أفراسياب. في سنة ١٦٥٣م تقدم عما الوالي الجديد حسين آل أفراسياب، المدعوان أحمد بك وفتحي بك، بشكوى ضد ابن أخيهم بحجة إنه يضايقهم ويهدد حياتهم. وقد أيد شكواهم حاكم الأحساء العثماني. كان ذلك في أيام الوزير مرتضى باشا الذي سبقت الإشارة إليه.

تعد الأحساء من أنحاء البحرين وتقع بحذاء هجر دار القرامطة. وقد دخلت الأحساء في حوزة العثمانيين بعد استيلائهم على البصرة في سنة ١٥٤٦م. ولكن سلطة الدولة على الأحساء كانت ضعيفة ومرتبكة، ولذا فإن المعلومات عن الإدارة العثمانية هناك شحيحة ولا تستحق الذكر.

انتهزت الدولة العثمانية، الفتنة التي ثارت بين حسين أفراسياب وأعمامه، فأوعزت إلى والي بغداد مرتضى باشا، أن يجهز حملة عسكرية للاستيلاء على البصرة. وقد تمكن مرتضى باشا الاستيلاء على المدينة بدون عناء. أما حسين أفراسياب فقد هرب إلى إيران. فجرى تعين أحمد بك، عم حسين أفراسياب لولاية

البصرة فكان أول عمل قام به، أن جمع أموالاً طائلة من السكان، وقدمها للوزير مرتضى باشا على سبيل الهدية.

البصرة ومرتضى باشا

بعد أن استلم الوزير مرتضى باشا تلك الهدية السخية، غلب عليه الطمع وانفتحت شهيته لنهب المزيد من الأموال. ولتحقيق ذلك سلك طريق الغدر والقرصنة، واستولى على أموال وأملاك حسين أفراسياب وعائلته، ثم امتدت يده إلى أملاك وأموال عدد من تجار وأعيان البصرة. غير أن كل تلك الغنائم لم تشبع نهمه، فسولت له نفسه أن يستولي على أموال حليفه أحمد بك الوالي الجديد، وأخيه فتحي بك، ولذلك دبر مكيدة للقضاء عليهما.

جهز مرتضى باشا حملة عسكرية من الانكشارية والسكبانية[1] بقيادة أحمد بك، وبعث بها إلى "القبان"، وأصدر تعليمات سرية إلى ضباطه، أن يقتلوا أحمد بك وأخاه حال الانتهاء من تلك الحملة. هاجمت تلك القوة العسكرية، القبان وقصفتها بالمدافع ثم أعمل العسكر السيف بالتجار وأشراف البلد ونهبوا أموالهم. وبعد انتهاء العمليات العسكرية، قبض أولئك الضباط على أحمد بك وأخيه وقطعوا رأسيهما وعادوا بهما إلى البصرة.

بعد الغدر بأحمد بك وفتحي بك أل أفراسياب، تبين لأهل البصرة أن الوالي العثماني جاء من بغداد ليس لنصرتهم، بل لنهب واغتصاب أموالهم. قال العزاوي نقلاً عن عدد من المصادر:

... وحينئذ علموا إن الغرض المقصود لم يكن نصرة الموما إليهما وإنما كان النهب والسلب والاستيلاء على المملكة والوقيعة بأهليها ... فسلّ الجميع سيوفهم للانتقام من هذا الوالي والنفرة من

---

(١) نوع جند أهلي من المشاة.

عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٤ص١٤٨

أعماله الشائنة. ثار الأهلون جميعاً وقاموا على قدم وساق، وبادروا للعمل على إمحاء الروم ومحاربتهم من جراء فعلاتهم هذه وغدرهم.(١)

أما علي باشا أفراسياب، فقد عاد إلى البصرة ليمسك بزمام الأمور مرة أخرى.

حسين أفراسياب والأحساء

تجاور الأحساء مدينة هجر دار القرامطة التي تعد من أنحاء البحرين وقد دخلت في حوزة العثمانيين بعد استيلائهم على البصرة في سنة ١٥٤٦م. غير أن سلطة العثمانيين على تلك الأقاليم ظلت ضعيفة ومرتبكة، والمعلومات عن الإدارة العثمانية هناك شحيحة ولا تستحق الذكر.

ومن المعروف أن بني خالد حكموا الأحساء إلى أواخر القرن العاشر الهجري، وبعد ذلك حكمها علي أفراسياب. وحينما حدثت الفتن في سنة ١٦٥٣م وقف أمير الأحساء محمد باشا، ضد حاكم البصرة حسين أفراسياب. بعد أن أستقر الأمر لصالح حسين أفراسياب في البصرة، ومن أجل استعادة نفوذه وسيطرته على الأحساء، حرض براك أمير بني خالد وساعده في الاستيلاء عليها. ولكن بعد استيلاء براك على الأحساء، انقلب حسين أفراسياب على حلفائه بني خالد، وبعث بجيش قوي استولى عليها، ثم حاول أن يمد سلطته إلى عمان.

مرت سنوات وحاكم البصرة حسين أفراسياب يعيش في ظل ضعف الإدارة العثمانية وارتباكها، ويوازن بين مصالحه المحلية وعلاقاته مع حكومة اسطنبول. وكان يعمل أثناء ذلك، على مد سلطته على أقاليم الخليج التي كانت الدولة العثمانية تعتبرها ضمن أملاكها.

---

(١) ن.م.، ج5ص٤٩

في سنة ١٦٦٥م رأت حكومة اسطنبول أن الفرصة مؤتية للقضاء على حكومة حسين أفراسياب، الذي اصبح وجوده يهدد مصالحها في منطقة الخليج. ولتحقيق ذلك الهدف، أرسل السلطان والياً جديداً إلى بغداد هو الوزير إبراهيم باشا، الذي أوكلت إليه الدولة قيادة حملة عسكرية للاستيلاء على البصرة.

ولتعزيز تلك الحملة العسكرية، صدرت الأوامر إلى والي ديار بكر، ووالي حلب، ووالي شهرزور، ووالي الموصل إبراهيم باشا الكرجي، والوزير كنعان باشا الكرجي وغيرهم، للتحرك بجيوشهم للانضمام إلى تلك الحملة.

اكتملت الاستعدادات العسكرية، زحفت من بغداد جيوش عثمانية بلغ تعدادها نحو خمسين ألف مقاتل. وحينما اقتربت تلك الجيوش من العرجة، أرسل حسين أفراسياب أفراد عائلته إلى إيران وسار هو برجاله إلى القرنة. وفي منطقة الرملة قامت الحرب بين الطرفين وانتهت بهزيمة جيش حسين أفراسياب. غير أن القائد العثماني تأخّر في التقدم نحو البصرة.

في أثناء ذلك، أتت جموع كبيرة من العشائر العراقية، لتشارك في الحرب ضد الجيوش العثمانية، وهذا قوى ساعد حسين أفراسياب، وشجعه على البقاء في القرنة، بعد أن كاد ترك الحرب والهروب بنفسه. وبمرور الوقت زادت جموع العشائر، بعد ورود عشائر أخرى من جزائر أهوار الجنوب.

اندلعت نيران الحرب مرة أخرى، واشتبكت الجيوش في منصورية الجزائر. وبعد حرب دامية استمرت حتى منتصف الليل، انهزم فرسان أفراسياب من ساحة المعركة. بعد هزيمة أفراسياب استولت الجيوش العثمانية على المنطقة، وزحفت لمحاصرة القرنة.

بينما كانت المعارك تدور في منصورية الجزائر، ظلت مدينة البصرة بدون حكومة. فاتفق عدد من التجار مع المشايخ آل باش أعيان[1] وسيطروا على المدينة وقاموا بإدارتها. ولكنهم لم يحسنوا إدارة المدينة، لقلة درايتهم وتجربتهم في الحكم، ويقال أنهم أمعنوا في عمليات القتل، أثناء مطاردة أنصار أفراسياب.

في تلك الحرب وقفت عشائر المنتفك وباقي عشائر الجنوب، ضد العثمانيين والمتعاونين معهم. ولذا حشدت تلك العشائر قواها وهاجمت البصرة، لانتزاعها من يد التجار وآل باش أعيان، الذين كانوا يعينون القوات العثمانية. كتب العزاوي نقلاً عن كلشن خلفا فقال:

... ولم تمض مدة حتى جاءت العربان أفواجاً من جهة شط العرب ... هاجموا البلدة من جديد فدخلوها وبدأوا بنهب دور آل عبد السلام (آل باش أعيان) وولدوا اضطراباً بسبب كثرتهم وشدة صولتهم. وفي هذه المعركة دارت الدائرة على التجار والمشايخ. وقتل من الشيوخ ذو الكفل، والسري، من آل عبد السلام. وبهذا انفرط عقد المشايخ والتجار وتبعثرت أحوالهم فعلت ضجة بلغت عنان السماء وقتل من التجار جماعة، ولما رأى الأهلون الحالة وما وصلت إليه اختفى كل من أحس بخوف من حسين باشا، كما أن جماعة من المشايخ رأوا أن لا طاقة لهم بالمقاومة فهربوا إلى جانب الوزير ... وحينئذ أخبروا بما وقع وقصوا القصة بآلامها وكان حالهم ينبئ عن خبرهم.[2]

أثناء تلك الحرب توجه من بغداد أمير الموالي (قبيلة طي) علي الشديد، مع ثلاثمائة فارس، للالتحاق بالوزير العثماني. وحينما وصل منطقة كوت معمر،

---

(١) آل باش أعيان: أصلهم من رجال الدين ولذا كانت صفة المشيخة غالبة عليهم ويقال لهم آل الكواز أو "الكواوزة". وآل باش أعيان يدعون أ م من أولاد الأمير محمد ابن الحسن المستضيئ بالله العباسي، وقد كسبوا لقب باش أعيان في العهد العثماني.

(٢) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥ص٨٣

تصدت له قبائل المنتفك، ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بهزيمة فرسان شمر بعد أن تكبدوا خسائر فادحة. بعد تلك الهزيمة عاد رجال شمر إلى بغداد مخذولين.

الصلح مع حسين باشا أفراسياب

بالرغم من ضخامة تلك الحملة العسكرية التي جهزتها الدولة، للقضاء على حكومة أفراسياب، فإن سوء الإدارة وفساد القيادات العسكرية أدى بها إلى الفشل. إذ بعد حروب مضنية، وحصار دام أكثر من ثلاثة أشهر، فشل إبراهيم باشا في الاستيلاء على البصرة. وبمرور الأيام شحت الموارد واستولى القحط على الجيش، وساءت أوضاع العسكر، مما اضطر إبراهيم باشا إلى فتح باب المفاوضات مع حسين باشا أفراسياب، وعقد الصلح معه. وبموجب ذلك الصلح أقرت الدولة ابن أفراسياب حاكماً على البصرة، مقابل مبالغ من المال يدفعها إلى خزينة اسطنبول. بعد عقد الصلح انسحبت الجيوش العثمانية وعادت أدراجها إلى بغداد. أما حسين أفراسياب فقد عاد إلى البصرة، وأمسك بزمام الأمور مرة ثانية.

نهاية حكم آل أفراسياب

بعد فشل تلك الحملة العسكرية، عزلت الدولة والي بغداد إبراهيم باشا، وعينت مكانه قره مصطفى باشا الذي كان قد ولي بغداد مرتين من قبل. وفي سنة ١٦٦٧م أوكلت إليه قيادة حملة عسكرية جديدة لإسقاط حكومة أفراسياب.

ورد الأمر إلى والي بغداد بعزل حسين أفراسياب وتوجيه منصب ولاية البصرة إلى "يحيى أغا" بلقب باشا، وعهد بالقيادة العسكرية إلى والي بغداد على أن يشارك معه في الحملة والي ديار بكر ومحافظ شهر زور وأمير أمراء الموصل وأمير الرقة. بالإضافة إلى تلك الجيوش المحلية، أمدت الدولة تلك الحملة بألفين من الانكشارية تجمعوا في جانب الكرخ بكامل معداتهم وأخذوا معهم أربعة مدافع من نوع (بال يمز) و٢٠ مدفعاً من نوع (المدافع الشاهية)

زحفت تلك الجيوش الجرارة جنوباً نحو البصرة عن طريق الحلة، وكان موكب الوزير يسير خلف الجيش. وحينما وصل الوزير الإسكندرية ذهب مع عائلته لزيارة الأمام الحسين في كربلاء، ومنها توجه نحو الحلة ثم إلى "قناقية".[1] ومنها ذهب الوزير ومعه أمراء الجيش إلى النجف لزيارة مقام الأمام علي بن أبي طالب، ثم ساروا نحو الرماحية ومنها إلى العرجة حيث اجتمعت الجيوش هناك. ومن العرجة سار العسكر إلى قرية بين الناصرية وسوق الشيوخ على ساحل الفرات تدعى كوت معمر، حيث جاء إلى الوزير شيخ المنتفك ومعه ألف من رجاله بين فارس وراجل والتحق بتلك الحملة العسكرية.

واصلت الجيوش زحفها نحو أهدافها، فسارت فرق إلى منصورية الجزائر، وتوغلت فرق أخرى في منطقة الأهوار حتى بلغت ديار بني أسد. وهناك اشتبك العسكر العثماني مع المقاتلين العرب الذين اتخذوا مواقعهم في الأهوار لصد الهجوم العثماني. وفي ديار بني أسد، احتدم قتال ضارٍ بين الطرفين كان هوله شديداً على العثمانيين لم يروا مثله، حتى كادت أن تزل أقدامهم.[2] لولا صرامة ووحشية قره مصطفى الذي أمر بقطع رؤوس رجال القبائل العربية وتكديسها على شكل أهرامات، لينزل الرعب في قلوبهم ويشد من عزيمة عساكره. وحينما انتهت المعركة لصالح العسكر العثماني كانت أكداس الرؤوس قد صنعت صرحاً للمدافعين عن ديارهم. وقد أشار لونكريك إلى تلك المذبحة البشرية بقوله:

وشيد قره مصطفى منارة من رؤوس قتلى العدو تشديداً لعزم رجاله، ثم استأنف الزحف الصعب...[3]

---

(١) تسمى اليوم "جناجة"، وهي قرية تقع على الفرات قرب مدينة الحلة، ينتمي إليها الشيخ جعفر صاحب كتاب كشف الغطاء وهو جد عائلة آل كاشف الغطاء في النجف.

(٢) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج5ص٩٢

(٣) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص١٤٦

بعد تلك المعركة الدامية، واصل الجيش زحفه حتى أتى منطقة الشرش مقابل القرنة، وهناك نُصبت المدافع العثمانية وأخذت تُمطر القرنة بوابل من قنابلها وبدأ الحصار سريعاً. وكان تأثير المدفعية العثمانية في هذه المرة أشد، لمهارة رجال المدفعية الذين أرسلوا خصيصاً من اسطنبول. في تلك الأثناء أقام العثمانيون جسراً وعبروا إلى جانب السويب، حيث يلازم حسين أفراسياب ورجاله في القلعة. بعد عبور العثمانيين بأعدادهم الكبيرة انهارت المقاومة وتفرق رجال أفراسياب، أما هو فقد هرب إلى إيران.

في ١١رمضان من سنة ١٠٧٧هـ (١٦٦٧م) استولت الجيوش العثمانية على القرنة، وبعد ذلك استولت على البصرة. أما أفراسياب فقد ذهب إلى شيراز، وقابل الشاه سليمان الصفوي مستنجداً به ضد العثمانيين، ولكن الشاه الصفوي لم يشأ أن يعكر صفو السلم السائد بين الدولتين فلم يستجب له. مما اضطره إلى ترك إيران والرحيل إلى الهند. وهكذا انتهى حكم آل أفراسياب في البصرة.

البصرة في ظل الحكم المباشر

كانت حكومة السلطان العثماني قد عهدت بولاية البصرة ليحيى باشا، ولكن السياسة التي سار عليها هذا الوالي، جسمت حالة الفساد والفوضى السائدة في مؤسسة الحكم العثماني. فقد ألغى دائرة "كاتب الديوان" و "دائرة الدفتري". أي بكلمة أخرى حول ولاية البصرة إلى ملكية خاصة وقال: إن ليس هناك شرط بينه وبين الدولة في إبقاء هذه المناصب.[1]

وضع يحيى باشا يده على الخزينة واستحوذ على ما كان فيها من أموال، وامتنع عن دفع رواتب وأرزاق الجيش الأهلي. ولمواجهة تصرفات يحيى باشا، هب رجال الجيش الأهلي ورجال الإدارة، وتضافرت جهودهم ضده. وهكذا

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥ص٩٦

اشتعلت نيران الفتنة ونشب القتال بين الطرفين، لم يتمكن يحيى باشا من مواجهة رجال الجيش الأهلي الذين ضيقوا الخناق عليه فهرب من البصرة.

تحول يحيى باشا إلى الجانب الشرقي من شط العرب وذهب إلى قرية تدعى كردلان في مقاطعة تنومة وهناك أخذ يجمع الأنصار، وفي فترة قصيرة تمكن من أن يجمع نحو خمسة آلاف رجل مسلح من مختلف الصنوف بينهم مسلحون من رجال العشائر، فسار بهم وحاصر البصرة وهكذا استعرت نيران الحرب.

أرسل يحيى باشا نائبه قادر أغا ومعه جماعة من المسلحين اشتبكوا مع الجيش في معركة شديدة ولكنهم منوا بالهزيمة. إذ قُتل فيها قادر أغا نفسه وعدد من رجاله وفر الباقون. في تلك الأثناء هاجم رجال القبائل العربية مدينة البصرة ووضعوا السيف في العسكر العثماني. وأمام ذلك الوضع هرب الدفتري وقائد الجيش الأهلي مع فلول العثمانيين. ترك الجميع ما كانوا يملكون وفروا باتجاه بغداد. قال العزاوي:

خرج الجيش العثماني بلا زاد فأصابه الجوع والألم إلاّ أنه قيض الله له بعض العربان فأنقذوه من الهلاك وجاءوا به إلى العرجاء.[1]

أما يحيى باشا فقد شن هجوماً واسعاً بهدف الاستيلاء على القرنة، ولكن القيادة العثمانية تمكنت من إرسال قوات كبيرة لمساعدة رجال الجيش المحلي المحصورين هناك. وبعد معارك دامية تمكنت القوات الموالية للقيادة العثمانية من دحر الهجوم وتكبيد قوات يحيى باشا خسائر فادحة. ومضت سنة ١٦٦٨م في منطقة البصرة والأمور تسير من سيئ إلى أسوأ.

---

(١) ن.م.، ج5ص٩٨

نهاية يحيى باشا

في سنة ١٦٦٩م صدر فرمان سلطاني بتوجيه ولاية البصرة إلى رئيس الحجاب مصطفى باشا، وتجهز حملة عسكرية واسعة بقيادة والي بغداد للقضاء على حكومة يحيى باشا. ثم صدرت الأوامر إلى والي ديار بكر، ووالي الموصل، وأمير أمراء شهرزور، وأمير الرقة، بحشد جيوشهم والتوجه إلى بغداد للانضمام إلى تلك الحملة العسكرية.

سار والي بغداد على رأس جيش قوامه حرس بغداد والجيش المحلي، مصطحباً معه مصطفى باشا والي البصرة المعين من قبل الدولة، وحينما سمع يحيى باشا بزحف تلك الجيوش العثمانية الكبيرة نحوه، ركب سفينة وفر هارباً إلى الهند. وهكذا دخلت الجيوش العثمانية القرنة بدون مقاومة ومنها زحفت واستولت على البصرة.

والي البصرة مصطفى باشا

عاد الوزير إلى بغداد، بعد أن أودع أمر البصرة إلى مصطفى باشا. ومنذ الأيام الأولى اتضح للوالي الجديد استحالة إدارة الولاية، التي دمرت الحروب اقتصادها وأفلست ميزانيتها. وبسبب قلة الموارد وعجز الميزانية قاص الوالي حجم الجيش المحلي وكتب إلى اسطنبول، أنه لا يستطيع دفع مائتي كيس من المال للدولة، وأن يقوم بدفع أرزاق الجيش. وطلب إعفاء الولاية من الرسوم التي تستوفيها الحكومة المركزية.

المعاهدة مع بريطانية

في سنة ١٦٦٩م عقدت الدولة العثمانية معاهدة مع بريطانيا سميت (عهد نامة) منحت بموجبها الدولة العثمانية التجار البريطانيين امتيازات تجارية شملت كافة موانئها بما في ذلك ميناء البصرة. وقد تمكن البريطانيون بعد حصولهم على

تلك الامتيازات، من تعزيز مواقع بريطانيا في الخليج، وترسخ أقدام التجار البريطانيين في السوق العراقية.

الفصل الثالث

تفاقم أزمات الحكم في العراق

سبق وأن أشرنا في فصل سابق إلى أعمال السلب والنهب والجرائم التي اقترفها الوزير مرتضى باشا، وقلنا أن تصرفاته الشائنة أثارت سخط ضباط وجنود جيش بغداد وبسبب تصرفاته قرروا تركه والانسحاب نحو العاصمة، بعد انسحاب الجيش من البصرة، انهارت معنويات الوزير وانتابه الرعب، فترك ما نهبه من أموال ونفائس هناك وفر بنفسه.

بغداد تحت كابوس صراعات العسكر

حينما وصل مرتضى باشا بغداد منعه الجيش من الدخول، فاحتمى بجانب الكرخ، وهذا زاد في حالة الفوضى والارتباك في العاصمة.

يحدثنا العزاوي عن الحالة في بغداد فيقول:

وفي هذه الأيام (١٦٥٤م) حصلت الأراجيف في بغداد وقامت الثورات فيها من كل صوب. وحينئذ ظهر سراق (كذا) الليل نهاراً فصاروا لا يخشون سطوة، واستولى على الناس الخوف والرعب بحيث عادوا لا يقدرون أن يناموا ليلهم ولم

تذق أعينهم طعم الراحة. فاقتنى الأهلون الأسلحة وصار يحملها من لم يعتد بذلك من قبل توقعاً من ظهور الشرور وأعدوا العدة ليحرسوا أنفسهم بأنفسهم.(١)

بينما كانت نيران الفتنة تستعر في مختلف أنحاء العاصمة، ورد أمر السلطان بعزل الوزير مرتضى باشا وإبداله بوزير نشأ هو الأخر في بلاط السلطان يدعى آق محمد باشا، وفي أيام هذا الوزير استمرت الفتن والاضطرابات بين رجال الجيش البغدادي.

في سنة ١٦٥٦م حاول آق محمد باشا أن يسيطر على الأوضاع ويمسك بزمام الأمور، فقتل عدداً من مثيري الفتن في صفوف العسكر البغدادي، غير أن أعوانهم كمنوا له وحاولوا قتله، وفي تلك الأثناء ورد من اسطنبول حسين أغا الخاصكي المعين لمنصب أغا بغداد وهذا أمرَ بقتل الوالي.

بعد مقتل آق محمد، تولى أمر بغداد الوزير محمد باشا الخاصكي، وهو من الرهط الذي تربى في بلاط السلطان، نال إمارة مصر والشام ومنها جاء إلى بغداد. ويقال أنه اهتم بالأبهة والأمور الشكلية وأهمل شؤون الإدارة. قال عنه العزاوي نقلاً عن كلشن خلفا:

... لم يكن مطلعاً على الشؤون ولا عارفاً بالبلاد ولا أحوال الناس، تساهل في ضبط الجيوش وربطها، وأبدى عدم مبالاة ونام عن التدبير، بل إن الجيش تغلب. اتصل به بعض رجال الجيش في بغداد والتفوا حوله فولدوا فيه غروراً من جهة وفتوراً عن العمل من جهة أخرى. فكان يقضي ليله مع الغواني في الطرب والملاهي ونهاره بالشرب مع المغنين ... ومن ثم حدثت الفتن في زمنه. وأمور العالم لا تتم بمثل هذه الأعمال بل هي داعية للفتن.(٢)

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥ص٥١

(٢) ن.م.، ج٥ص٥٧

ثورة عشائر الجزائر

في خضم تلك الفوضى العسكرية والوضع الإداري المتفسخ، اندلعت في أهوار الجنوب في أواخر سنة ١٦٥٦م، ثورة عشائرية ضد السلطة العثمانية. جهز الوزير محمد باشا الخاصكي جيشاً من المشاة والفرسان وبعث به إلى جنوب العراق للقضاء على تلك الثورة.

بعد وصول الجيش إلى تلك المناطق العشائرية وقبل أن يباشر بالحرب ضد الثائرين، اندلعت الفتنة بين العساكر أنفسهم ونشبت معارك دامية بينهم ذهب ضحيتها عدد كبير من الأبرياء، إثرَ تلك المعارك انهار الجيش العثماني وهربت جماعات من الجنود وتوارت عن الأنظار. أما من تبقّى منهم فقد قفل راجعاً إلى بغداد.

ارتبك أمر الوالي، فدعا "أغا بغداد" (أي قائد الانكشارية) والمتميزين من أمراء الانكشارية إلى اجتماع عام. وبعد المداولة قرر المجتمعون منع تلك القوات المتراجعة من دخول بغداد، ولذلك أغلقت أبواب المدينة في وجوههم. ولكن بعد مرور بضعة أيام، أقدم الانكشارية على فتح الأبواب ليلاً وسمحوا لأولئك العساكر بالدخول.

في صباح اليوم التالي تجمع الجنود العائدين وذهبوا إلى دار الإمارة ونهبوها وهموا بقتل الوالي، غير أن الوالي هرب من أيديهم واختفى عن الأنظار، وأثناء البحث عن الوالي ظفر الجنود بأمين المخزن فقتلوه ومثلوا به. وفي اليوم التالي، قبضوا على الروزنامجي وقتلوه هو الآخر. ثم عاثوا بالعاصمة فساداً ونشروا فيها الرعب والفوضى.

استمرت الفتنة أكثر من أربعين يوماً هرب أثناءها الوالي إلى هيت. ولكن بمرور الأيام، ازدادت مخاوف أمراء العسكر من سوء العاقبة، فدعوه للعودة واستلام منصبه من جديد. بعد عودة الوالي واستتباب الأمن في العاصمة، قرر

أمراء الانكشارية التنكيل بجيش بغداد، باعتباره مصدر الشغب والفتنة، فقام الوالي بطرد نحو ثلاثمائة منهم وشتت شمل الباقين.

عودة مرتضى باشا إلى بغداد

في عهد الصدر الأعظم محمد باشا كوبريلي، عاد في سنة ١٦٥٨م مرتضى باشا والياً على بغداد. وقبل دخوله المدينة بدأ مرتضى باشا بمحاسبة الوالي السابق، وطالبه بدفع ستمائة كيس من النقود كانت بذمته لخزينة الدولة، بدعوى إن الوالي تصرف بها بدون مبرر قانوني، ويقال أن الصدر الأعظم كان غاضباً على ذلك الوالي، مما دعا مرتضى باشا أن يضيق الخناق عليه.

وفي عهده الجديد أدخل مرتضى باشا عدداً من التعديلات الإدارية، منها تقليص مخصصات الولاة والدفتريين، وإلغاء إمارات عدد من الألوية ليوفر الأموال اللازمة التي كانت ترسل إلى اسطنبول. في نفس الوقت اتخذ إجراءات قاسية في فرض ضرائب فاحشة استخلصت من السكان قبل الأوان، ومما زاد في الظلم لجوء الحكومة إلى تغيير سعر العملة بطريقة أثقلت كاهل دافعي الضرائب.

يبدو أن مرتضى باشا لم يهتم بجمع الأموال للدولة بقدر ما اهتم بجمعها لنفسه، وحينما اجتمعت بين يديه ثروات طائلة من المال الحرام انغمس في اللهو وتمادى في الرذيلة.

قال عنه العزاوي:

... ثم إنه مال إلى أمور لا تليق بشأن الوزارة ... ولم تكفه المجالس الخاصة داخل المدينة (بغداد) وإنما اتخذ خياماً في الصحراء يقيم فيها الضيافات مفتوحة للعام والخاص، يتعاطى فيها الرذائل ويزين مجالسه بالمغنيات وسائر أمور اللهو. والحاصل إن ما يستحسن منه أقل بقليل مما يسوء. جمع أموالاً موفورة

وخزائن غير محصورة، فصار يضاهي الملوك في خدمه وحشمه وجيشه بحيث بلغ غاية الأبهة.[1]

في سنة ١٦٦١م صدر الأمر بعزل مرتضى باشا وتعيينه لمنصب الأناضول، ثم أمره السلطان بالذهاب إلى جزيرة كريت. ولكن ذلك الأمر أثار شكوكه وخشي أن يقتل هناك، فالتجأ إلى حاكم العمادية، غير أن عساكره وأعوانه تخلوا عنه وتركوه وحيداً فألقى الأكراد القبض عليه واستولوا على أمواله ثم سلموه إلى والي ديار بكر، الذي قطع رأسه وأرسل به إلى السلطان.

مصطفى باشا القنبور

في سنة ١٦٦١م نال منصب ولاية بغداد برتبة وزير، شيخ أحدب يدعى مصطفى باشا القنبور (أي الأحدب). نال هذا الوزير في أيام السلطان مراد الرابع منصب "جوربجي" في بغداد، وهو منصب عسكري رفيع خاص بالانكشارية. وبعد فترة من الخدمة نال منصب أغا بغداد. ثم تدرج في المناصب حتى نال منصب أغا الانكشارية، وفي شيخوخته أنعم عليه السلطان بولاية بغداد.

لم يحدث في أيام هذا الوالي ما يستحق الذكر سوى أنه أدمن على الأفيون الذي أثر على مزاجه وتصرفاته، فأخذ يقوم بأعمال لا مبرر لها مما دعا إلى أن يعهد بكافة الشؤون لنائبه (الكتخدا)، ولكن تصرفات هذا الوالي الشاذة والمهينة بلغت حداً خاف منه الكتخدا على نفسه فترك أمواله وما يملك وفر هارباً من بغداد.

مصطفى باشا "البنبوغ"

في سنة ١٦٦٣م أصدر السلطان أمراً بعزل والي بغداد "القنبور" واستبداله بشاب نشأ في البلاط يدعى مصطفى باشا "البنبوغ" (أي القطن)، عرف بغروره

---

(١) ن.م. ج5ص٦٨

وقلة تجربته واستهتاره بحقوق الناس، ومن أعماله اغتصاب عدد من مساكن المجاورين له وإلحاقها بقصره الخاص بدون تعويض أصحابها. ويبدو أن تصرفاته وأعماله السيئة وغروره، أكسبته لقب "البنبوغ". لم تطل أيام هذا الوزير إذ قضى نحبه بداء البطنة، وبعد وفاته عين السلطان مكانه الوزير قره مصطفى، وهذا سبق أن تولى في بغداد في سنة ١٦٥١م.

مصطفى باشا الأفرار

بعد عزله من ولايته الأولى في سنة ١٦٥٢م، نال قرة مصطفى ولاية ديار بكر فحلب ثم مصر. ولكن حكومة اسطنبول عزلته بسبب المخالفات المالية التي ارتكبها. وفي أثناء عودته إلى اسطنبول صدر الأمر بالقبض عليه فترك ما كان معه من نفائس وأموال مسروقة وفر هارباً وتوارى عن الأنظار أكثر من سبع سنوات، ولذا لقب بمصطفى باشا "الأفرار". وبعد وساطات ودفع رشاوى سخية، عفا عنه السلطان وأنعم عليه وأعاده لمنصب ولاية بغداد. وقد دامت ولايته في هذه المرة حتى سنة ١٦٦٥م، وبعد عزله حلّ مكانه إبراهيم باشا الطويل الذي فشل في القضاء على حكومة أفراسياب.

عودة قرة مصطفى للمرة الثالثة

بعد فشل الحملة العسكرية التي قادها إبراهيم باشا للقضاء على حكومة أفراسياب أصدر السلطان أمراً بعزله وتعيين قرة مصطفى لولاية بغداد. وفي سنة ١٦٦٧م أوكلت إليه الدولة قيادة الحملة العسكرية التي أسقطت حكومة أفراسياب، تلك الحملة التي ذبح فيها قرة مصطفى رجال القبائل العربية وشيد منارة من رؤوسهم، ثم قاد في سنة ١٦٦٩ الحملة العسكرية التي قضت على يحي باشا.

الوزير عمر باشا والانكشارية

في الفصل الثالث من الباب الرابع لهذا الكتاب استعرضنا أوضاع الدولة العثمانية حتى نهاية القرن السابع عشر ولاحظنا أن الفترة ما بين سنة ١٦٥٦م وسنة ١٦٧٦م (مدة عقدين من الزمن) كانت فترة نزاعات عسكرية وسياسية انشغلت فيها الدولة العثمانية مع القوى الأوربية.

عبر تلك السنين عاشت المؤسسة الحاكمة في العراق تحت رحمة العسكر الانكشاري وعاشت البلاد في ظل إدارة عثمانية ضعيفة تحركها سياسة مرتبكة أرهقت الشعب العراقي.

في سنة ١٦٧٦م توفي الصدر الأعظم أحمد كوبريلي فعهد السلطان بمنصب الصدارة إلى قره مصطفى، الذي ساهمت سياسته في تردي أوضاع الدولة العثمانية، وتوالي الكوارث والهزائم التي حلّت بها منذ تلك السنة وحتى نهاية القرن الذي انتهى بتوقيع معاهدة كارلوفيتش.

كل تلك الأحداث انعكست وبأبعاد عميقة على أوضاع العراق التي اتصفت إدارته بالارتباك والفوضى. وفي خضم تلك الأوضاع نال الوزير عمر باشا منصب ولاية بغداد. كان ذلك بعد مرور أربعة عقود من قيام المجتمع العثماني الانكشاري في العراق. وبهذا الصدد كتب العزاوي نقلاً عن كلشن خلفا فقال عن تلك الفترة:

كانت الدولة تخاف من ظلها في بغداد وتحسب لكل حادث حسابه فساءت إدارتها بحيث صارت تشتبه من نفسها ... وهذا الوزير من حين ولايته عرف ما يقوم به الينكجرية (الانكشارية) في بغداد وسمع الشيء الكثير كما علمت الدولة ذلك. تمكنوا أن يأتلفوا مع الآهلين في بغداد وصارت لهم قدرة على الإدارة ... فاقتضى رفع أكثر هذه الوظائف منهم وأقيم مقامهم غيرهم من الجند وبلغ عددهم الألف.[١]

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥ص١١٤

نستشفّ من هذا أن الانكشارية الذين استقروا في بغداد، وأقاموا مجتمعاً حاكماً خاصاً بهم، كانوا يمسكون بزمام القوة ويتحكمون بإدارة البلاد، وأن هذا الوالي حاول تحجيم سلطتهم، وانتزاع الزمام من أيديهم لإعادة تنظيم الولاية, ولذا سلب العديد من الوظائف منهم وأوكل بها إلى غيرهم من الجند. ولكن الانكشارية تجمعوا وأعلنوا العصيان وخرجوا عن طاعة الوزير وبعد أيام أخرجوا "الأغا" أي القائد العام وقتلوه. وبهذا الصدد كتب العزاوي نقلاً عن تاريخ الغرابي الذي عاصر تلك الأحداث فقال:

في سنة ١٠٨٩هـ (١٦٧٨م) ثارت فتنة عظيمة في بغداد، فقتلت الينكجرية رئيسهم أحمد أغا، وصار لهم تسلط كلي في بغداد. وبقى إلى الآن وهي سنة ١٠٩٩هـ (١٦٨٧م).[1]

كل هذا يشير إلى أن حالة التوتر والفوضى جراء تسلط العسكر الانكشاري في بغداد استمرت لسنين طوال. ومن المفارقات أثار الانكشارية فتنة أخرى في سنة ١٦٨٨م. وفي هذه المرة قتلوا محمود الغرابي، فكتب المؤرخ الغرابي عن تلك الحادثة فقال:

في هذه السنة شغب الجند المعرفون بالينكجرية في بغداد فقتلوا أخي وشقيقي الفاضل محموداً الناصح بجامع الإمام الأعظم أبي حنيفة يوم الثلاثاء ١٣ صفر وذلك بإغراء بعض أكابرهم فعاجل الله أولئك الخبثاء فأتى حكم من الدولة العلية فقتل منهم ثلاثة، والله ينتقم من الجميع... .[2]

---

(١) ن.م. ج5ص115

(٢) ن.م. ج5ص127

الفصل الرابع

قبائل الجنوب تستولي على البصرة

مع حلول العقد الأخير من القرن السابع عشر (١٦٩٠م) كانت الأوضاع السياسية والإدارية للحكومة العثمانية في منطقة البصرة قد ساءت إلى درجة كبيرة مما زاد في سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في جنوب العراق، وهذا ساعد في تفشي الأمراض كالطاعون الذي انتشر في مختلف أنحاء العراق والذي كان له أسوأ الأثر في منطقة البصرة. فقد انتشر الموت في كل مكان إلى درجة أن لم يكن بمقدور الناس نقل موتاهم فكانت الجثث تدفن في مكانها، ولما كانت البصرة هي المركز الرئيسي وقلب النشاطات التجارية والاقتصادية في جنوب العراق، فإن تفشي هذا المرض القاتل كان له أسوأ الأثر على الحياة العامة التي كادت أن تتوقف بالكامل.

نتيجة لتلك الكارثة الجماعية عجز أبناء الشعب عن أداء الرسوم والضرائب التي كانت السلطات العثمانية تفرضها وتلح في جبايتها. كما وقعت خلافات كبيرة بين السكان وسلطات الوالي العثماني أحمد باشا آل عثمان باشا نتيجة لتلك الظروف الصعبة، فاحتدم بسبب ذلك القتال بين أهل البصرة وعسكر الوالي وانتشرت في مناطق البصرة وباقي أنحاء الجنوب روح التمرد والثورة على السلطات العثمانية.

كانت القبائل في الجنوب تتربص وتنتظر الوقت المناسب لخوض معارك جديدة ضد السلطة العثمانية، ويبدو أن احتدام القتال بين سكان البصرة وعسكر

الوالي أوجد ذلك الجو المناسب لتحرك رجال القبائل. في تلك الأثناء جرت اتصالات واسعة بين زعماء عشائر الجزائر ورؤساء المنتفك واتفقوا على حشد رجالهم بقيادة مانع بن مغامس رئيس المنتفك للتحرك نحو البصرة.

كانت القوة الرئيسية الزاحفة تتكون من ثلاثة آلاف فارس وراجل، وما أن سمع الوزير أحمد باشا بتحرك القبائل العربية نحو البصرة حتى جهز عساكره وأسرع للتصدي لتلك الجموع الزاحفة على أمل تشتيت شملها قبل استفحال الأمر. تحرك الوالي بكل ما لديه من قوات عسكرية بما فيها أكثر من خمسمائة من جنود وضباط الخيالة ومعهم أعداد من المشاة وفرق أخرى من الاتباع.

التقى الجمعان في منطقة "الدير" واحتدم القتال وتحول إلى معركة عنيفة وسريعة تمكن أثناءها فرسان المنتفك من تمزيق القوة العثمانية وتدميرها وقتل قائدها الوزير أحمد باشا. في البصرة حاول كتخدا الوزير المدعو حسن أغا أن يتدارك الأمر ويلم شعث صفوف القوات العثمانية ليحول دون سقوط البصرة بيد رجال القبائل العربية، ولكن جميع تلك المحاولات باءت بالفشل إذ تمكنت جموع القبائل العراقية من إحكام سيطرتها على البصرة. وهكذا أمسك رئيس المنتفك الشيخ مانع بزمام الأمور بجنوب العراق.

أما في بغداد فقد وجدت المؤسسة العثمانية نفسها عاجزة عن مواجهة تلك المشاكل المتفاقمة، فالخزينة كانت خاوية والأوضاع الأمنية والإدارية في تردٍ مستمر مما اضطر الوالي إلى أن يطلب من السلطان العثماني إعفاءه من وظيفته وعليه تم عزله في ١٧ ذي الحجة سنة ١١٠٢هـ (١٦٩١م). في تلك الفترة الحرجة توفي السلطان سليمان الثاني وتولى بعده السلطان أحمد الثالث. وفي خضم تلك الأوضاع والمتغيرات عينت حكومة اسطنبول لولاية بغداد وزيراً عليل الصحة يدعى أحمد باشا البزركان. حاول هذا الوزير أن يحد من تدهور أوضاع الحكم العثماني ومن سيطرة القبائل العراقية فأرسل كتخداه على رأس قوات كبيرة لاحتلال البصرة واستعادة سيطرة الدولة العثمانية على جنوب العراق، غير أن

القبائل العراقية بقيادة الشيخ مانع رئيس المنتفك تصدت لتلك الجيوش العثمانية وأنزلت بها خسائر فادحة. وبعد سلسلة من المعارك الدامية حلت بالقوات العثمانية هزيمة منكرة اضطرت فلولها المهزومة إلى التراجع إلى بغداد على عجل بعد أن تركت أسلحتها ومعداتها وما كان معها من أموال، في تلك الأثناء اشتد المرض بالولي فتوفي في منتصف حزيران من سنة ١٦٩٢م وهكذا عادت الفوضى وسوء الأوضاع جراء الفراغ السياسي يخيمان على بغداد في تلك الفترة زاد تسلط صغار الموظفين على الناس فتفككت أجهزة السلطة وانتشر الفساد وانهمك أولئك الموظفون في نهب أموال الناس وهذا بدوره زاد في تشويش الأمور واضطراب الأحوال.

في أواخر شهر أيار (مايو) من سنة ١٦٩٣م عينت الدولة والياً جديداً على بغداد يدعى أحمد باشا. في ذلك الموسم طغت مياه دجلة في فيضان كبير أغرق أكثر مناطق بغداد وما حولها وهذا بدوره زاد في سوء الأوضاع وانفلات الأمور من يد السلطة في بغداد.

بالرغم من حالة الضعف التي كانت تعاني منها السلطة في بغداد، فإن الحالة خارج العاصمة كانت كما يبدو أسوأ من ذلك. إذ يصف العزاوي لنا حالة البلاد في سنة ١٦٩٤م فيقول:

... لا سلطة للدولة إلا على بغداد. تركوا الأطراف فلم يحركوا ساكناً، ولهذا لم يقع ما يستحق الذكر.[(١)]

البصرة وحكومة المشعشعين

في سنة ١٦٩٥م عينت حكومة اسطنبول والياً جديداً في بغداد يدعى علي باشا وحال استلام مهام وظيفته حاول هذا الوالي تجهيز حملة عسكرية لاستعادة

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥ص١٣٨

سلطة الحكومة على البصرة فحشد ما لديه من فرق عسكرية ثم انضم إلى تلك الحملة محافظ ديار بكر وولاة كركوك والموصل والرها حضروا إلى بغداد بعساكرهم وكان من المفروض أن تتحرك تلك الجيوش نحو البصرة بقيادة والي بغداد علي باشا، ولكن الأمور لم تسر كما أرادت الدولة فإن سوء الإدارة العسكرية وقلّة الموارد وفقدان الأرزاق اللازمة للعسكر أفشل العملية فلم يتسن لوالي بغداد التحرك نحو البصرة، وفي تلك الأثناء توفي والي ديار بكر فتفرق العسكر وعاد أكثر الجنود إلى مواطنهم.

أما في البصرة فإن تلك الأوضاع المرتبكة في البلاد كان لها أثر سيئ على أوضاع المدينة وهي المركز التجاري الحيوي في البلاد، ويبدو أن تجار البصرة وسكانها الذين كانوا أكثر المتضررين من تلك الأوضاع ظلوا يبعثون بالرسل إلى بغداد طالبين من الوالي مساعدتهم في إعادة النظام والأمان إلى المنطقة ولكن يبدو أن جهودهم كانت في الغالب تذهب سدى. كتب العزاوي عن أوضاع البصرة في أحداث ١٦٩٧م فقال:

... وإن أهل البصرة لاسيما سادات الرفاعية وردت الكتب منهم يلتمسون إرسال حسن باشا بألف جندي ليسلموا إليه المدينة ... أما الوالي فإنه ليس في استطاعته تجهيز ألف جندي، فتهرب من كل مصرف أو بالتعبير الأولى لم يتمكن من إخضاع العشائر التي بجهته فكيف يستطيع أن يجهز جيشاً لهذه المهمة، فلم يهتم بكل هذا وأضاع الفرصة.[(١)]

كانت تلك الأحداث تمر قبل بداية القرن الثامن عشر بثلاثة أعوام فقط. في تلك الأيام كانت حكومة عرب العراق في الحويزة (حكومة المشعشعين) بيد المولى فرج الله، ويبدو أن المولى فرج الله استغل ضعف الدولة العثمانية فقرر أن يبسط نفوذه على البصرة ولتحقيق ذلك بعث برسول إلى والي بغداد يعرض عليه خطة فحواها أن يزحف بجيوشه ويستولي على البصرة ثم يقدمها للدولة العثمانية. ويبدو

---

(١) ن.م. ج5ص١٤١

أن والي بغداد وافق على تلك الخطة وأذن لأمير المشعشعين بالاستيلاء على البصرة. وبهذا الصدد كتب العزاوي نقلاً عن تاريخ راشد فقال:

... وفي هذه الحالة ورد سفير من أمير الحويزة فأبدى أنه يستطيع أن يستولي على البصرة ويقدمها إلى الدولة، والظاهر أن الوالي أذن له ومن ثم لم يستطع الشيخ مانع دفعه فترك المدينة واستولى عليها أمير الحويزة فصارت بيد المشعشعين.[(١)]

يبدو إن تحرك المولى فرج الله لتوسيع رقعة نفوذه بضم البصرة إلى دولة المشعشعين، جاء ضمن حسابات دقيقة مبنية على معرفته بضعف الدولتين العثمانية والصفوية. وعلى هذا الأساس حاول أن يستغل ذلك الفراغ السياسي والعسكري في المنطقة لإيجاد موضع قدم له، يمكن أن يساعده للإطلاق في الخليج ومنه إلى الأسواق العالمية. فهو لم يخض تلك الحرب خدمتاً للعثمانيين أو للشاه الصفوي بل لمصلحة ذاتية. وفي الغالب فإن الأوضاع العامة كانت بجانبه لأن حكومة المنتفك ذات العقلية القبلية، لم تحسن إدارة البصرة ذات الطابع التجاري، ولم تكن تتمتع بعطف السكان المحليين وخاصة التجار منهم.

بعد استيلاء جيش المشعشعين على البصرة أخذت أوضاع المدينة تتحسن وتسير نحو الاستقرار، ويبدو أن تحسن أوضاع البصرة التجارية والأمنية في تلك الفترة، جاء ضمن إطار سياسة عامة اختطها المولى فرج الله، كان الهدف منها كسب عطف السكان. وإن الأخبار تشير إلى أنه بالرغم من قصر تلك الفترة فإن تأثيراتها الإيجابية دامت لمدة طويلة. وهذا ما أكده الباحث لونكريك بقوله:

وقد استمر حكم الحويزة في البصرة عدة شهور. وظل التجار المحليون يذكرون هذه الفترة بكل خير... .[(٢)]

بالرغم من عودة الحياة الطبيعية إلى منطقة البصرة وانتعاش التجارة فيها واجه المولى فرج الله مشكلة سياسية ترتبط بتقسيم مناطق النفوذ بين الدولة

---

(١) ن.م. ج5ص١٤١

(٢) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص١٥١

العثمانية والدولة الصفوية. فالبصرة كانت تعد حينئذ من أملاك الدولة العثمانية بينما كانت إمارة المشعشعين تعد من أملاك الدولة الصفوية، ولذا لم يكن بإمكان المولى فرج الله، وحسب المعاهدات المتفق عليها بين الدولتين، البقاء والتمسك بالبصرة، إلا بعد موافقة الشاه الصفوي آنذاك. أي بكلمة أخرى فإن أمير دولة المشعشعين حاول أن يدفع الدولة الصفوية إلى الدخول في مجابهة مع الدولة العثمانية، ربما يكون هو الرابح الوحيد فيها.

مفاتيح البصرة

كانت الدولة الصفوية في تلك الأيام تعاني من ضعف شديد وتسير بخطى حثيثة نحو مصيرها المحتوم، بسبب الفساد الإداري والاقتصادي الذي استشرى في جسم تلك الدولة. وتشاء الأقدار أن تحدث تلك التحولات في عهد الشاه المسالم الضعيف حسين الصفوي، الذي كان ضعفه وتخاذله من جملة الأسباب التي ساهمت في انقراض الدولة الصفوية في عهده.

يحدثنا العزاوي نقلاً عن صاحب تاريخ راشد فيقول:

وبعد ما مر من الحوادث من انتزاع أمير الحويزة المولى فرج الله البصرة من الشيخ مانع، كان أخبر شاه إيران بذلك وحينما سمع لم يشأ أن يجدد حوادث الخصومة مع العثمانيين، فأرسل رستم خان إلى الترك فذهب إلى أدرنه. وبعد الاستراحة أياماً معدودات، واجه الصدر الأعظم وشيخ الإسلام، وأبدى أنه جاء بمفاتيح البصرة والهدايا الوافرة. ثم تكرم بمواجهة السلطان وعرض كتاب الشاه مع الهدايا وبلّغ ما أرسل من أجله فأبدى السلطان اللطف لهذا السفير واستأنس به وكساه وأتباعه الخلع.[1]

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج5ص١٤٢

ومن الجدير بالملاحظة أنه بالرغم من تلك الطقوس الدبلوماسية بين الدولتين العثمانية والصفوية، فإن أمير دولة المشعشعين المولى فرح الله استمر في بسط نفوذه وظل يمارس نفوذه القوي في البصرة ويؤثر فعلياً في تمشية الأمور فيها، مستفيداً من ضعف الإدارة العثمانية هناك. وهذا ما أكده الكابتن هاملتون حينما قال:

وبقيت البصرة عدة سنين بيد الإيرانيين الذين شجعوا التجارة فيها، فانجذب كثير من التجار الأجانب للنزول فيها وخاصة من سوراة في الهند.[(١)]

محاولات عثمانية لاستعادة البصرة

أثارت أحداث البصرة غضب حكومة اسطنبول فتم عزل والي بغداد علي باشا باعتبار أنه أهمل واجباته وتخاذل أمام أمير الحويزة المولى فرج الله وذلك بالسماح له بالاستيلاء على البصرة، ولتدارك الأمر عينت الدولة في سنة ١٦٩٨م إسماعيل باشا لمنصب بغداد وكان والياً في مصر. بعد وصول الوالي الجديد وتسلم مهام وظيفته في بغداد بدأت استعدادات واسعة لحملة عسكرية جديدة هدفها استخلاص البصرة من يد حكومة عرب العراق المشعشعين.

في بغداد اجتمعت فرق عسكرية عثمانية عديدة يقودها عدد من الولاة بينهم والي حلب، ووالي ديار بكر ووالي البصرة السابق حسن باشا الذي كان في الموصل. وقد أضافت حكومة اسطنبول إلى تلك الجيوش مائة بيرق (لواء) وأكثر من ألف إنكشاري وأعداداً مماثلة من اللاوند.

تحركت تلك الجيوش جنوباً نحو البصرة ولكن بدلاً من أن تسير نحو أهدافها المرسومة، انشغلت أثناء الطريق بأعمال السلب والنهب ولم تكد تتجاوز منطقة الفرات الأوسط، وكانت مدينة كربلاء المقدسة أكثر المدن التي تعرضت لمثل تلك

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص١٥١

الأعمال من قبل عساكر تلك الحملة.[1] وهكذا نسي العسكر واجباته، فسادت البلبلة بين صفوفه وانفرط عقد تلك الحملة، وعاد أكثر الجنود إلى بغداد مخذولين لا يلوون على شيء. وعلى هذا المنوال ظلت الأمور تسير من سيئ إلى أسوء، وذلك بسبب عجز الحكومة، التي كل ما قامت به بعد انهيار تلك الحملة، هو عزل الوالي واستبداله بآخر كان أشد عجزاً من سابقه. أشار العزاوي إلى تلك الفترة المضطربة بقوله:

ومجمل القول إن خطة بغداد ومدينة البصرة قد ملئا أنواع الأعاجيب والغرائب من سنة ١١٠٢هـ - ١١١١هـ (١٦٩٠م-١٦٩٩م) وإن أحوال الناس اضطربت تسلط العشائر على الأنحاء استفادة من ضعف الدولة ... .[2]

واللافت أن العزاوي أشار إلى مسألة مهمة تخص مؤرخي تلك الحقبة ومنهم صاحب كتاب كلشن خلفا الذي كتب عن تلك الحقبة فقال:

فبقيت الأمور مرهونة بأوقاتها. ولما تم الصلح بين الدولة والأجانب (والمقصود هنا الدول الأوربية) عطفت الهمة إلى جهة استعادة البصرة. وقال إن العشر سنوات السابقة حدثت فيها حوادث مرة لا تدعو للطمأنينة والرغبة وإن تفاصيلها لا طائل تحته فأغفلت أمرها.

وهنا يعود العزاوي ويعلق على ذلك فيقول:

وفي ما ذكره كفاية لمعرفة الوضع وحقيقة الإدارة. وكان الأولى به أن يدون ما جرى من أنهم لم يستطيعوا في هذه الحالة توليد النظام، أو تسكين راحة الخلق بالسيطرة على الإدارة. وإنما قام المتغلبة من كل فج وهم لاهون ... .

إن ما أشار إليه صاحب كلشن خلفا، يلقي الضوء على حقيقة تاريخية مهمة ترتبط بمفهوم التاريخ كما كان يراه الكتّاب العثمانيون، الذين كانوا يدونون جوانب

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥ص١٤٢

(٢) ن.م. ج٥ص١٤٣

منه ويهملون جوانب أخرى، حسب ما تمليه مصلحة الحكام، حتى إذا كان ذلك على حساب الحقيقة. فالأحداث "المرة التي لا تدعو للطمأنينة" كما يسميها صاحب كلشن خلفا، كانت تهمل أو يعتّم عليها، لتسقط من ذاكرة التاريخ، وهكذا ظلت أحداث التاريخ في العراق تظهر لنا في أغلب الأحيان مرتبكة تشوبها حالة ضبابية بسبب تلك الظاهرة التي لازمت التاريخ العثماني.

الحملة العسكرية لاسترجاع البصرة

يبدو أن الضربات المتلاحقة التي تلقتها الدولة العثمانية على مختلف الجبهات الأوربية أربكت أوضاع المؤسسة العسكرية العثمانية وجمدت تحركاتها في مختلف أنحاء الإمبراطورية. ولكن بعد توقيع معاهدة كارلوفيتس التاريخية التي أدت إلى استسلام العثمانيين لمشيئة الدول الأوربية الصاعدة وكانت البداية لمرحلة ما أصبح يعرف بقضية "الرجل المريض"، تحولت أنظار رجال المؤسسة العسكرية العثمانية مرة أخرى نحو استعادة مواقعهم، التي فقدوها أثناء ذلك في العالمين العربي والإسلامي.

ومع مطلع القرن الثامن عشر صدرت الأوامر من اسطنبول لتجهيز حملة عسكرية كبيرة لاستعادة نفوذ الدولة في جنوب العراق وذلك بالاستيلاء على البصرة التي كانت تحت سلطة عرب العراق. في هذه المرة حشدت الدولة قوات عسكرية كبيرة ربما لم يكن بالإمكان حشدها في الظروف السابقة. وقد أنيطت قيادة تلك الحملة بوالي بغداد السابق علي باشا على أن يكون معه محافظ آمد وأمراء الألوية وجيش الحرس وعساكر محافظ شهرزور وكذلك والي سيواس ووالي قره مان ومتصرف بيرة جك الواقعة على نهر الفرات، وكذلك متصرف أماسية مع أعداد كبيرة من رجال التيمار... وصدرت الأوامر إلى أمير العمادية للالتحاق بتلك الحملة وكذلك إلى أمراء عنتاب ومرعش وأيالة حلب وكتخدا الجيش مع ثماني عشرة أورطة من إنكشارية السلطان وفرق عديدة من السباه والسلحدارية، وألحقت

بتلك الجيوش فرق أخرى منها فرق للمدفعية والعتاد وصاحبتهم كذلك فرق من الجيش الأهلي في بغداد ومقاتلون جاءوا مع أمراء بدرة وباجلاّن وبيات وأعداد كبيرة من فرسان عشائر الأكراد. وفي بيرة جك على الفرات تم إعداد أسطول كبير لنقل المدافع والمهمات والأرزاق اللازمة. وهكذا أخذت تلك الجيوش تتوارد على بغداد استعداداً للزحف على البصرة.

في وسط تلك الاستعدادات العسكرية عاد الإنكشارية فأثاروا المشاكل وطلبوا المزيد من الأرزاق وبذلك أشعلوا نار الفتنة في بغداد ونشروا الرعب فيها حينما بدءوا بإطلاق نيران المدافع على سراي الوالي وبذلك شوشوا الحالة وعطلوا سير الحياة في العاصمة لثلاثة أيام.

بعد الإنكشارية طلب لوندات القائد العام أرزاقهم ومخصصاتهم وأخذوا يلحون في ذلك فلم تنفع معهم الوساطات مما اضطر الوزير إلى أن يبعث بفرق عسكرية لمحاربتهم وانتهى الأمر بتدميرهم. بالرغم من تلك المشاكل التي كانت في حقيقة الأمر نموذجاً لسوء الأوضاع والتفكك الذي كانت تعاني منه الإدارة العثمانية بالرغم من كل ذلك فإن تلك الجيوش واصلت مسيرتها نحو الجنوب وتمكنت من الاستيلاء على القرنة ومن بعد ذلك البصرة وكان ذلك في سنة ١١١٢هـ - (١٧٠٠م).[(١)]

---

(١) اعتمدنا في أغلب هذه المعلومات على ما نقله العزاوي ج٥ص١٤٤-١٥٠ والتي استقاها من كلشن خلفا وتاريخ راشد.

الفصل الخامس

الزراعة الحوضية وسلطة الخزاعل

لقد أشرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب إلى أثر خصوصيات وادي الرافدين، وتأثيرها في الحضارات التي قامت في ذلك الوادي، وقلنا إن تطور مجتمعاته جاءت نتيجة طبيعية لتلك البيئة، وأكدنا على حقيقة مهمة حينما قلنا إن تلك العوامل والخصوصيات كان لها ذات الأثر في حياة الإنسان العربي الذي حل في ذلك الوادي الخصيب وتكيف مع خصوصيات بيئته النهرية، تلك التي تظهر بصماتها بأبعادها الاجتماعية والسياسية والفكرية في التاريخ الذي صنعه الإنسان العربي، والذي أصبح أساس وجوده على تلك الأرض.[١]

إن منطقة الفرات الأوسط التي تمتد من منطقة الحلة وحتى مشارف السماوة تعتبر نموذجاً لتلك البيئة النهرية التي حل بها العرب، إذ يمتاز الفرات بفيضاناته الأقل عنفاً وتقلباً من فيضانات دجلة. ومن المرجح أن كان للمنخفضات الطبيعية المحاذية لضفاف الفرات الغربية، مثل منخفض الحبانية، وهور أبو دبس، ومنخفض بحر النجف، أثر في تقليل حجم وعنف فيضانات الفرات. فقد أظهرت الدراسات الجيولوجية، إن نهر الفرات كان يتصل في عصور ما قبل التاريخ بمنخفضات الحبانية وهور أبو دبس وبحر النجف، وان هذه المنخفضات كانت

---

(١) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص٢٧

متصلة ببعضها على شكل وادي طويل يمتد من الشمال إلى الجنوب، ولكن حركات "تكتونية" (Tectonic) حدثت في القشرة الأرضية، فصلت تلك المنخفضات عن بعضها.[١] ولهذا فإن اجتماع تلك العوامل في منطقة الفرات الأوسط جعلت من تلك المنطقة مهداً للاستيطان الزراعي منذ أقدم العصور.

حينما بدأت هجرات العرب من جزيرتهم نحو وادي الرافدين، استقبلتهم شواطئ الفرات الغربية التي كانت محطتهم الأولى، وعلى تلك الشواطئ بدأوا مسيرة تفاعلهم مع تلك البيئة الزراعية الفريدة التي حلوا بها، والتي غيرت طبيعة حياتهم ونسيج مجتمعهم، وفي إطار تلك العوامل ظهرت "الحيرة". وليس بعيداً عنها شيد رجال الفتح الإسلامي مدينة الكوفة، فكانت حاضرتهم الأولى في وادي الرافدين. ومنذ تلك العصور انتشر العرب في وادي الرافدين وتفاعلوا مع بيئته النهرية ونظموا حياتهم القبلية بما يتلاءم مع طبيعة تلك البيئة الفريدة ومتطلباتها.

غير أن العثمانيين بعد استيلائهم على العراق لم يلتفتوا لخصوصيات وادي الرافدين وعلاقة القبائل النهرية بالأرض، بل أصروا على تحويل مناطقه الزراعية إلى إقطاعيات عسكرية حسب نظام "التيمار" كما كان الحال في باقي أنحاء الإمبراطورية العثمانية.[٢] وهكذا بدأت صراعاتهم الدموية مع عرب العراق الذين رفضوا نظام "التيمار"، أي الإقطاع العسكري العثماني، وتمسكوا بالأرض وأنماط إدارتها، ودافعوا عنها بأساليبهم التي طوروها بما يتلاءم مع بيئتهم النهرية التي تكيفوا لها وعاشوها عبر العصور.

في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي بعد استيلاء جيوش السلطان مراد الرابع على العراق في سنة ١٦٣٨م، وعلى ضفاف الفرات قُدر

---

(١) طه باقر - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج١ص٤٨

(٢) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص٢٥٧

للخزاعل أن يواجهوا مخططات العثمانيين العسكرية وأن يتعرضوا إلى المذابح وعمليات السلب والنهب.[١]

وبالرغم مما حدث في عهد السلطان مراد الرابع، عاد الخزاعل في النصف الثاني من ذلك القرن، ليلعبوا دورهم وبصورة أقوى في قيادة القبائل النهرية في الفرات الأوسط. ففي تلك المرحلة التاريخية التي كانت تمر بها الدولة العثمانية، وفي ظل الفساد وضعف الإدارة الحكومية وغياب الخدمات، كان على العشائر النهرية في الفرات الأوسط أن تأخذ الأمور بيدها لإدارة حياتها وشؤونها الزراعية ومواجهة متطلباتها. وبالرغم من المذابح والحروب التي تعرضت لها العشائر العربية بالفرات الأوسط منذ عهد الوالي السفاح درويش محمد، فقد قدر للخزاعل أن يعيدوا بعد فترة قصيرة سلطتهم، ويتولوا قيادة قبائل الفرات الأوسط في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي في الدفاع عن الأرض والوقوف في وجه المخططات العثمانية لسنين طويلة.

الخزاعل وفرات الديوانية

بعد أن يجتاز الفرات منطقة الفلوجة يقترب من دجلة حتى يكاد أن يلتقي به عند منطقة بغداد، ثم يبتعد الرافدان عن بعضهما مرة أخرى. وبعد أن يجتاز الفرات مدينة المسيب ببضعة كيلومترات، يتفرع إلى فرعين رئيسيين أحدهم يميل إلى الشرق ويمضي نحو منطقة الحلة والفرع الثاني يميل قليلاً نحو الغرب ويمر عموده الرئيسي بمنطقة الكوفة. في تلك المواضع تبدأ منطقة الفرات الأوسط، التي تنتشر فيها فروع وجداول الفرات كما تنتشر الشرايين في جسم الإنسان، لتغذي مزارع وأهوار وبطائح تلك المنطقة بمياهها العذبة التي سماها العرب "فرات"، ثم

---

(١) راجع الفصل الثاني من الباب الرابع من هذا الكتاب

تبدأ تلك الفروع والجداول الفراتية بالاقتراب من بعضها حتى تلتقي مرة ثانية في منطقة السماوة.[١]

في مثل تلك المناطق الزراعية الواسعة تنتشر العشائر النهرية العربية التي استقرت وتكيفت لخصوصيات الزراعة في وادي الرافدين وذلك بإتباع نظام زراعي يعرف بالزراعة "الحوضية"، إذ يعمل أفراد عشيرة واحدة أو مجموعة من العشائر على زراعة أراضيهم التي تستمد المياه من أحد فروع الفرات، ولضمان جريان المياه في "حوض" ذلك النهر، لابد لأفراد تلك العشائر أن يضطلعوا بمسئوليات كري وتنظيف مجرى ذلك النهر وذلك لتفادي أخطار الفيضان ولضمان وصول المياه إلى مزارعهم. وإذا كانت مياه ذلك النهر أو الجدول تتوزع لتروي عدد من المقاطعات أو المزارع، فإن ذلك الواقع كان يفرض على مجموع المزارعين، من أبناء العشائر الذين يعيشون ضمن حوض ذلك النهر، أن يضطلعوا بتلك المسئوليات. ولدرء أخطار الفيضانات كان لابد أن تتعاون تلك الجماعات على إقامة السدود اللازمة وتضطلع بمسئولية صيانتها.

وبهذا الصدد لابد أن نشير إلى مسألة مهمة ذات أبعاد اجتماعية وسياسية ترتبط بخصوصيات الزراعة الحوضية في وادي الرافدين، فإن حجم الأنهار والجداول وكميات المياه التي تستوعبها على مدار السنة، تكون العامل الرئيسي الذي يقرر حجم المجتمع البشري الذي يمكن أن يعيش على ذلك الحوض الزراعي، وهذا يعد من أهم العوامل التي تُقرر، حجم وأعداد العشائر النهرية التي يمكن أن تتعايش في منطقة واحدة أو في مناطق متجاورة، فلابد أن يتوازن حجم السكان وانتشارهم في منطقة ما، مع عدد الأنهار والجداول وما تحمله من مياه إلى تلك المنطقة. ولما كانت حاجة المحاصيل الزراعية لمياه الري متفاوتة، فإن كميات

---

(١) راجع خارطة أ ار وسط وجنوب العراق.

المياه التي تحملها الأنهار لكل مقاطعة، تقرر عادةً نوع المحاصيل الزراعية التي يمكن أن تنتجها كل منطقة.

حينما نأخذ تلك العوامل المتداخلة بنظر الاعتبار ندرك أهمية تحول مجاري الأنهار وآثار فيضاناتها على الزراعة في وادي الرافدين، وبالتالي على التحولات الاجتماعية والسياسية التي تعرض لها مجتمع عرب العراق، الذي تكون العشائر النهرية قاعدته العريضة. فبسبب تفاقم تلك الظاهرة، كانت تلك العشائر تضطر إلى ترك ديارها التي تنقطع عنها المياه، أو تلك التي تغمرها المياه، والهجرة إلى مناطق أخرى. وكانت تلك التحولات في أغلب الأحيان، تجرهم إلى مشاكل وصراعات مع بعضهم حول الأرض والماء. ولكن بعد استقرارهم في مواقعهم الجديدة فإن مستلزمات الزراعة الحوضية في وادي الرافدين، كانت تؤدي في أغلب الأحيان إلى تداخل تلك العشائر مع بعضها والانصهار في بوتقة مجتمعها العشائري الجديد. وأثناء تلك التحولات كانت أسماء بعض العشائر تختفي وذلك بعد نزوح أفرادها من مناطقهم وتشتتهم في مناطق أخرى، وعلى سبيل المثال لا الحصر، قبيلة عبادة الكبيرة.

استقرت قبيلة عبادة على (نهر الكار) الذي كان من الفروع الشرقية لنهر الفرات، ربما في العصور التي جاءت بعد القضاء على دولة بني أسد في الحلة. وكانت تسيطر على تلك المناطق التي تجاور مناطق ربيعة في الغراف، وقد استمرت قوتهم حتى القرن السادس عشر ميلادي، حينما أخذت المياه تشح في نهر الكار وتتحول إلى الغرب من مناطقهم، وقد تسبب ذلك التحول في انكماش أراضيهم الصالحة للزراعة. وبمرور الزمن اندثر ذلك النهر وفروعه واندثرت معه مناطق عبادة الزراعية فذهبت نعمتهم وتشتت شملهم فتفرقوا في مختلف مناطق وادي الرافدين. وبمرور الزمن ذابت جماعات كبيرة منهم في مجتمعات العشائر الفراتية التي حلوا في مناطقها، وهكذا ضاعت أصول تلك الجماعات، فشاع المثل القائل "إن ضاع أصلك كول عبادي" أي قل عبادي.

وقد سبق أن أشرنا إلى مسألة تاريخية تعد من خصوصيات وادي الرافدين، تؤكد أن تلك الظاهرة ساهمت منذ أقدم العصور في تحول مراكز الاستيطان والمدن من مكان إلى آخر، وبالتالي اندثار العديد من مدن وقرى وادي الرافدين وزوالها من الوجود، وظهور غيرها في أماكن أخرى.

كان نهر الفرات يجري من شمال الحلة فينحرف نحو الشرق ثم يمر بالرماحية[(١)] وحسكة[(٢)] ثم يمضي نحو منطقة السماوة. ولكن في نهاية القرن السابع عشر وفي حدود العام ١٦٨٨م (١١٠٠هـ) أخذ جدول فرعي يسمى "نهر ذياب" كان يخرج من فرات الحلة ويمر غرب الرماحية، بالتوسع واستيعاب كميات من المياه أكثر من السابق، مما تسبب في قوة جريان المياه فيه. وبسبب الإهمال الحكومي في تلك الفترة العثمانية المضطربة، وتكرار الفيضانات سنة بعد أخرى،

---

(١) إن اسم الرماحية يشير إلى موقعين. الرماحية القديمة كما جاء في كتاب "ماضي النجف وحاضرها ج٢ص١٦٩" تقع بين الديوانية والسماوة على مجرى الفرات القديم المندرس وهي التي فتحها المولى علي قائد جيش المشعشعين في سنة ٨٦٠هـ (١٤٥٥م)، ويذكر إ ا كانت بلدة عظيمة تماثل بغداد وكان فيها ٧٠ حماماً. وقد ورد ذكر الرماحية في صكوك السادات آل كمونة النجفيين رآها صاحب ماضي النجف وحاضرها ومنها صك مؤرخ سنة ٩٥٨هـ (١٥٥١م) في شراء أراضي السلهوة شهد في هذا الصك عبد الحسين النائب بالرماحية وقاضيان من قضاة الرماحية هما الحاج مصطفى والحاج درويش. وقد صدقت هذه الورقة سنة ١٠٠٣هـ (١٥٩٤م) وصك آخر مؤرخ سنة ٩٩٦هـ (١٥٨٧م) يتضمن دعوى السيد حسين النقيب بن السيد محمد آل كمونة وقفية أراضي السلهوة. وقد حكم له بصحة الوقف قاضي الرماحية الحاج درويش بن محمد.

وهناك رماحية أخرى واقعة بين مدينتي الشنافية والديوانية. والمعروف أن الرماحية نالت حظاً وافراً من العمران أيام سلطة الخزاعل.

(٢) الحسكة: منطقة واسعة بين الديوانية وعفك وتمتد جنوباً حتى السماوة وأشهر أ ارها قديماً بر "خنجر" و بر "الفوار" الذي اندرس بعد تحول مجرى الفرات الشرقي. ظهر اسم مدينة الحسكة في القرن السابع عشر ميلادي وكانت مأوى الخزاعل. وقد تعرضت لحروب عديدة وللتخريب عبر صراعات الخزاعل مع العثمانيين وبعد تخريبها قامت بالقرب منها مدينة الديوانية.

اتسع مجرى ذلك النهر الصغير بسبب قوة جريان المياه فيه وأخذ يستوعب جميع مياه فرع الفرات الذي كان يجري إلى الشرق منه ويمر بالرماحية، مما تسبب جفاف نهرها الذي تحولت المياه عنه وجرت نحو نهر حسكة. ومع تفاقم تلك الظاهرة توسعت في تلك المناطق الأهوار وتكونت أهوار وبطائح وجزائر جديدة غيرت معالم تلك المنطقة.

يحدثنا العزاوي الذي يقتبس من تاريخ راشد وكتاب كلشن خلفا ومصادر عثمانية أخرى عن أبعاد تلك التحولات في منطقة الفرات الأوسط فيقول:

وهناك حدثت أنواع الأهوار والجزائر حتى أن بعض النواحي صارت معرضة لخطر الغرق كما أن البعض الأخر منها بقى غير مزروع بسبب انقطاع المياه.[(١)]

ليس عسيراً على المتتبع لتاريخ تلك الفترة أن يفهم أوضاع السكان في تلك المناطق، خاصة المزارعين الفقراء منهم الذين غمرت مياه الفيضانات مزارعهم وشردتهم من ديارهم، أو الآخرين الذين هلكت مزروعاتهم بسبب انقطاع المياه عنها فهاموا على وجوههم طلباً للرزق.

وفي خضم تلك الكوارث التي ألمت بعرب العراق في منطقة الفرات الأوسط، كانت الحكومة العثمانية الغارقة في الفساد الإداري والإفلاس لقلة الموارد، تلح في جباية المزيد من الضرائب، من الشعب الذي لم تكن تقدم له ما يحتاجه من خدمات أساسية لازمة لمواصلة حياته والأضطلاع بمسئولية الأنتاج في الأراضي الزراعية التي كان أنتاجها مصدر حياة الجميع، بل كانت تبعث بعساكرها لمطاردة رجال العشائر العاملين في الأرض وتحرق قراهم وتدمر مزارعهم، بحجة أنهم لا يدفعون ما كان يفرض عليهم من رسوم مستحدثة كانت في الغالب تتجاوز طاقتهم.

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥ص١٥٢

إن تأزم الحالة وتدهور الأوضاع أدى بالنتيجة إلى انتشار روح التمرد والثورة على الأوضاع التي أصبحت لا تطاق. يحدثنا العزاوي عن بعض ما كتب وقيل عن تلك الأوضاع فيقول:

جبل العربان على العصيان فصاروا يتحصنون في تلك الأهوار والجزائر ويمتنعون عن دفع الميري. وبعض الضرائب تزايدت فعادت لا تطاق، فاضطر بعض العشائر إلى الانضواء إلى تلك. اغتنموا الفرصة فخرجوا عن الطاعة. لا يرضخون للحكومة في تأدية التكاليف... .[1]

تعلمنا تجربة التاريخ أن أبعاد ومفعول ظاهرة تحول مجاري الأنهار، التي تغير معالم الحياة في مناطق واسعة من وادي الرافدين، لابد أن تفهم ضمن إطارها الزمني الطويل المدى الذي يقاس بالعقود وأحياناً بالأجيال. وبهذا الصدد فإن تحول مجرى الفرات في العقد التاسع من القرن السابع عشر، لابد أن يفهم ضمن إطار تدهور أوضاع الدولة العثمانية في تلك الحقب التاريخية بصورة عامة، وأوضاع الحكم العثماني في العراق بصورة خاصة، لأن اجتماع تلك العوامل فرض بمرور الزمن على العشائر النهرية أن تضطلع بمسؤولياتها في إدارة مناطقها الزراعية وذلك من أجل البقاء. وفي خضم ذلك الواقع، برز دور الخزاعل في قيادة تلك العشائر النهرية، في أدارة حياتها، وبمرور الأيام وتطور الأحداث، أقام الخزاعل سلطة بديلة للإدارة الحكومية العاجزة عن القيام بواجباتها.

ولابد أن نشير هنا إلى أن ضاهرة تحول مجاري الأنهار لم تتوقف، بل عادت وغيرت منذ نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، خارطة الفرات الأوسط بعد ظهور فرات الهندية، الذي قامت على شاطئه مدينة الكوفة الحديثة، وبسبب تلك التحولات التي تسببت في أختفاء عدد من الأنهار وظهور أخرى إلى الشرق منها، تغيرت أوضاع الخزاعل وسلطتهم العشائرية، وبالنظر

---

(١) ن.م.

لأهمية تلك التحولات الاجتماعية والاقتصادية وأبعادها السياسية، سوف نتناولها بالتفصيل حينما نتناول تاريخ العراق في القرنين الثامن والتاسع عشر.

سلمان بن عباس الخزعلي

مع تصاعد روح الثورة واتساع مداها في مناطق الفرات الأوسط، وخروج المزيد من العشائر الفراتية عن "طاعة" الحكومة العثمانية برز دور زعيم الخزاعل سلمان آل عباس الذي اضطلع بمسؤولية إدارة سلطة الخزاعل والثورة في المنطقة. هو سلمان بن عباس بن محمد بن مهنا رئيس الخزاعل الذي قاتل الجيوش العثمانية في معركة السماوة في عهد السلطان مراد الرابع وولاية السفاح درويش محمد. ومن المعروف أن مواهب وقدرات سلمان في القيادة ظهرت في مرحلة مبكرة من شبابه وانه تسلم رئاسة الخزاعل في حياة والده عباس.

لقد أشار الشيخ عبد الرحمن السويدي، إلى الشيخ سلمان الخزعلي ودوره المبكر في زعامة الخزاعل حتى قبل تحول مجرى الفرات، وذكر حادثة تعود إلى سنة ١٦٩٣م فقال عنه:

وقح الوجه بادي السفاهة، وكان على حال الإفساد على نباهة، أفسق من فأر وأفسد وأسلط من العيار وأشد، ذا حيلة ودهاء ... وبسبب بغيه وعناده وشقائه في إفساده أنه في أثناء السنة الخامسة بعد المائة والألف (١٦٩٣م) حبس في القلعة على إداء الخانة[١]، ورهن فيها خوفاً من المكر والخيانة، فلما مضى عليه في الحبس يوم، شرع في نفسه باللوم، مفكراً في انقياده وعدم إنقاذه وإسعاده، مع قدرته على الفرار والهرب قبل حصوله في دار البوار والعطب، ولم يزل يستنتج الأفكار ويستمنح الأقدار ويبدي لنفسه الأعذار حتى ولّى النهار فظهر له سبب الخلاص ...

(١) الخانة أو البيتية: هي رسوم كانت السلطات العثمانية تفرضها على القبائل على عدد بيوت القبيلة وتفرض على رئيس القبيلة جباية تلك الرسوم من كل بيت وتسليمها إلى الحكومة.

فصبر حتى جن عليه الليل ونام الحراس فحن إلى امتطاء الخيل بعد هدوء الأنفاس، وفتح باب سجنه على غفلة وصعد الشرفات من ناحية دجلة، وفك حديده الحديد ... وعبر دجلة إلى الجانب الغربي سابحاً، وصار إلى أعوانه وأحزابه غادياً ورائحاً، فبادر إلى العصيان وشرع في البغي والطغيان، ومتنت الخزاعل بعد ضعفها وكثرت بعد قلتها في صنفها لما عاضدتهم العشائر الخائنة وناصرتهم القبائل العاصية غير الآمنة، فاشتهر هذا المنكوب بالصولة ... وسار سيرة الملوك فجلس على السرير وصار ذلك الفقير الصعلوك ذا دولة علية كالملوك ... .[1]

مع تصاعد ثورة العشائر الفراتية بقيادة الخزاعل تمكن الشيخ سلمان من الاستيلاء على مناطق واسعة من الفرات الأوسط، أهمها مقاطعة الرماحية وحسكة ومقاطعة بني مالك و "نهر الشاه"، ومقاطعة "خالد جبشة"[2] وتشير الأخبار، إنه بعد

---

(١) الشيخ عبد الرحمن السويدي – حديقة الزوراء في سيرة الوزراء، ج١ص٣١

(٢) خالد جبشة: يطلق اسم جبشة على مجموعة من العشائر العربية منهم كعب وبنو سلامة وبنو عارض وطفيل وخفاجة والنهير وبنو منصور والسادة العجام وغيرهم من العشائر. في أيام سلطة الخزاعل استقرت تلك ا موعات من العشائر في الأراضي والمقاطعات الممتدة على طول الجهة الغربية من ا رى الشرقي للفرات وكانت تلتزم الأراضي الزراعية من الخزاعل ومن الناحية العشائرية كانت تتبع قياد م. وكما أسلفنا فإن طبيعة الزراعة الحوضية في وادي الرافدين وخصوصيا ا عملت بمرور الزمن على تداخل تلك العشائر واندماجها حتى أصبحت تعد عشيرة واحدة باسم جبشة.

أما عشيرة خالد: فهم أحد بطون قبيلة خالد أمراء الأحساء سابقاً. وقد وردت العراق في القرن السابع عشر الميلادي أيام رئاسة مهنا بن علي، فأقطعها رئيس الخزاعل مهنا أرضاً زراعية على الفرات بجوار أراضي جبشة. وبفعل ذات العوامل وخصوصيات الزراعة الحوضية، اندمجت بمرور الأيام عشيرة خالد بعشائر جبشة وأصبح اسمها يذكر مقروناً ا فيقال "خالد جبشة". لقد توحدت واندمجت تلك العشائر بحيث أصبحت لها راية واحدة ونخوة واحدة هي "منصور". إن اندماج تلك العشائر النهرية وتداخلها يعطينا صورة مهمة لخصوصيات الزراعة الحوضية على أ ار وادي الرافدين، ولأهمية هذا الموضوع الجوهري، وتأثيره على التحولات الاجتماعية في مجتمع عرب العراق، لابد لنا أن نتناوله في فصول قادمة.

أن بسط سلطته على تلك المناطق الفراتية استولى الشيخ سلمان على مدينة النجف.[1]

في تلك الفترة تحول الشيخ سلمان وأعوانه من ديرته ومنازله القديمة الواقعة على فرات الرماحية الذي انقطعت عنه المياه، إلى بلدة الحسكة الواقعة على مجرى الفرات الجديد الذي تحولت إليه المياه، وفي الحسكة ظهرت سلطة الخزاعل بوضعها الجديد المستقل إدارياً واقتصادياً عن سلطة حكومة بغداد. وبهذا الصدد قال العزاوي:

... أما الشيخ سلمان فإنه اكتسب ثروة وقدرة. وبهذا صار كل واحد من رؤساء العشائر يدعي الاستقلال ويتطاول على القرى والنواحي. فأصاب أبناء السبيل أنواع الأضرار. وصاروا يأخذون ضريبة يسمونها (التسيار) أي مبالغ معينة يفرضونها يسلمها المارة لرئيس العشيرة صاحب النفوذ، أو أن قوة من الجيش تدرب هؤلاء وتمضي بهم للمحافظة. وإلا فلا يمكن اجتياز خطر هؤلاء ... .[2]

بعد تلك الانتصارات حشد رئيس الخزاعل جيشاً كبيراً من أبناء العشائر الفراتية وسار نحو الحلة بهدف الاستيلاء عليها. أثار تحرك جموع الخزاعل نحو الحلة مخاوف حكومة بغداد، ولذا تدارك والي بغداد مصطفى باشا الأمر وأرسل جيشاً كبيراً يتألف من إنكشارية الباب العالي ومن عساكر الجيش المحلي لتعزيز دفاعات الحلة. وقد تمكنت تلك الجيوش العثمانية من صد هجوم الخزاعل ومنعهم من الاستيلاء على المدينة.

بالرغم من نجاح العثمانيين في صد هجوم الخزاعل على الحلة فإنهم ظلوا عاجزين أمام تعاظم قوة العشائر الفراتية بقيادة الخزاعل مما كان له أسوأ الآثار على أوضاع حكومة بغداد التي ألمت بها الأزمات المالية، فأخذت تستنجد بحكومة اسطنبول وتطلب منها العون.

---

(١) حمود الساعدي – دراسات عن عشائر العراق الخزاعل ص١٥

(٢) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥ص١٥٣

بعد انتصار الجيوش العثمانية في النصف الأول من القرن السابع عشر في معركة السماوة، بدا أن المؤسسة العسكرية العثمانية التي استولت جيوشها على العراق للمرة الثانية، قد نجحت في هذه المرة في سحق إرادة عرب العراق، وإنها هيأت الظروف الملائمة لانتزاع أراضيهم الزراعية وتحويلها إلى إقطاعيات عسكرية كما كان الحال في الكثير من أنحاء الإمبراطورية العثمانية.

غير أن إرادة عرب العراق وإصرارهم على التمسك بالأرض، أفسد مخططات المؤسسة العسكرية العثمانية، وغير مسيرة تاريخ المنطقة، فبعد مرور ستة عقود من الزمن، كان الحكم العثماني يتهاوى في العراق. وفي خضم الأحداث تعاظمت قوى عشائر الفرات الأوسط وأخذت مرة أخرى تهدد السلطة العثمانية في بغداد. كتب العزاوي في أحداث سنة ١٧٠١م:

إن عمل الشيخ سلمان واستيلاء العربان على الأطراف كل هذا مما شلّ يد الحكومة وقلل من الضرائب فأدى إلى قلة (العلوفة) ومرتّبات الكتّاب.[١]

إن تأزم أوضاع حكومة بغداد المالية في ظل تلك الأحداث يلقي الضوء على حقيقة تاريخية مهمة تبين مدى اعتماد حكومة والي بغداد على الاقتصاد الزراعي في منطقة الفرات الأوسط، التي كانت مواردها تعد المصدر الرئيسي لواردات خزينة بغداد ومصدر معيشة المجتمع العثماني هناك.

عرضت حكومة بغداد الأمر على اسطنبول، وبينت المشاكل والمخاطر التي يواجهها الحكم العثماني في العراق، جراء تعاظم قوة الخزاعل في منطقة الفرات الأوسط، التي بدت في زحمة الأحداث وكأنها بداية النهاية للحكم العثماني في العراق على يد رجال القبائل العربية المتمردة على السلطة.

في تلك الحقبة التاريخية العصيبة، كانت المؤسسة العسكرية العثمانية قد خرجت تواً من حروبها الأوروبية التي انتهت بمعاهدة كارلوفيتش الموقعة في سنة

---

(١) ن.م.

١٦٩٩م، وكانت الدولة لا تزال تتخبط في دوامة الفساد الإداري والضعف العام جراء تلك الحروب التي استنفذت قواها الاقتصادية والعسكرية، وشلت قدراتها على شن حملات عسكرية كبيرة كالسابق. وبسبب ذلك العجز لم تتمكن حكومة اسطنبول من شن حملة عسكرية كبيرة يكون بإمكانها القضاء على سلطة الخزاعل في الفرات الأوسط. ولكن بدلاً من ذلك تبنت خطة لا تخلو من الغرابة هدفها سد مجرى النهر الجديد (نهر ذياب) وتحويل المياه مرة ثانية إلى مجراها القديم، باعتبار أن ذلك سيساعد الحكومة على إعادة السلطة إلى تلك المناطق القبلية. وبهذا الصدد يقول العزاوي:

... فكان جلّ ما فعلته أن أصدرت أمرها في أوائل ربيع الأول يقضي بلزوم سد (نهر ذياب) وأن يؤسس النظام في تلك الأنحاء وأن يضرب على أيدي البغاة.[(١)]

لإنجاز تلك الخطة أمدت حكومة اسطنبول والي بغداد بمقدار من المال، وصدرت الأوامر إلى محافظ كوتاهية ومحافظ ديار بكر ومحافظ الموصل ووالي شهرزور ومتصرف كويسنجق التابع لتلك الولاية للالتحاق بحملة تحويل مجرى نهر الفرات. وصدرت الأوامر إلى قائد جيش بغداد، وإلى فرق العسكر الإنكشاري التابعة للباب العالي للمشاركة في تلك الحملة. وفي تلك الأثناء هيأت الدولة ما يلزم من السفن وما يحتاجه المشروع من أدوات حفر ولوازم أخرى تم جمعها من بغداد والحلة.

أثناء توارد الجيوش العثمانية على بغداد، كتب والي بغداد إلى عباس الخزعلي والد الشيخ سلمان، كتاباً كان يجمع بين التهديد والوعيد في محاولة للخروج من الأزمة، وذلك بإخضاع الخزاعل بدون الالتجاء إلى حرب مدمرة كانت حكومة بغداد في غنى عنها. وبهذا الصدد كتب العزاوي:

---

(١) ن.م. ج5ص١٥٤

... ثم أن الوزير دعا والد سلمان الخزعلي (عباساً) للطاعة، نصحه بكتاب بعثه إليه وحذره من نتائج الإصرار وما تجر إليه الحالة كما رغبه من أخرى. فلم يجب وإنما أجاب ابنه سلمان بكلمات يشم منها الغرور والتعند (كذا). (١)

يبدو أن الشيخ سلمان رفض ما جاء بكتاب الوالي، ورد عليه بكتاب شديد اللهجة وبشيء من الاستخفاف، ما اعتبرته حكومة الوالي ضرباً من الغرور والتعنت.

لمواجهة الجيوش العثمانية حشد الخزاعل جيشاً من رجال العشائر من مشاة وخيالة، وقد انضمت إليهم جموع من المقاتلين جاءت من مناطق بعيدة خارج منطقة الفرات الأوسط وذلك لنصرة الخزاعل في تلك المعركة.

زحف العسكر العثماني من بغداد، وحينما اقتربت الجيوش من ديار الخزاعل أخذت تسير باحتراس حذراً من سكان المناطق التي كانت تمر بها، وبعد مسيرة أيام حط الجيش الرحال في موقع قرب النهر، وفي اليوم التالي اشتبك العسكر العثماني برجال القبائل ونشبت معركة بين الطرفين استعمل العثمانيون فيها مدافعهم الثقيلة بصورة مكثفة، وبذلك تمكنوا من تشتيت شمل رجال العشائر، بعد أن أنزلوا بهم خسائر فادحة بالأرواح. أشار العزاوي إلى تلك المعركة فقال:

إن سلمان الخزعلي حشد المشاة بين الأدغال في محل ضيق وصاروا يطلقون البنادق على الجيش. عبأوا المشاة وكذا الخيالة وظهروا على حين غرة. هاجموا هجوماً عنيفاً ... وحينئذ قابلهم الجيش واشتبكوا في القتال وبينما هم كذلك إذ سمعوا دوي المدافع كالرعد القاصف فرقوا شملهم وانتشروا كالجراد وحينئذ تولاهم الجيش من جميع جهاتهم وصاروا طعماً للسيوف وولى سلمان الخزعلي الأدبار. تعقبوا أثرهم ساعة أو ساعتين ونكلوا بهم تنكيلاً مراً فعادوا منتصرين.(٢)

---

(١) ن.م.

(٢) ن.م. ج5ص155

لإنزال الرعب في نفوس رجال القبائل العراقية، أقدم العسكر العثماني على ذبح آلاف المقاتلين منهم وقطع رؤوسهم وتكديسها على هيئة أهرامات لتبقى شاهداً على قسوة الحكم العثماني. كتب لونكريك مستنداً إلى معلومات استقاها من بعض المصادر الغربية عن تلك المعركة فقال:

... ثم جرى الاشتباك مع جمهرة من القبائل كانت ما تزال معادية في جنوبي الرماحية في أواخر كانون الأول ١٧٠١م (١١١٣هـ) فدحرت تماماً. وقد كونت رؤوس ألف من العصاة المقطوعة هرماً كالح اللون، وبقيت رابية أشلائهم ظاهرة للعيان بعد أربعين سنة.[(١)]

إن المعلومات التي أوردتها تلك المصادر تشير إلى عنف المعارك التي قامت وإلى سعة المذابح التي نفذها العسكر العثماني بحق عرب العراق، الذين كانوا يدافعون عن أرضهم في تلك الأيام العصيبة التي كانوا يواجهون فيها مشاكل يصعب حصرها بسبب انقطاع المياه عن مجرى الفرات الشرقي القديم وتحولها إلى نهر ذياب أي شط الديوانية.

بعد يومين باشر الجيش عمله الذي كان يستهدف سد مجرى النهر الجديد وإرجاع المياه إلى المجرى القديم. باعتبار أن المجرى الجديد تسبب في ظهور أهوار وبطائح وجزائر جديدة ساعدت رجال القبائل النهرية في الفرات الأوسط على التمرد وشجعتهم على الامتناع عن أداء ما كان يفرض عليهم من رسوم وضرائب. وبعد أن قام مهندسو الجيش بمسح المنطقة، وجدوا أن طول النهر المراد حفره يبلغ (٥١٧٠) ذراعاً وعرضه (١٢٠) ذراعاً وعمقه (٢٠) ذراعاً.[(٢)]

في أواخر سنة ١٧٠١م شرع الجنود بالحفر وامتد العمل قرابة خمسين يوماً وانتهى في حدود الشهر الثاني لسنة ١٧٠٢م، وبعد انتهاء عمليات الحفر فتحوا

---

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك - أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص١٥٢

(٢) لم تذكر لنا المصادر طول الذراع المستعمل في العهد العثماني، ولكن في المقاييس الإسلامية يشار إلى نوعين من الأذرع يختلفان عن بعضهما في الطول، فهناك الذراع المرسلة =٤٦,٢سم والذراع الهاشمية = ٦١,٦سم. أنظر كتاب عبد القديم زلّوم – الأموال في دولة الخلافة، ص٥٩

السد، ولكن المياه لم تغير مجراها، بسبب عمق وسعة النهر الجديد. وهكذا فشلت الخطة وذهبت جهود الدولة سداً.

بعد فشل تلك العملية قفلت الجيوش العثمانية راجعة إلى بغداد، وفي تلك الأثناء عين القائد ضابطاً في الحسكة ومحافظاً في المنطقة. ولكن بعد عودة الجيوش العثمانية إلى بغداد، ورد كتاب من ضابط الحسكة يطلب فيه من الوالي المدد العسكري، بسبب ظهور قوات الخزاعل في المنطقة مرة أخرى. غير أن والي بغداد عجز عن إرسال المدد المطلوب. وهكذا تقدم الشيخ سلمان واستولى على المنطقة مرة أخرى.

في محاولة للخروج من الأزمات المالية التي ألمت بحكومة بغداد، قررت حكومة اسطنبول في أواخر صيف سنة ١٧٠٢م، بيع المقاطعات الزراعية التي كانت بيدها في العراق وتخفيف الرسوم ورفع البدع المحدثة. يقول العزاوي استناداً على ما جاء في كتاب كلشن خلفا وتاريخ راشد:

يوضح هذا أن السلطان أمر بإصلاح خزانة بغداد وأن تمضي على نظام ونصب محمد الدري من كتاب الديوان (دفترياً) فقام بتنظيمها ورفع الرسوم المحدثة والبدع ... .[(١)]

بعد مرور شهرين من ذلك، قررت المؤسسة العسكرية في اسطنبول شن حرب جديدة ضد الخزاعل، وصدرت الأوامر إلى والي بغداد بقيادة تلك الحملة وتشكيل فرق عسكرية من الجنودً المتطوعين محليا، بينما أرسلت الدولة ما يلزم لذلك الجيش الجديد من ضباط. وقد التحقت بتلك الحملة العسكرية جيوش أخرى وردت بغداد بقيادة محافظ ديار بكر ووالي قرمان ووالي الموصل.

ولكن قبل المباشرة بالحرب جرت مفاوضات بين حكومة الوالي وشيخ الخزاعل بوساطة قاضي بغداد. وتم الاتفاق على إيقاف الحرب بعد أن تعهد رئيس

---

(١) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥ص١٥٧

الخزاعل الشيخ سلمان، أن يدفع للحكومة الرسوم المطلوبة. وهكذا تفادى الطرفان الحرب إلى حين.

في تلك الحقبة كانت الإدارة العثمانية في العراق تزداد ضعفاً جراء استشراء الفساد والتخبط في الإدارة، وبعد فشل الحكومة في عملية سد نهر ذياب جرى عزل الوالي مصطفى باشا على أن يحل محله يوسف باشا، ثم توالت بعد ذلك من اسطنبول أوامر إدارية متناقضة زادت في إرباك أوضاع الإدارة العثمانية في العراق. فقد صدر فرمان بنقل والي البصرة علي باشا إلى ولاية بغداد، وبعد ذلك صدرت تعليمات جديدة بإعادة يوسف باشا إلى منصب ولاية بغداد وبقاء علي باشا في البصرة. ولكن علي باشا تجاهل تعليمات الدولة وتحرك نحو بغداد وحط الرحال بالقرب من الأعظمية، وبعد أيام نزل علي باشا دار الحكومة مما اضطر الوالي يوسف باشا إلى الذهاب إلى اسطنبول. وقد أشار العزاوي إلى تلك التعليمات المتناقضة التي أربكت الإدارة في بغداد فقال:

... وفي هذا ما فيه من اضطراب في أصل الدولة ... . (١)

أثناء تلك الفترة المرتبكة، كانت سلطة الخزاعل تتعاظم في منطقة الفرات الأوسط حيث أخذ نفوذهم يمتد إلى مناطق عشائرية أخرى، إضافة إلى ذلك تمكن الشيخ سلمان من إقامة علاقات وطيدة مع قبيلة شمر وقبيلة غزية. وهكذا أخذ الخزاعل يهددون بغداد مرة أخرى. وقد استمرت الحال كذلك طيلة أيام ولاية علي باشا الذي جرى عزله في شهر حزيران سنة ١٧٠٤م، وبعد عزله عينت حكومة اسطنبول والياً جديداً في بغداد يدعى حسن باشا.

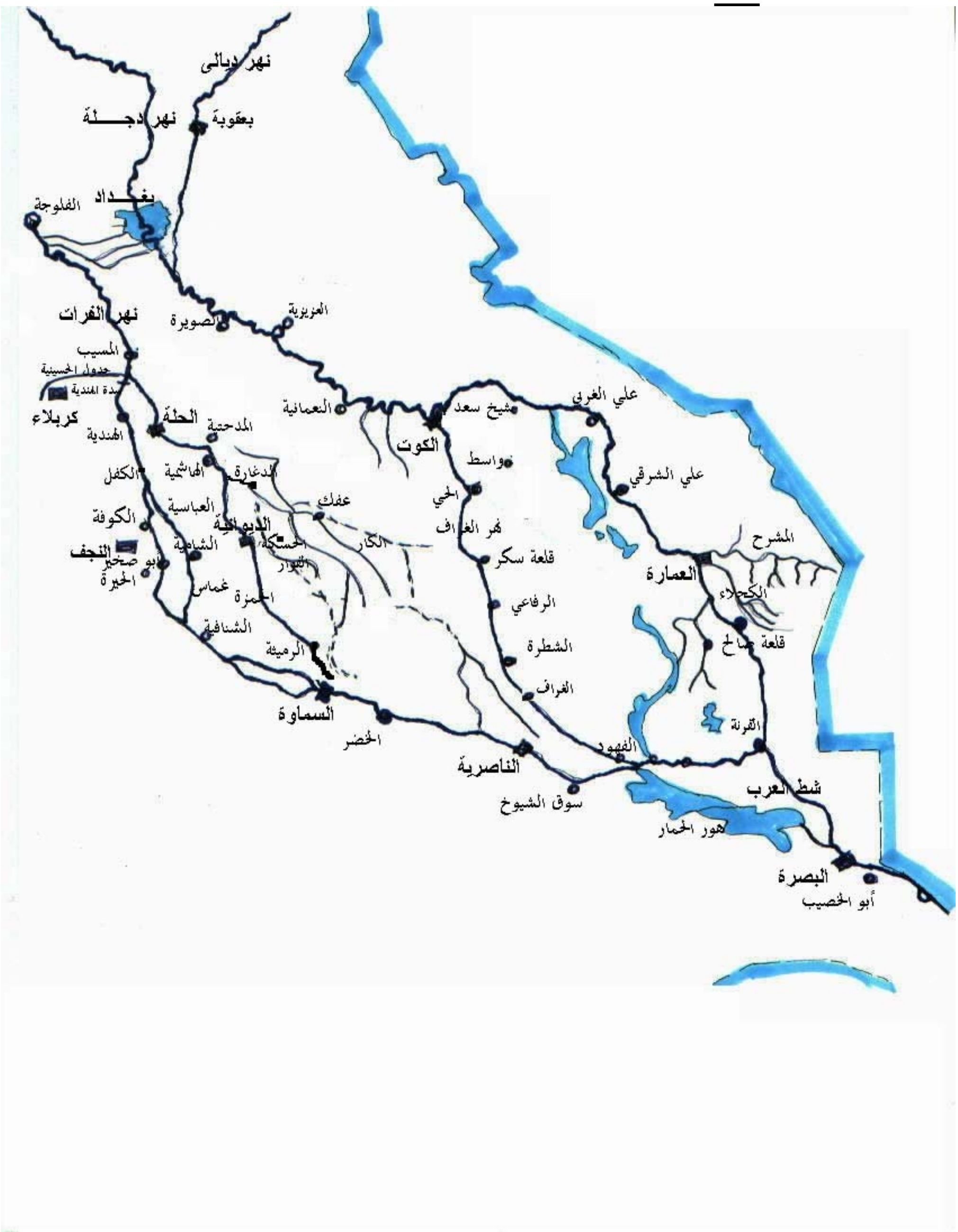
بانتهاء ولاية علي باشا انتهى الحكم العثماني المباشر بالعراق. فقد استغل الوالي الجديد حسن باشا ضعف حكومة اسطنبول وفساد إدارتها، فاستبد بحكومة

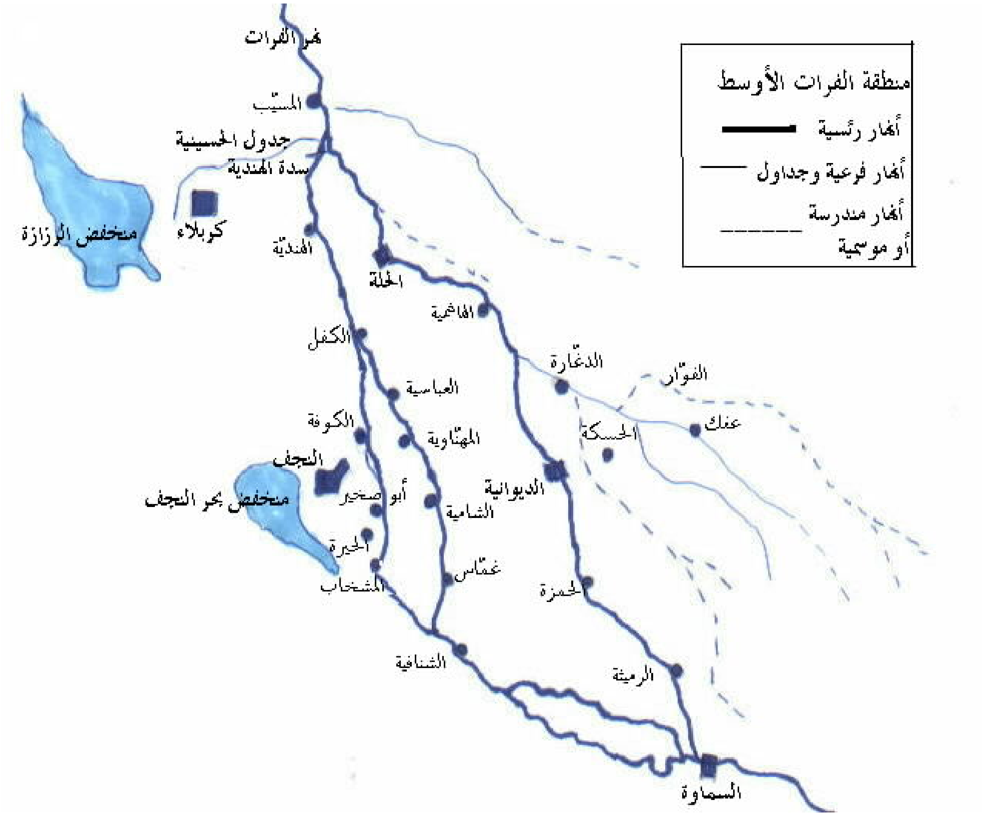
---

(١) ن.م. ج5ص١٥٩

بغداد أكثرمن عقدين من الزمن. وبعد إقامة حكومته التي استقلت عملياً عن حكومة اسطنبول، تغيرت مسيرة الأحداث، وكانت البداية لعهد جديد في تاريخ العراق.


خارطة العراق
كلم 100
ميل 100
دهوك
الزاب الكبير
أربيل
الموصل
الزاب الصغير
السليمانية
كركوك
وادي الثرثار
نهر دجلة
تكريت
سامراء
نهر ديالى
بحيرة الثرثار
نهر الفرات
بغداد
بعقوبة
الرمادي
بحيرة الحبانية
الفلوجة
الصويرة
المسيب
بحيرة الرزازة
النعمانية
كربلاء
الهندية
الحلة
عفك
الكوت
واسط
العمارة
الحي
الديوانية
الكوفة
الشامية
النجف
نهر الغراف
الرميثة
الشنافية
الحيرة
الشطرة
قلعة صالح
بحر النجف
السماوة
الناصرية
القرنة
هور الحمار
البصرة
شط العرب


نهر ديالى
نهر دجلة
بعقوبة
بغداد
الفلوجة
نهر الفرات
الصويرة
العزيزية
المسيب
جدول الحسينية
سدة الهندية
كربلاء
الحلة
المدحتية
النعمانية
الكوت
شيخ سعد
علي الغربي
الهندية
واسط
الكفل
الهاشمية
الدغارة
علي الشرقي
الحي
العباسية
عفك
الكوفة
الديوانية
الشامية
النجف
أبو صخير
الحيرة
الكار
نهر الغراف
قلعة سكر
المشرح
العمارة
غماس
الحمزة
الرفاعي
الكحلاء
الشنافية
الرميثة
الشطرة
قلعة صالح
الغراف
السماوة
القرنة
الخضر
الفهود
الناصرية
شط العرب
سوق الشيوخ
هور الحمار
البصرة
أبو الخصيب


منطقة الفرات الأوسط
أنهار رئسية
أنهار فرعية وجداول
أنهار مندرسة
أو موسمية
نهر الفرات
المسيّب
جدول الحسينية
سدة الهندية
كربلاء
منخفض الرزازة
الهنديّة
الحلة
الهاشمية
الكفل
الدغّارة
الفوّار
العباسية
الكوفة
المهنّاوية
عفك
الحسكة
النجف
منخفض بحر النجف
أبو صخير
الديوانية
الشامية
الحيرة
غمّاس
الحمزة
المشخاب
الشنافية
الرميثة
السماوة

تم الجزء الثاني من كتاب
العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية
ويليه الجزء الثالث الذي تتناول فصوله تاريخ العراق في:

عهد الوالي حسن باشا
١٧٠٤م/ ١٧٢٣م

ـ حسن باشا يستبد بحكومة بغداد ويؤسس جيش المماليك الكرج ويشن حملات عسكرية واسعة للتنكيل بالعشائر العراقية ويجهز حملة عسكرية كبيرة لاسترداد البصرة من عشائر المنتفك.

ـ صراعات حسن باشا الخفية وصرف مبالغ طائلة لشراء الذمم في اسطنبول.

ـ حسن باشا يهاجم إيران ويستولي على كرمانشاه بعد انهيار الحكم الصفوي واستيلاء القبائل الأفغانية على العاصمة إصفهان.

ـ وفاة حسن باشا في كرمانشاه ومبايعة أمراء عسكر المماليك الكرج ولده أحمد باشا الذي كان والياً على البصرة.

عهد أحمد باشا
١٧٢٣م-١٧٤٩م

ـ أحمد باشا يزحف على رأس جيش المماليك الكرج ويستولي على همدان ثم يضطر إلى العودة إلى بغداد لمواجهة تمرد العشائر العراقية التي اجتمعت قرب الكفل وعقدت حلفاً عشائرياً قوامه شمر والخزاعل وآل شبل وبني لام وغيرهم.

ـ احتدام الصراعات العثمانية الأفغانية في إيران وظهور نادر خان وحروبه لطرد الغزاة من الأراضي الإيرانية.

ـ نادر خان يجتاح الحدود العراقية وبداية الحروب الإيرانية العثمانية على أرض العراق.

ـ نادر خان يحاصر بغداد والموصل ويعقد مؤتمراً بالنجف لجمع الفرق الإسلامية، يحضره الشيخ عبد الله السويدي مندوباً عن أحمد باشا وممثلاً لأهل السنة في بغداد.

ـ الصلح بين نادر شاه والدولة العثمانية. اغتيال نادر شاه ووفاة أحمد باشا.

حكم عسكر المماليك الكرج في العراق

١٧٤٩م-١٨٣٠م

ـ المخاض الصعب وصراعات الانتقال من أحمد باشا إلى عهد سليمان أبو ليلة الذي واجه تحركات حكومة السلطان للقضاء على حكومته.

ـ سليمان أبو ليلة يشن حملات عسكرية للقضاء على الإنكشارية وللاستيلاء على البصرة ثم يكتسح إمارة بابان وينكل باليزيدية.

ـ سليمان أبو ليلة يوسع جيش المماليك الكرج ويعمل على تدفق الرقيق الأبيض من بلاد الكرج لدعم مجتمع السلطة الجديد، والآثار الاجتماعية لإغراق مجتمع بغداد بأعداد كبيرة من أولئك الصبيان الكرج ذوي السحنة الشقراء.

ـ وفاة سليمان أبو ليلة وحكم علي باشا وعمر باشا والضباط السبعة (١٧٦٤م-١٧٨٠م). واستشراء الفساد وضعف الحكومة ثم سقوط البصرة في يد القوات الإيرانية وأسر متسلمها سليمان أغا ونقله إلى شيراز.

ـ انسحاب الجيوش الإيرانية واستيلاء قوات المنتفك على البصرة وعودة سليمان أغا من الأسر وتوسط بريطانيا لدى اسطنبول لتعيين سليمان أغا لولاية بغداد.

ـ حكومة سليمان باشا الكبير وغارات الوهابيين على العراق ومعارك الخزاعل ضدهم. بناء سور النجف واستيلاء الوهابيين على كربلاء واستباحة مقام الإمام الحسين.

ـ وفاة سليمان باشا وصراعات الإنكشارية وعساكر المماليك الكرج.

ـ غارات الأمير سعود على البصرة في سنة ١٨٠٤م ومهاجمة النجف سنة ١٨٠٥م وتوالي الأحداث حتى وزارة داود باشا في سنة ١٨١٦م.

ـ صراعات شمر وعنزة على أرض العراق. معركة "بصالة" سنة ١٨٢٢م وانتصار قبيلة شمر. ومعركة "السبيخة" في سنة ١٨٢٣م التي انتهت بانتصار عنزة وسيطرتها على بوادي العراق غربي الفرات الأوسط وانسحاب شمر نحو الموصل.

ـ القضاء على الإنكشارية في الدولة سنة ١٨٢٥م وطرد البكتاشية من تكاياهم بأمر السلطان العثماني.

ـ حكومة السلطان العثماني تجهز في سنة ١٨٣٠م حملة عسكرية بقيادة علي رضا اللاّز للقضاء على حكم المماليك الكرج في العراق.

ـ علي رضا اللاّز يستولي على بغداد ويذبح المماليك ويصادر أملاكهم وبداية عهد جديد في العراق.

ملحق

يشمل دراسة تتناول ظاهرة تشيع عدد من العشائر العراقية بعد استقرارها وتحولها إلى الزراعة في القرن الثامن عشر الميلادي، وعلاقة ذلك بظاهرة تحول مجاري الأنهار وطبيعة الزراعة الحوضية في وادي الرافدين، والتحديات السياسية التي واجهها عرب العراق في تلك الفترة التاريخية العصيبة.

المراجع

العربية

١ـ علي الوردي ـ لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

كوفان للنشر ـ لندن ١٩٩١

٢ـ عباس العزاوي ـ تاريخ العراق بين احتلالين

ج١/ج٢ ـ مطبعة بغداد

ج٣ مطبعة التفيض الأهلية ـ بغداد

ج٤ - ج٨ / شركة التجارة والطباعة المحدودة ـ بغداد

٣ـ جعفر خصباك ـ العراق في عهد المغول الأيلخانيين

الطبعة الأولى ١٩٦٨، مطبعة العاني ـ بغداد

٤ـ عبد الله محمد (ابن بطوطة) ـ رحلة ابن بطوطة

دار صادر ـ بيروت

5ـ المحامي عباس العزاوي ـ عشائر العراق

ج١ مطبعة بغداد

ج٢ - ج٤ مطبعة شركة التجارة والطباعة المحدودة ـ بغداد

٦ـ محمود فهمي حجازي ـ علم اللغة

وكالة المطبوعات ـ الكويت
٧ـ طه باقر ـ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة
دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام ـ بغداد
٨ـ مجموعة من أساتذة الجامعات في العراق (١٩٨٣) ـ العراق في التاريخ
دار الحرية للطباعة ـ بغداد
٩ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ
دار الكتاب العربي ـ بيروت
١٠ـ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ـ القاموس المحيط
دار الجيل ـ بيروت
١١ـ أبي القاسم ابن حوقل النصيبي ـ صورة الأرض
منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٩٢م ـ بيروت
١٢ـ محمد فريد بك ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية
دار النفائس ـ بيروت
١٣ـ ستيفن هيمسلي لونكريك ـ أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث
ترجمة جعفر الخياط ، منشورات مكتبة اليقظة العربية ـ بغداد
١٤ـ برتولد شبولر ـ العالم الإسلامي في العصر المغولي
نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى
دار حسان للطباعة والنشر ـ دمشق
١٥ـ محمد عبد الحي شعبان ـ الثورة العباسية
دار الدراسات الخليجية
١٦ـ محمد سهيل طقّوش ـ تاريخ الدولة الأموية
دار النفائس ـ بيروت
١٧ـ عبد الأمير عبد الحسين دكسن ـ الخلافة الأموية

دار النهضة العربية ـ بيروت
١٨ـ أحمد بن أبي يعقوب (اليعقوبي) - تاريخ اليعقوبي
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت
١٩ـ أبو الحسين بن علي المسعودي ـ مروج الذهب.
المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية - الجزائر ١٩٨٩
٢٠ـ عبد الرحمن الشرقاوي ـ شخصيات إسلامية : أئمة الفقه التسعة
دار اقرأ ـ بيروت
٢١ـ حسين مروه (الجزء الأول) ـ النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية.
دار الفارابي ـ بيروت
٢٢ـ عبد العزيز المقالح ـ قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة
دار العودة - بيروت
٢٣ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ مقاتل الطالبيين
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت
٢٤ـ فلهوزن ـ أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام.
ترجمه عن الألمانية ـ عبد الرحمن بدوي
وكالة المطبوعات ـ الكويت
٢٥ـ صالح احمد العلي ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري
دار الطليعة ـ بيروت
٢٦ـ فؤاد عبد المعطي الصياد ـ المغول في التاريخ.
دار النهضة العربية ـ بيروت
٢٧ـ عبد الأمير الأعسم ـ الفيلسوف نصير الدين الطوسي مؤسس المنهج الفلسفي في علم الكلام الإسلامي

دار الأندلس ـ بيروت
٢٨ـ محمد بن علي بن طبطبا المعروف بابن الطقطقي ـ الفخري في الآداب السلطانية
دار صادر ـ بيروت
٢٩ـ ياقوت الحموي الرومي البغدادي ـ معجم البلدان
دار صادر ـ بيروت
٣٠ـ حسن الأمين ـ الغزو المغولي
دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت
٣١ـ الشيخ جعفر محبوبة ـ ماضي النجف وحاضرها
دار الأضواء - بيروت
٣٢ـ أحمد مختار العبادي – في التاريخ العباسي والفاطمية
دار النهضة العربية ـ بيروت
٣٣ـ جعفر المهاجر ـ الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي
دار الروضة ـ بيروت
٣٤ـ إبراهيم فصيح الحيدري البغدادي ـ عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد.
دار الحكمة ـ لندن
٣٥ـ جاسم حسن شبر ـ مؤسس الدولة المشعشعية وأعقابه في عربستان وخارجها.
مطبعة الآداب ـ النجف الأشرف.
٣٦ـ حمود الساعدي ـ دراسات عن عشائر العراق الخزاعل
مطبعة الآداب ـ النجف الأشرف
٣٧ـ حسن الأسدي ـ ثورة النجف
دار الحرية للطباعة ـ بغداد

٣٨ـ زهر الربيع للسيد نعمة الله الجزائري ج٢ ص١٢٦-١٢٩
المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف
٣٩ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ مقاتل الطالبيين
شرح وتحقيق أحمد صقر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت
٤٠ـ الشيخ عبد الرحمن السويدي ـ حديقة الزوراء في سيرة الوزراء
تحقيق صفاء خلوصي، مطبعة الزعيم ـ بغداد ١٩٦٢
٤١ـ عبد القديم زلّوم ـ الأموال في دولة الخلافة
دار العلم للملايين ـ بيروت

الأجنبية

- Lord Kinross - The Ottoman Centuries
Marrow Quill Paper back, New York

- H. Batatu - The Old Social and the Revolutionary Movements of Iraq
Princeton University Press Princeton, New Jersey

- Philip K. Hitti - History of the Arabs
The Macmillan Press ltd, London and Basingstoke

- Georges Roux - Ancient Iraq
George Allen & Unwin ltd, Pelican Books

- Birge, J.K - The Baktashi order of Dervishes

- Richard W. Bulliet - The Camel and the Wheel
Harvard University Press Cambridge, Massachusetts London

- Browne, E.G. - A litrary History of Persia.